نهر الذكريات

المراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية

تأليف وإعداد

كرم محمد زهدي | ناجح إبراهيم عبد الله

علي محمد علي الشريف | أسامه إبراهيم حافظ

حمدي عبد الرحمن عبد العظيم | فؤاد محمد الدواليبي

عاصم عبد الماجد محمد | محمد عصام الدين دربالة



مكتبة التراث الإسلامي

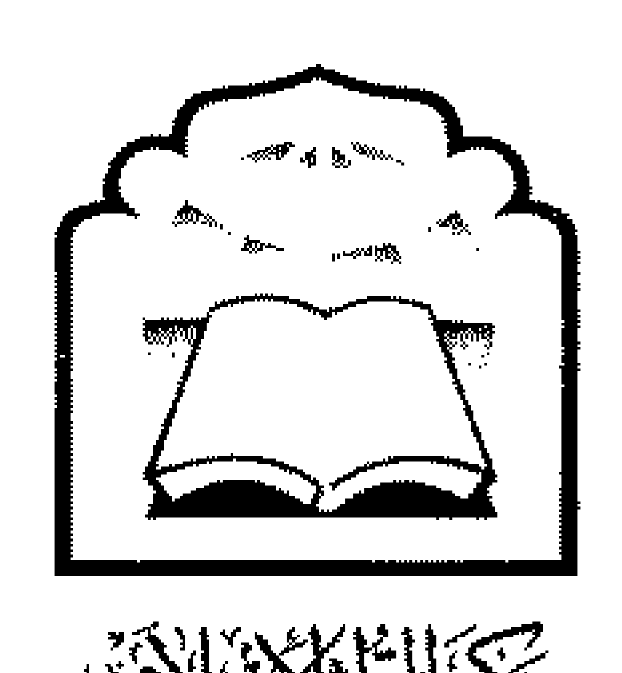


تأليف وإعداد

كرم محمد زهدي — ناجح إبراهيم عبد الله
علي محمد علي الشريف — أسامة إبراهيم حافظ
حمدي عبد الرحمن عبد العظيم — فؤاد محمد الدواليبي
عاصم عبد الماجد محمد — محمد عصام الدين دربالة

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

الطبعة الأولى
شعبان ١٤٢٤
سبتمبر ٢٠٠٣



مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

Islamic_torath_bookshop@maktoob.com

Tel : (202) 3925677 - 3911397 Fax : 3913406

إهداء

إلى كل من ساهم في إنجاح مبادرة منع العنف من رجالات الدولة المخلصين .. وقادة الجماعة النابهين .. وأبناء الجماعة الصابرين ..

إلى كل هؤلاء
نهدي هذا الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه .. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .. وبعد .

لقد كانت المفاجأة التي أصابت الجميع بالذهول عندما وقف الأخ / محمد أمين في المحكمة العسكرية في يوم ٥ / ٧ / ١٩٩٧ م أثناء نظر القضية العسكرية رقم (٢٣٥) ليلقي بياناً مذيلاً وموقعاً بأسماء ستة من قادة الجماعة الإسلامية ، يُعلنون فيه إيقاف جميع العمليات العسكرية بالداخل والخارج ، ووقف جميع البيانات المحرضة عليها دون قيد أو شرط ومن جانب واحد .. كان هذا البيان هو البداية .. أو لِنَقُلْ هو الحجر الذي ألقي في الماء الراكد وبعده توالت موجات الأحداث ..

فكان ردُّ الفعل في البداية مُشَجِّعاً ، وأثنى الكثيرون على هذا التَّوجُّه ودارت عجلة التفاعلات .. وكادت المبادرة أن تؤتي ثمارها ، وتظهر آثارها منذ ذلك الحين لولا حادث الأقصر بكل تداعياته المؤلمة ، وتفاصيله المفجعة ، والذي أعلنا وقتها - ومازلنا نردد - أنه كان طعنة شديدة في ظهورنا ..

بدت المبادرة وقتها كوليد صغير فوجئ بضربة قوية على رأسه ، ففقد الوعي وكاد أن يموت لولا لطف الله تعالى .. حتى إن الكثيرين - وقتها - تشككوا في إمكانية أن يفيق هذا الوليد مرة أخرى ولو بعد حين ، خاصة وأن تفعيل المبادرة تعطل مُدّة ليست بالقصيرة .. ولكننا استعنا بالله ، ومضينا في طريق مليء بالأشواك ، ننحت فيه الصخر بأظافرنا .. لأننا على يقين من صدق ما نَصْبُو إليه .. فنحن نسعى لحقن الدماء .. وإسباغ الأمان .. والصلح بين أبناء الوطن الواحد .. ولن يخذلنا الله .. فهدى الله إخواننا في خارج البلاد إلى إعلان تأييدهم للمبادرة في ٢٨ / ٣ / ١٩٩٩ م .

فكانت الخطوات الفعلية والعملية لتفعيل هذه المبادرة ، وكانت أولى هذه الخطوات هي إعداد بعض الدراسات الشرعية المُوَثَّقة من الكتاب والسنة لتصحيح كل الأخطاء وتصويب بعض المفاهيم التي التصقت بالأذهان في السنوات الماضية والتي أدت إلى وقوع هذه الأحداث الدامية .. وكانت باكورة هذه الدراسات كتبًا أربعة أُعِدَّت وطُبِعت لتوضيح هذه المفاهيم ، والتي حملت العناوين الآتية :

(١) مبادرة وقف العنف .. نظرة شرعية ورؤية واقعية .

(٢) تسليط الأضواء .. على ما وقع في الجهاد من أخطاء .

(٣) النُّصح والتبيين .. في تصحيح مفاهيم المحتسبين .

(٤) حرمة الغلو في الدين .. وتكفير المسلمين .

وكان من الضروري أن نلتقي بأبناء الجماعة الإسلامية في السجون المختلفة لنشرح لهم المبادرة ونبينّ لهم الدوافع الحقيقية لهذا العمل الذي أصبح يمثل منعطفاً هاما ومؤثرا في تاريخ الحركة الإسلامية عامة والجماعة الإسلامية خاصة .

وكان من الضروري أن نسمع من إخواننا بعد سنوات طوال حالت الأسوار فيها بيننا وبينهم ، نشعر بنبض قلوبهم ويشعرون بنبض قلوبنا ، ولقد تفهمت القيادات الأمنية أهمية هذه الخطوة ، فكانت جولاتنا إلى السجون المختلفة ، والتي استغرقت قرابة العام ، والكثير من الجهد والطاقة والصبر ..

بدأناها من السجن الذي كان مجرد ذكر اسمه يلقي في القلوب خوفاً وفي النفوس مهابة .. من سجن الوادي الجديد .. ثم الفيوم .. ثم العقرب .. ثم الاستقبال .. ثم أبي زعبل .. ثم وادي النطرون .. ليكون مسك الختام لهذه الجولة المباركة في سجن دمنهور ..

واحتاج إتمام هذه الجولات إلى جهود كبيرة من مشايخ الجماعة وكذا من القيادات الأمنية وضباط وجنود الداخلية في كل مكان توجهنا إليه حتى انتهت هذه المهمة على وجه نحسب أنه يرضي اللّه تعالى ويحقق الأهداف المرجوة من ورائها ..

ولقد سعد الجميع بالحفاوة والحب والترحاب الذي كان الإخوة يلقوننا به في كل مكان ذهبنا إليه - كبيرهم قبل صغيرهم - .. كانت الابتسامة كمرآة تعكس ما بالصدور من المحبة والقناعة والرضا بالمبادرة ، والاستبشار بآثارها ونتائجها الطيبة .. وكان التجاوب من جميع أفراد الجماعة يزرع في الصدور إحساساً بالنجاح والتوفيق وأملاً في مستقبل مشرق للعمل الإسلامي ولمصر كلها بإذن اللّه العزيز الحميد ..

وللحديث عن هذه الجولات الطيبة .. والتي تمكنا فيها بتوفيق اللّه وعونه من شرح المبادرة شرحاً وافياً شافياً مستفيضاً .. وتفاعلنا مع إخواننا تفاعلاً إيجابيًا بناء .

كان هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم ، ليعيش معنا مراحل جولاتنا إلى السجون بكل تفاصيلها .. والذي استغرق إعداده عدة أشهر ، واحتاج إلى مجهود كبير من أبناء الجماعة الإسلامية الذين وضعوا كل إمكانياتهم تحت تصرفنا حتى اكتمل إعداد هذا الكتاب .

فإلى كل من سَاعَدَ في إعداد هذا الكتاب نتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان سائلين اللّه سبحانه أن يجازيهم أحسن الجزاء .. ونسأل كل قارئ لهذا الكتاب أن يدعو لهم بالخير ، فقد كانوا جنودا مجهولين أعطوا كامل جهدهم وسخروا كل طاقاتهم لإعداد هذا الكتاب مِنْ سَرْدٍ للأحداث ، أو إعداد للمادة التي حواها الكتاب .. وكذا أصحاب المواهب الذين قاموا بالكتابة والخط .

إننا نتقدم بهذا الكتاب إلى كل من أراد أن يتعرف على مبادرة الجماعة الإسلامية بشكل كافٍ شافٍ وافٍ .. ماهيتها - ضرورتها - أهدافها - نتائجها .. نتقدم به إلى إخوتنا وأحبائنا من أبناء الجماعة خارج السجون الذين لم تتح لنا ولهم فرصة اللقاء والمناقشة وتبادل الآراء .. نتقدم به إلى إخواننا في التيار الإسلامي المهتمين بأمر الإسلام والمسلمين والذين يريدون أن يتعرفوا على حقيقة المبادرة ..

وقد كان من أهم الإيجابيات التي حققتها المبادرة بفضل اللّه تعالى وتوفيقه :

○ **أولاً** : تحقيق مصلحة الإسلام العظيم ودفع الكثير من المفاسد التي نجمت

عن الأحداث ، ورفع الكثير من العقبات والعراقيل التي اعترضت سبيل الدعوة إلى الله تعالى .. والتي كان من أهمها تجرؤ الكثيرين من خصوم الإسلام عليه حتى أصبح مألوفاً لدى أي مصري أن يواجه في أي مكان أو وسيلة إعلامية بالهجوم الشرس على الإسلام وشريعة الإسلام وهديه الطاهر ، بل ومكانة علماء الإسلام والدعاة إليه .

○ **ثانياً** : تحقيق مصلحة الوطن ، والتي تمثلت في هذا الأمن والأمان ، وتوحيد الكلمة ليلتفت الوطن بكل طوائفه وفئاته لمواجهة العدو المشترك للجميع ، والذي يتربص بهذا الوطن ويتحين الفرص لينال من حريته وسيادته .. فليس هناك مُواطن على أرض مصر يجهل أن هناك محاولات أمريكية وإسرائيلية محمومة لتحجيم دور مصر العربي والإسلامي في جميع المجالات : الديني والسياسي والشعبي ؛ لأنهم يرون في مصر بحجمها وثقلها وتاريخها عائقاً أمام تحقيق أهدافهم ومطامعهم في المنطقة .. وعلى كل مسلم مُخلص عاقل محب لوطنه ألا يكون أداة لتحقيق أهداف عدوه في تحجيم دور مصر قلب الإسلام النابض .

○ **ثالثاً** : معالجة ملف السجون المؤلم لتشهد السجون في فترة تفعيل المبادرة أطيب وأحسن عهودها منذ فترة طويلة جدًّا .. كما شهدت تطورا كبيرا واضح المظاهر عظيم الأثر في كل اتجاه . « المعاملة الكريمة - التغذية - العلاج - الدراسة للطلبة الجامعيين - عودة الاستقرار إلى الأسر وتوقف مسلسل الطلاق والذي كان من أهم سمات مرحلة ما قبل تفعيل المبادرة » .

وقبل أن نختتم هذه المقدمة نقول لكل مهتم بأمر الإسلام والمسلمين ولكل إخواننا في التيار الإسلامي .. ولكل غيور على دينه وعلى دعوته .. إن التجاوب مع المبادرة إنما هو دوران مع شرع الله تعالى ، وليس مع دنيا زائلة أو عرض عاجل لا يدوم .. فهناك فرق كبير وبون شاسع بين الثبات على الحق وبين العناد .. فلْندُرْ إذن مع الحق حيث دار وإن لم نربح منه عاجلاً فسوف نربح منه آجلاً .. فإن أسهم التعامل في بورصة التجارة مع الله تعالى في ازدياد دائم حسب قانون الله « الحسنة

بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف »[1] . والله يضاعف لمن يشاء ، وذلك بعكس التعامل في بورصة الدنيا والتي تتأرجح أسهمها بين الزيادة والنقصان .

وعلينا ألا نستجيب للمزايدين ، فإن المزايدة تضيّع الممكن في طلب المستحيل .. ورحم الله رجلاً أبصر زمانه فاستقامت طريقته .. ونحن لا نملك عصا سحرية لحل كل المشكلات ، وإنما بذلنا قصارى جهدنا متوكلين في ذلك على الله تعالى ، وقد يكون الزمن جزءا من العلاج .. وإننا لم نتعامل مع المبادرة بمنطق وفهم تاجر قصير النظر لا يرى إلا تحت قدميه ولا يحسب إلا ربح يومه العاجل .. ولكننا تعاملنا بمنطق وفهم الدعاة إلى الله سبحانه الذين ينظرون إلى مرضاة الله رب العالمين ، وإلى مصالح ديننا العظيم ، وإلى مصالح المسلمين في الدنيا والآخرة ..

فعلى كل مسلم - يُقَدِّم مصلحة دينه وأمته على مصالح ورغبات نفسه - ألا يتعامل مع المبادرة بالحسابات المادية التي تحكمها مقدرة العباد ، ولكن عليه أن يتعامل معها بمنطق الشرع والدين ، والذي تحكمه قدرة ومشيئة رب العباد تبارك وتعالى .

على كل مسلم يفهم دينه فهماً صحيحاً ألا يتعامل مع مبادرتنا بأسلوب صاحب الدنيا ضيق الأفق الذي لا ينظر إلا إلى الدنيا ولا يرغب إلا في متاعها .. ولكن عليه أن يتعامل معها بأسلوب صاحب الدين الذي يتخذ من دُنياه مَعْبرا لآخرته ووسيلة لمرضاة ربه .

ولعل الجميع قد لمسوا أن الجماعة الإسلامية بعد المبادرة قد تغيرّت إلى الأحسن والأفضل .. ولقد راهن الكثيرون على أن هذه المبادرة لن تُقْبَل وسيكون أبناء الجماعة أول من يرفضها .. ولكن الواقع أثبت غير ذلك .. فلقد صدق حدسنا في أبناء الجماعة فأصبحوا خير من يقوم بتفعيل المبادرة وداروا معها متغيرين إلى

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٤١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، والنسائي في المجتبى [٢٣٩٢] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ، وابن ماجه [٣٨٢٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وأبو داود [٣٤٣] عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما .

الأحسن في فهمهم لدينهم ، وفي المحافظة على مصالحه .. وأصبحت الجماعة أفضل كثيرا من ذي قبل .

وفي ختام تقدمتنا لهذا الكتاب نقول لإخواننا في الجماعة الإسلامية ولكل أخ مسلم صالح :

إن عليكم أن تعلموا أنكم أنتم – بطاعتكم للّه تعالى والتزامكم بدينه العظيم وحسن تقديركم للأمور وحفظكم لمصالح الدين والوطن – ستظلون دائماً زهرات هذا المجتمع النقية الطاهرة التي ينبعث عطرها الزكي في كل اتجاه لتبعث في هذا المجتمع قيم الإسلام العظيم وأخلاقه ومبادئه السامية التي ترتقي بها الحياة إلى الأفضل في الدين والدنيا .. لتعيد حضارة سلفنا الصالح .. واعلموا أن المجتمع المصري لن يستغني يوماً عنكم .. فأنتم جزء عزيز من قلبه ومن كيانه ، ولن تستغنوا أنتم عنه لحظة واحدة ، فهو المدرسة التي فيها تعلمتم قيمكم ومبادئكم وأخلاقكم ، وهو البيئة التي جعلت منكم رجالاً صالحين ..

واعلموا أن المجتمع والوطن في حاجة إلى أياديكم الطاهرة النظيفة المتوضئة ، وإلى وجوهكم الساجدة الخاشعة في كل لحظة من تاريخه وخاصة في هذا الوقت العصيب الذي تعاني فيه أمتنا الإسلامية أصعب أزمة مرت بها عبر تاريخها الطويل فكونوا أبر أبناء الوطن بالوطن وخير أبناء الإسلام للإسلام .. وأكرم عباد اللّه بعباد اللّه .. فهذا هو دوركم ومقامكم الذي يريده منكم الإسلام ..

وإذا كان لكل وقت عبادة تميزه عن غيره .. فإن خير عبادة في هذا الأوان الصعب هو المحافظة على قوة هذه الأمة وقوة الروابط بين أبنائها .. كونوا كما قال رسولنا الكريم صلى اللّه عليه وسلم : « مثل المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحمهم وتَعَاطُفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تَدَاعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . متفق عليه عن النعمان بن بشير[1] .

---

(١) رواه البخاري [٦٠١١] ، ومسلم [٢،٥٨٦ / ٦٦] .

وفي رواية لمسلم : « المسلمون كجسد واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله »[1] .

ونقول : إن أكثر شيء نتقرب به إلى اللّٰه تعالى – بعد الإيمان باللّٰه ورسوله وأداء فرائضه – هو هذه المبادرة التي كانت كشجرة طيبة لم تنتج من الثمار إلا طيباً .

وإن أكثر ما نتوسل به إلى رب العالمين سبحانه هو هذه المبادرة التي أرجو اللّٰه تعالى أن يتقبلها قبولاً حسناً .

وأفضل عمل نرجو له القَبُول عند ربي جل وعلا هو هذه المبادرة التي أدعو اللّٰه أن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم .

بل إننا نقول .. إن أفضل سنوات عمرنا وأجلها تلك السنة المباركة التي تم فيها تفعيل المبادرة لتدخل الفرحة بيوتاً وصدورا طالما سكنتها وقوّضت أركانها الآلام والأحزان ويعمُّ الخير أرض الكنانة التي أناط اللّٰه تعالى بأهلها مهمة القيام بدور القلب النابض بالحياة للأمة الإسلامية .

وإن أفضل قُربة إلى اللّٰه سبحانه هي قضاء حوائج الناس وتَفْرِيج كربهم .. وقد يكون هذا العمل في هذا الوقت أفضل من نوافل الطاعات .. وقد كانت المبادرة بفضل اللّٰه جَلَّ شأنه سبباً في قضاء الكثير والكثير من حوائج الناس وتفريج كّرب الكثيرين وحقْن دماء مسلمة طاهرة .. وتجفيف دموع وتخفيف آلام مئات الأسر التي طال عناؤها ..

وإلى اللّٰه سبحانه وتعالى أتوجه بخالص دعائي وكامل رجائي أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم .. وإيضاحا لمدى أهمية هذه المبادرة .. وتبياناً للقبول الذي تلقاها به كل أفراد الجماعة الإسلامية وكلُّ حريص على مصلحة الدين العظيم .. كما أرجوه سبحانه أن يكلل هذه المبادرة المباركة بتحقيق كل أهدافها

(١) رواه مسلم [٢٥٨٦ / ٦٧] عن النعمان بن بشير رضي اللّٰه تعالى عنه .

النبيلة وغاياتها الكريمة .. وأن يكتب سبحانه النصر والعزة والتمكين للإسلام والمسلمين .

والله تعالى من وراء القصد ..

وهو يهدي السبيل ،،،

تم الانتهاء منه بعون الله تعالى في :

شوال ١٤٢٣ هجرية

يناير ٢٠٠٣ ميلادية

عن المؤلفين /

ناجـــح إبراهيـــم

هذا الكتاب

هذا .. وبعون من الله تعالى قد تم تقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب وفصول على النحو التالي :

الباب الأول

تم تقسيمه إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وتم فيه انتقاء أهم الكلمات التي قيلت في الندوات ، وشرحنا في مقدمته النظام الذي كان يتم به توزيع المحاضرات وتقسيمها .

الفصل الثاني : وسنلتقي فيه بالوصايا التي ألقيناها في السجون والتي كنا نحرص عليها في ختام رحلة كل سجن نذهب إليه .. وقد حرصنا أن نُودِع هذه الوصايا عصارة تجربتنا وخلاصة خبرتنا .. وأهم المفاهيم التي يمكن أن تُشَكِّل عوناً لجميع إخواننا في سيرهم إلى اللّه تعالى .

الفصل الثالث : نقلت فيه رُدود الأفعال المختلفة على المبادرة ، وأهم الكلمات التي قِيلت في حقها من قبل كبار الكتاب والمثقفين .. وقد عرضت في مقدمة هذا الفصل للموقف المُخْزِي الذي وقفته بعض الأقلام ذات التَّوجه اليساري والتي حاولت إفساد هذا العمل العظيم قدر استطاعتها .. ولكن اللّه أَظْهر الحق وجعل له القَبُول عند الناس .

الباب الثاني

وقد استعرضنا فيه الأسئلة التي وجهت إلينا في المحاضرات المختلفة .. فلم يكن الأمر ـ كما يظن البعض ـ سهلا ميسورا ، أو أن أبناء الجماعة قبلوا الأمر بعقول مغيبة .. ولكنهم استمعوا وأنصتوا .. ودَرَسُوا ما كنا نُلْقيه عليهم من محاضرات .. ثم واجهونا بهذه الأسئلة .. والتي كنا نعتبرها مؤشرا صحيًا على قبولهم للمبادرة فهي علامة على أنهم يدرسون الأمر دراسة جيدة ويتفاعلون مع كل ما نقول

تفاعلاً إيجابيًا .. وقد قمنا ـ بعون اللَّه ـ بالرد على كل هذه الأسئلة والاستفسارات بوضوح وشفافية .. على الرغم من قسوتها في بعض الأحيان .. إلا أننا ـ وبتوفيق من اللَّه ـ استطعنا محاورة أصحابها .. وكانت النتيجة النهائية هي الاقتناع التام من قبل أبناء الجماعة بالطَّرح الذي قدَّمناه لهم .

الباب الثالث

وهو الخاص بأحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها الرهيبة وقد قَسَّمْنَاهُ إلى مقدمة وستة فصول على النحو الآتي :

الفصل الأول : بعنوان « **إرهاصات الحادي عشر من سبتمبر** » .. عرضنا فيه الأحداث التي سبقت الحادي عشر من سبتمبر من تأسيس الجبهة العالمية لقتال اليهود والأمريكان ثم تفجيرات نيروبي ودار السلام والمدمرة كول ، ثم سيناريو ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر وضرب أفغانستان ، وعرضنا فيه موقف الجماعة من الجبهة ولماذا انسحبت منها .

الفصل الثاني : وفيه تم توضيح موقفنا من الأحداث منذ وقوعها .. وكذلك موقف بعض الجماعات والتنظيمات الإسلامية التي سلكت مسلكنا إزاء أحداث الحادي عشر من سبتمبر .. كما استعرضنا فيه بعض دروس التاريخ المهمة ، والتي لم تستوعب من قِبَل الذين قاموا بأحداث الحادي عشر من سبتمبر ، ولا من قبل حركة طالبان .. كما استعرضنا فيه بالنقد والتحليل نظرية المؤامرة التي تسيطر على أذهان الكثيرين ، حتى صرح البعض – انطلاقاً من هذه النظرية – أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر لم يقم بها تنظيم القاعدة وإنما قام بها الموساد !!

الفصل الثالث : استعرضنا فيه أثر الأحداث على الإسلام والمسلمين سواء في فلسطين .. أو الصورة التي رسمت للإسلام في منظومة الغرب الثقافية والإعلامية ، ومدى استغلال أمريكا لهذه الأحداث لمزيد من التدخل السياسي والثقافي

والعسكري في الدول الإسلامية .

الفصل الرابع : وقد خصصناه للحديث عن طالبان وسياساتها الغربية التي أدت إلى نهايتها في نهاية المطاف .

الفصل الخامس : وتحدثنا فيه عن الملا عمر باعتباره فقيها لا قائدا على اعتبار أن الملا عمر هو رأس القيادة في أفغانستان .

الفصل السادس : وأوضحنا فيه الفرق بين إمارة الجماعات وقيادة الدول ؛ لأن هذا المفهوم غير واضح لدى الكثيرين من أبناء الحركة الإسلامية ..

ثم كانت خاتمة الكتاب ..

○ ○ ○

○ **أسماء المحاضرين :**

١- كرم محمد زهدي .

٢- أسامة إبراهيم حافظ .

٣- فؤاد محمود حنفي الدواليبي .

٤- ناجح إبراهيم عبد الله .

٥- على محمد علي الشريف .

٦- عاصم عبد الماجد محمد ماضي .

٧- محمد عصام الدين حسن دربالة .

○ ○ ○

الباب الأول

رحلات السجون

من قمة الآلام إلى صحوة الآمال

بين يدي رحلات السجون

بدأت جولاتنا إلى السجون بسجن الوادي الجديد وانتهت بعد قرابة عشرة أشهر في سجن دمنهور ..

وما بين الوادي ودمنهور تدفق نهر المشاعر ليروي أرض علاقتنا بإخواننا .. فأينعت ثمار الحب والود في القلوب ..

لقد كانت اللقاءات مؤثرة أيما تأثير عندما التقينا بحبات قلوبنا وفلذات أكبادنا بعد غياب عنهم لما يقرب من عشرين عاماً ..

لا أستطيع أن أصف لك - أخي الحبيب - روعة هذه اللقاءات .. ولا أن أَصِف لك دُموع الحب التي سالت عند اللقاء وكذلك عند الوداع ..

فبعد أن أطلقنا مبادرة وقف العنف كان من الضروري أن يتم شرح الكتب التي أعددناها تحت اسم سلسلة « تصحيح المفاهيم » لجميع إخواننا بالسجون .

وقد توكلنا على الله تعالى ومضينا إلى هذا العمل ونحن ما بين قلق على نجاح هذا المَسْعى ، وبين ثقة مِنّا في قبول إخواننا للحق ودورانهم معه حيث دار ، وما بين رجائنا في توفيق الله تعالى ..

فكان الدعاء رفيقنا في هذه الرحلة لعل الله أن يوفقنا إلى ما نَصْبُو إليه .. ومضينا نقضي ساعات السفر الطويلة بين هذه الأحاسيس والمشاعر والتأملات ، يسبقنا شوق عظيم للقاء إخواننا أحبائنا وحبات قلوبنا .. لذا كنا نُسابق الأحداث لهذا اللقاء ..

وكم كانت لحظات عظيمة مؤثرة عندما التقينا بهم لأول مرة .

جلسنا إليهم .. صارحناهم بحقيقة ما وصلنا إليه من مراجعات قدمنا الأدلة والبراهين بين أيديهم واضحة دون مُواربة أو مُداراة أو لَيٍّ للحقائق ..

وكم يبدو الأمر عسيرا أن يتحدث قادة أمام أفرادهم بكل وضوح وصراحة عن

مراجعات وتصويبات .. ولكن اللّه يَسَّر الأمر ، وبات الصعب سهلاً والعسير يسيرا بتوفيق اللّه ..

وبدأ قلقنا يتساقط عن نفوسنا مع ظهور الابتسامات وعلامات الارتياح على قسمات الوجوه .

كان شرحنا للكتب يتم على وجبات من الإجمال إلى التفصيل إلى الحوار ..

فكنا في أول لقاء مع كبار إخواننا نُجْمِل إجمالاً يُعطي فكرة مختصرة عن موضوع المبادرة ، وفكرة المراجعة ، ولماذا كانت المبادرة .. والأطوار التي مَرّت بها ، ثم فكرة عن كل كتاب ، ولماذا هذا الكتاب وعناصره الرئيسية .

أما اللقاء المُوَسَّع الذي يضم الجميع فقد كان يتناول كتاباً كتاباً بالشرح والتفصيل الطويل الذي يبدو أضعاف ما جاء بالكتاب وذلك لما حدث في الشرح من استفاضة في الأمثلة والتوضيح ، ولما كان كل لقاء يحظى بمقدمة مُفْعَمة بالمشاعر الجيّاشة والود والشوق والحب ، وكذلك الإشفاق .. وتبدو هذه المشاعر في بعض العبارات .. مثل :

أناديكم أناديكم	أشد على أياديكم
أقبل الأرض بين أيديكم	وأقول أفديكم
وأهديكم ضيا عيني	ودفء القلب أعطيكم
فمأساتي التي أحيا	نصيبي من مآسيكم
وآمالي التي أرجو	إشراقة أمانيكم

ومثل :

« .. تحية لكم أيها الصابرون .. تحية لكم أيها الراضون عن اللّه .. تحية لكم من كل قلوبنا .. » .

وكانت هذه اللقاءات طويلة تمتد أحياناً إلى خمس ساعات متصلة .. فكانت تحتاج إلى فواصل منعشة لتجديد استعداد الأذهان ، ومقدمات تنبه العقول .. فكان « الشيخ كرم » ينفض الخمول والإرهاق بكلماته وأسلوبه الطريف .

وقد كان لهذا الحديث الدافئ الذي يفيض بالحب والاعتزاز أثر كبير في إذابة مرارة بعض الحقائق والمفاهيم التي توجهت إليها عبارات التصحيح بقوة وصراحة دونما خجل ..

أما الوجبة الثالثة فقد كانت تتم داخل العنابر والزنازين حيث نجلس إلى الإخوة في حلقات لنستمع إلى أسئلتهم فيبدأ الحوار .

وقد كان بعضهم يتحرج في البداية عن طرح بعض الأسئلة ، ولكننا شجعناهم على أن يُبْدوا ما في نفوسهم دونما حرج ، ومن هنا تفاعل الحوار ، وانفعل أحياناً إلى حد الغضب الذي آثرنا أن نترك له مجاله ما دمنا واثقين من التزام إخواننا بالآداب الإسلامية في الحوار .. فتكاملت سعة صدرنا مع أدبهم وحبهم .. فكانت النتيجة برحمة اللّه وضوح الأمور وزَوَال اللَّبس وظهور الاقتناع ..

وقد كانت هذه اللقاءات حقًّا ممتعة امتزجت فيها بعض المرارات بكثير من المشاعر الفياضة ومتعة اللقاء التي انسالت من القلوب على الألسنة .. فسمعنا :

تحيات وأشواقا وقلباً حنّ واشتاقا

أرتلها وأرسلها كماء الورد رقراقا

كما كانت هناك بعض اللمسات التي أضافت معانٍ جميلة تؤكد الإصرار على الرغبة في حقن الدماء وبداية عهد جديد أكثر أماناً وكانت هذه اللمسات تتمثل في تحسين المعاملة في السجون .

وبعد انتهاء شرح الكتب ، والإجابة على الأسئلة كنّا نعطي الفرصة ليعبروا هم وليقولوا ما يريدون أن يقولوه .. فكانوا يعدون حفل ختام .. وقد بدأت هذه الفكرة في سجن شديد الحراسة بطرة .. وهو السجن المودع به الإخوة المحكوم عليهم ، وكان لهذا السجن خصوصية معينة حيث كان هناك توجس من ضعف الاستجابة للمبادرة ؛ لأن هؤلاء لا أمل لديهم في أن تعود المبادرة عليهم بفائدة ..

غير أن النتائج كانت عكس ذلك .. وقد أثبت هؤلاء أن اقتناعهم بالمبادرة مسألة

مبدأ وليس بحثاً عن مصلحة .

وقد كان هذا السجن بالفعل أكثر السجون أسئلة وحورا وأخذا وردا .. وكان أكثرها نصيباً من القُرب واللقاء المباشر .

وفي نهاية الندوات تركت لهم الفرصة ليبلوروا فكرتهم .. فتكلم أحدهم نيابة عنهم ، وقد كانت كلمة حارة تفيض حبًا واقتناعاً وتأييدا لمبادرة وَقْف العنف .. وقد كنا نود تسجيلها هنا كاملة لولا ضيق المجال عن ذلك .

ولقد كان من الجميل أن يحضر أحد هذه اللقاءات الأستاذ / مكرم محمد أحمد « رئيس تحرير مجلة المصور المصرية » وتأثر بجمال هذه اللقاءات وصدقها وتأثيرها ..

ولعلك تتساءل عن قصة هذا اللقاء وكيف تم ؟!

وحقيقة هذا اللقاء أن الأستاذ / مكرم محمد أحمد كان قد اطلع على الكتب الأربعة فأبدى رغبته في مقابلتنا لحوارنا وسماع هذا الكلام بنفسه ، وكنا في ذلك الوقت قد بدأنا رحلتنا إلى سجن وادي النطرون ، فانتقلنا إلى سجن العقرب « شديد الحراسة بطرة » لإجراء هذا الحوار الذي نشرته « المصور » في ٢١ / ٦ / ٢٠٠٢ ..

وفي نهاية الحوار بادرنا الأستاذ / مكرم بقوله : هل تستطيعون أن تواجهوا قواعدكم بهذا الكلام ؟ .. فأخبرناه أن هناك لقاءات تعقد في السجون ويتم فيها الحوار والمصارحة بكل ما سمعه ، ويمكن أن يشاهد هذا الأمر بنفسه . وبالفعل حضر الأستاذ / مكرم أول أيام محاضرات سجن وادي النطرون (٢) .. وقد حرص على أن يكون مقعده بين جموع الحاضرين ليسمع بنفسه انطباعاتهم عما يلقي على مسامعهم .

وقد حرص « الشيخ كرم » على الترحيب به وبمرافقيه ، وقد سمع الأستاذ مكرم ما كان يهدف لسماعه من مصارحة ، وأخذ يتابع تعليقات الإخوة خاصة في مواطن ذكر الأخطاء في المرحلة السابقة ..

وراح الأستاذ مكرم يسأل من حوله : هل من المعقول أن لا يحاور أحد ولا يسأل ؟!

ولكن ما هو إلا قليل حتى فتح باب الأسئلة فانهمرت الأسئلة .. وكان الكثير منها يبدو محرجاً ، ولكن كانت الإجابة بكل صراحة ووضوح دون وَجَل أو تَرَدُّد ..

وقد انبهر الأستاذ مكرم بأدب الحوار في موضوعات حساسة كهذه وسجل تعليقاته في مجلة المصور وفي كتابه : « مبادرة منع العنف .. مؤامرة أم مراجعة ؟ » وقد كنا نود أن نُورد تفاصيل هذا اللقاء ولكن آثرنا أن لا تزاحم الموضوعات التي نحن بصددها بموضوعات قد يكون لها مجال آخر .

وقد كان لهذه الأسئلة والمناقشات أثر كبير في إثراء الأفكار وتوسعة الآفاق وتطوير أسلوب الحوار وتغيير كثير من النظرات .

وهكذا .. كان لهذه النّدوات أثر عظيم في إنهاء مناخ قاتم من الاضطراب والشك والقلق والانفعال وإحلال مناخ مختلف تماماً من الارتياح والثقة وحسن الخطاب .

وفي النهاية .. لقد أخرجت هذه اللقاءات قلوب الشباب من قمة الآلام إلى صحوة الآمال ..

وقد كنا نأمل أن نذكر رحلتنا في السجون من سجن الوادي الجديد جنوباً حتى سجن دمنهور شمالاً بالتفصيل .. ولكن المجال يضيق عن ذكر هذه التفاصيل ، وقد يُيسر اللّه لنا هذا الأمر في فرصة قريبة إن شاء اللّه .. ولكننا سنكتفي اليوم بذكر أهم القضايا التي طرحت في المحاضرات .. وكذلك أهم الوصايا الختامية والتي أسميناها وصايا الوداع .. وكذلك أهم الآراء التي طرحت في الصحف والمجلات عن المبادرة ، وأهم ردود الفعل حولها ..

ونسأل اللّه القبول .. وأرجو أن ينفع اللّه بهذه الكلمات كل المسلمين في الدين والدنيا والآخرة .

○ ○ ○

الفصل الأول

كلمات من المحاضرات

بين يدي الكلمات

لم تكن عباراتنا وكلماتنا عبر ما يقرب من عشرة أشهر – طفنا فيها سجون مصر من جنوبها إلى شمالها – مجرد أحرف نطقت بها ألسنتنا والتقطتها آذان الآلاف من أبناء الجماعة الإسلامية ولكنها كانت تجربة فريدة في البناء والعطاء وخدمة الدين .

كنا نعرف تمام المعرفة قبل خوض غمار هذه التجربة أننا لسنا في نزهة خلوية .. أو أننا سنذهب لنتسامر ونقضي أوقاتاً ظريفة مع من نعرف ومن لا نعرف ..

كان هذا بعيدا عن أذهاننا وتفكيرنا .. كان الأمر صعباً ، ولكن لابد من خوضه كان الأمر مرًّا ، ولكن لابد من تجَرّعه .. فليس من السهل أو اليسير أن تذهب إلى إنسان أي إنسان لتقول له : لقد أخطأت في كذا ، وجانبك الصواب في كذا ، ويجب علينا جميعا كذا .. وخاصة إذا كان هذا الإنسان يصارع أهوال البلاء ومحن السجون وبُعْد الأحبة وفراق الأهل لسنوات طوال ..

لم يكن ثَمّ خيار .. فلابد من إيصال الحق مهما كان مرًّا ..

تحركت بنا الحافلات من سجن ليمان طرة وهذه الأفكار تسيطر على أذهاننا .. ولكننا ذهبنا .. وسرنا .. ومضينا ثقة بالله أولا أنه لن يخذلنا ونحن نسعى في حقن الدماء المسلمة ورفعة شأن الأمة ثم ثقة بإخواننا بأنهم ما أقدموا عليه إلا وهم يبغون مرضاة الله وهم الآن لن يَتَوَانوا عن الانصياع للحق متى ظهر لهم .

اختلطت كلماتنا وعباراتنا بنظرات الأسى وتساؤلات الرضى عما نقول ..

لعلك أدركت معي أخي الكريم لماذا لم تكن كلماتنا وعباراتنا مجرد أحرف نطقت بها ألسنتنا .. ولعلك تذهل معي إذا حدثتك عن الاستجابة الرائعة التي قوبلنا بها من حبات قلوبنا في مختلف السجون التي ذهبنا إليها والتي ستظل محفورة في أذهاننا أبدا ما حيينا ..

وستظل حرارة هذه اللقاءات نبضا في عروقنا يسري .

لقد كان إخواننا وأحبتنا عند حسن الظن بهم إذ هتفت قلوبهم عند سماع الحق ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فلله دَرُّهم .. ولله در فهمهم .. وإني لألمح في عينيك أخي الكريم - لهفة وشوقا إلى سماع هذه الكلمات ..

فَهذي كلماتنا إليك مسطرة .. خرجت من قلوبنا .. فاستقرت في قلوب إخواننا ولا أخالها إلا أنها ستستقر في قلبك أنت أيضاً بإذن الله .

هذي كلماتنا إليك مسطرة بعد أن طفنا بها سجون مصر من جنوبها إلى شمالها ما أردنا بها إلا وَقْف نزيف الدماء وإنهاء حالة الصِّدام بين شباب طَيِّب طاهر وبين دولتهم .. ما أردنا بها إلا تعظيم الحُرُمات وإنهاء مسلسل البكاء والعويل على القَتْلَى والجرحى .. ما أردنا بها إلا الحق .. فالحق بُغيتنا ومرادنا .. ولم تعد الدنيا تمثل عندنا شيئاً ، فلقد قضينا من عمرنا اثنين وعشرين عاماً في السجن ومازلنا خلف الأسوار والحمد لله لم تكن تمثل عندنا شيئاً أيضاً فيما مضى .. فنحن نعلم أن السجن قدر ولابد من الرضا بقدر الله « فَمَنْ رَضِي فَلَهُ الرِّضىٰ ومن سخط فله السُخط »[1] . حنانيك أخي ورفقاً بنا فهي كلمات ما أردنا بها إلا إصلاح ذات البين وتوحيد كلمة المسلمين ..

ولكم تتوق نفسي إلى يوم تذاع فيه وقائع هذه الندوات ليراها الجميع وعندها سيكتشف الجميع عظمة النفس البشرية إذا أُحسِن توجيهها وتهذيبها ..

يالها من ذكريات لن تُمْحى من أذهاننا طفنا فيها مع أحبتنا من رياض المعاني التربوية الجميلة التي تدعو إلى وسطية الإسلام ، وتحث على الوفاء بالعهود والتسامي فوق الآلام والأحزان ، والتسامي عن رغبات الحقد والثأر .

وأخيرا فإني لأعلم أن البعض يظن أن مهمتنا كانت سهلة وميسورة ولكن يعلم الله كم كنّا نُعاني ونُقاسي حتى أننا كنا نلزم الدعاء في العربات التي تقلنا إلى أي

(١) جزء من حديث رواه الترمذي [٢٣٩٦] ، وابن ماجه [٤٠٣١] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه . وقال الألباني : حسن .

سجن نذهب إليه أن يوفقنا الله للخير وأن يكتب لنا القبول عند إخواننا المسلمين وكنا نظل نسترجع المحاضرات ونستظهرها رغم أننا ألقيناها مرارا وتكرارا حتى خرجت المحاضرات – وبفضل الله وحده – قوية في أدائها دسمة في مضمونها زاخرة بالمعاني الشرعية والأحكام الفقهية الدقيقة والنظرات الإنسانية العميقة التي طالما احتاج إليها الإخوة في السجون وخارجها .

وقد كان جدول المحاضرات مقسماً كالآتي :

○ **المحاضرة الافتتاحية :**

ودائماً تتحدث عن مقدمات عن **المبادرة** .. معناها .. وبدايتها .. وأسبابها .. والعقبات التي اعترضتها .. وتاريخها وتاريخ المحاولات السابقة عليها .. والبيانات التي صدرت بعدها والمغزى الشرعي لها .

○ **المحاضرة الثانية :**

وتتحدث عن موضوعين رئيسيين :

المبادرة رؤية **واقعية** . **المبادرة** رؤية **شرعية** .

○ **المحاضرة الثالثة :**

وتتحدث عن حُرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين . وتشمل جزأين هامين :

الغلو في الدين : تحريمه .. أسبابه .. مظاهره .. الإسلام بين الغلو والتقصير .

حرمة تكفير المسلمين .. ويشمل : حرمة تكفير عصاة المسلمين .. بدعة تكفير جهال المسلمين .. الرد على من ادَّعى كفر موظفي الحكومة .. الرد على التكفير بالموالاة الظاهرة للكفار .. الفرق بين الموالاة الممنوعة والمخالقة المشروعة .

○ **المحاضرة الرابعة :**

وتتحدث عن **الحسبة** الصحيحة **وضوابطها الشرعية** والأخطاء التي شابتها .. وتشمل :

إياكم والظن .. ولا تجسسوا .. لو سترته بثوبك .. لا ضرر ولا ضرار .. من يحرم الرفق يحرم الخير كله .. وبالوالدين إحساناً .. العجز يسقط التكليف .. عدم الاحتساب باليد خشية وقوع ضرر أشد منه .. المراجعة الشرعية ضوابطها وعوائقها نماذج من تجاوزات الحسبة على أرض الواقع .

○ **المحاضرة الخامسة :**

معاملة أهل الكتاب في الإسلام :

أهل الكتاب في مصر رؤية واقعية .. التاريخ شاهد على إنصاف وإكرام الإسلام لأهل الكتاب في مصر وغيرها وما يجوز ومالا يجوز في معاملتهم شرعاً .. البر والإحسان إليهم لا يعني توليهم .. ما يجب علينا في معاملتهم .. تحريم ظلم أهل الكتاب وكل أحد .. الرد على ادعاءات أقباط المهجر .. استغلال أقباط المهجر لحوادث فردية للنيل من مصر حكومة وشعباً .. خيانة أقباط المهجر لوطنهم وشعبهم الأصلي .. من له تحصيل الجزية .

○ **المحاضرة السادسة :**

تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء ، وتشمل العناصر الآتية : شرعية التغيير في الاجتهادات الفقهية .. هداية الخلائق هي الغاية والهدف . تصحيح مفهوم الجهاد .. حرمة إلقاء النفس في التهلكة .. حرمة قتل المدنيين من غير أهل المقاتلة .. حرمة قتل المستأمنين وقضية السياحة .. نظرات في التاريخ من وقائع الخروج على الحكام .. والصلح خير .. وجوب الوفاء بالعهد .. الحادي عشر من سبتمبر في ميزان الشريعة .

وفي بعض الأحيان تقسم بعض هذه المحاضرات إلى جزأين في يومين متفرقين لاتساع الموضوعات التي نطرحها .

○ ○ ○

كلمات من المحاضرات

وإليك الآن أخي القارئ أهم المعاني التي قيلت في المحاضرات مختصرة :

○ أطلقنا المبادرة حقناً لدمائكم والدماء عموما في مصر .

○ أطلقناها حفاظاً على الأنفس أن تَهْلك في غير ميدان ، أو أن تقتل دون مصلحة شرعية صحيحة ، أو أن تَزْهق دونما هدف شرعي .

○ أطلقنا المبادرة خدمة للإسلام والمسلمين وخدمة للوطن وليس خدمة لأغراض شخصية أو أهداف ذاتية .. فنحن في السجن منذ عشرين عاماً ، ولو مكثنا مثلها مرة أخرى – ونسأل اللَّه العافية – لتمسكنا بهذه المبادرة .

○ أطلقنا المبادرة صوناً لحرمات البيوت أن تنتهك . وحماية للبيوت والأسر المسلمة من أن تهدم ، ولوقف مسلسل اليتم والترمل والطلاق .. فالمبادرة جاءت من أجل مئات اليتامى من الفريقين .. ومن أجل مئات الأرامل من الفريقين ومن أجل مئات الثكالى من الفريقين ..

○ أطلقنا المبادرة لأننا رأينا أنها هي الأَقْرب إلى الحق ، وهي الأهدى سبيلاً .. وأن استمرار القتال لم يكن صواباً ، ولم يكن الأهدى سبيلاً .

. أطلقناها لأننا عشنا مع قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حُرمات اللّه إلا أعطيتهم إياها »[1] . ونحن قلنا : لا يسألنا أحد طريقة أو سبيلا أو آلية تحقن فيها الدماء ويمنع بها اقتتال أبناء البلد الواحد وتمنع بها المفاسد العظيمة التي لحقت بالإسلام وأهله في مصر إلا أجبناه إليها دون قيد أو شرط .. فنحن الذين أطلقنا المبادرة من جانب واحد ودون قيد أو شرط ، وقد حاولنا ذلك مرات كثيرة ولم يحالفنا النجاح .. والحمد للّه الذي أنجح هذه المبادرة .

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٢٧٣٤] عن المسور بن مخرمة رضي اللّه تعالى عنه .

○ قرار المبادرة قرار استراتيجي ناتج عن قناعة شرعية وبأدلة شرعية صحيحة لا تلتبس على كل ذي عقل سديد .. وهي ناتجة أيضاً عن رؤية مستبصرة للواقع من حولنا .. وهذا عهد قطعناه على أنفسنا وألزمنا به أنفسنا قبل أن يُلزمنا به أحد . وكلنا في ذلك نعيش مع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] . فاللّٰه لم يوجب الوفاء على عباده مرحليًا أو وقتيًا ولكن اللّٰه ألزم عباده بالوفاء الدائم والكامل .

○ **أطلقنا المبادرة من أجل وقف ومنع عنف أدَّى إلى أحقاد ونزاعات وثارات** تَوَلَّدت وكبرت بيننا وبين قومنا وأبناء وطننا وكادت أن تُنْسِي الفريقين أنهما من مِلَّةٍ واحدة ومن دين واحد ويصلون إلى قبلة واحدة ويعبدون ربا واحدا .

○ إن **المبادرة** التي أطلقناها **ليست مُقَايضة** بين دين وعرض زائل من الدنيا **ولكن لوقف ومنع اقتتال منعته الشريعة** الغراء لمفاسده العظيمة ، وواجب شرعي تصدينا له بكل شجاعة .

○ المُراقب لأحداث ما يقع من صراع بين الجماعات الإسلامية والشرطة يجد أن مُسْلمي هذا البلد من الشرطة والجماعات هم أكثر المتضررين من الصِّراع وآخر المستفيدين . فهذه الدماء والطاقات والأموال تَصُبُّ فائدتها في خزانة أعداء الدِّين والبلد .

○ والمبادرة ولدت في سنة ١٩٩٧ ، ولكنها بعد ولادتها مباشرة تلقت لطمة عنيفة وصدمة شديدة أفقدتها الوعي أربع سنوات ، ونحن حولها نعطيها الأوكسجين والمحاليل ونرعاها ويرعاها معنا الشرفاء من أبناء الوطن حتى أفاقت أخيرا ثم كبرت وترعرعت سريعاً حتى أصبحت الآن في طور الشباب وتستعصي على الموت والهلاك ، ولا يضرها ـ إن شاء اللّٰه ـ شيء بعد ذلك . أما اللطمة العنيفة التي تلقتها وهي وليدة ، فهي حادث الأقصر الذي كاد يودي بحياتها بل بحياة كل أمل لوقف نزيف الدماء .. ولذلك لا يسأل أحد

عن نتائج المبادرة إلا منذ تفعيلها مع بداية الرحلة إلى السجون من شهر أكتوبر سنة ٢٠٠١ .. فمنذ ذلك الوقت بدأت نتائج المبادرة الحقيقية في الظهور .

- الأحداث بدأت بحادثة « صنبو » مع النصارى وهي حادثة ثأرية بَحْتة ، ثم بدأت الأحداث تتوالى بين الفعل وَرَدّ الفعل والقتل والرد على القتل حتى وصلت الأحداث إلى ما وصلت إليه وكان إيقافها صعباً جدًّا .. فأي إنسان يستطيع أن يبدأ الحرب والقتال ، ولكن إيقافها قد لا يستطيعه آلاف الحكماء والعقلاء .. هذه هي حكمة الحياة التي عشناها وتعلمناها وعرفناها من دروس التاريخ القديم والحديث .
- من يُمن الطالع أن المبادرة أتت قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بخمس سنوات كاملة .. ولو أن المبادرة تأخرت حتى حدثت هذه الأحداث لما كانت لنا أدنى مصداقية .. والحمد للّه أن المبادرة كانت استشرافاً جيدا للمستقبل . فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ حُوصِرت الحركات الإسلامية في كل مكان ، وضربت في كل مكان ، وسجنت في كل مكان .. ولكن هنا في مصر كانت تباشير الفرج والعافية ، وفتحت الزيارات وبدأ خروج الناس من السجون رويدا رويدا .

الحمد للّه أن المبادرة وَوَقْف ومنع القتال جاء قبل الأحداث في فلسطين وقبل اجتياح شارون للأراضي الفلسطينية ، ولو أن المبادرة تأخرت حتى حدثت هذه المجازر لمسلمي فلسطين لقال الناس جميعاً في مصر وغيرها : هل من الشرع أن يقتل المسلم أخاه في مصر ، ويترك اليهود يقتلون الفلسطينيين في كل مكان ؟! .. لولا المبادرة لاتهمنا الناس إما بعدم فهم الشرع نصه وروحه أو بعدم فهم أبجديات السياسة في المنطقة أو بكليهما معاً ..

- الشباب المسلم سمع كثيرا عن الحث على الجهاد ، ولم يسمع في مقابل ذلك الكثير عن ضوابطه ، ولم يسمع كذلك الكثير عن موانعه ، ولم يسمع كذلك

متى يجب وقف القتال ومنعه ، ولم يسمع كذلك كيف يكون الامتناع عن القتال أحب إلى اللّٰه وأقرب للدين وأفضل للمسلمين ، ومتى يكون الامتناع عن القتال موافقاً للشرع نصه وروحه ، وموافقاً لصحيح الدين .

○ هناك مؤلفات كثيرة تتحدث عن الحث على الجهاد ، وهناك خطباء كثيرون يتحدثون في الحث على الجهاد .. ولكن القليل من المؤلفات والخطباء من يتحدث عن ضوابط الجهاد وشروطه وموانعه . وقد تكون علة البعض في ذلك أن الحديث عن موانع الجهاد وشروطه وضوابطه تصد الناس عن الجهاد أو تخذلهم عنه . وقد تكون علتهم أن المجاهدين لا يخطئون وهذا يتنافى مع أولى بديهيات الإسلام ألا وهو « كل بني آدم خطاء »[1] وأن المعصوم وحده هو رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم .

○ شُرِعَ الجهاد في سبيل اللّٰه لرد العدوان الخارجي على أمة الإسلام ودولته ولتحطيم عناد المحاربين لأمة الإسلام ودولته .. وشُرِعَت الحسبة لحماية المجتمع من عدو داخلي هو الشيطان الذي يريد إفساد المسلم بإخراجه من الطاعة إلى المعصية وشُرِعَت الدعوة إلى اللّٰه لنشر الدين الصحيح وتوسيع رقعته واستنقاذ الناس من ربقة الضلالة والشرك إلى رحابة الإسلام الفسيحة .

○ المبادرة هي إعمال للشرع وليست إهمالاً له ، وهي إعمال للكتاب والسنة وليست تركاً لهما . وهي درء للفتنة وليست وقوعاً فيها . وهي عودة لصحيح الدين ودعوته الصافية النقية . وهي عودة لرسالتنا الأساسية في الحياة ألا وهي هداية الخلائق .

○ المبادرة لا تعني إهدارا لفضل الصالحين من أبناء الجماعة الإسلامية ولكنها حفظ لفضلهم وصون لعطائهم .. وهي لا تعني الإساءة لأي أحد من أبنائنا

---

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجه [٤٢٥١] عن أنس بن مالك رضي اللّٰه تعالى عنه . وقال الألباني : حسن .

فلكل الإخوة أحياءً كانوا أو أمواتاً كل حب وود وكل دعاء بالخير والعافية .. فما جئنا إلى هنا لنسيء إلى أحد .. ولكن لنبدأ صفحة جديدة بيضاء نقية مع الجميع ..

- مجرد القتال لا يدعو للفخر فالوحوش تتقاتل في البراري ويسفك بعضها دماء بعض ، ولكن ما يدعو للفخر هو أن تقاتل في سبيل اللّه نُصْرَةً للدين وخدمةً للإسلام وإعزازا للمسلمين وخدمة ورفعة لأوطان الإسلام .
- القتال الذي حدث في التسعينات كان لرفع بعض المظالم التي حدثت ، وللإفراج عن المعتقلين من الجماعة الإسلامية ، ولوقف بعض الممارسات العنيفة في السجون والمعتقلات ، وإطلاق حرية الدعوة إلى اللّه .. فماذا كانت النتيجة ؟ .. زاد عدد المعتقلين من ألفين إلى عشرين ألفاً وحكم على العشرات بالإعدام ونفذ فيهم وحكم على مئات بأحكام مختلفة وتحولت المحاكم من مدنية إلى عسكرية وضاعت دعوة الجماعة الإسلامية بالكلية بل كادت تضيع الدعوة إلى اللّه بالكلية وألب الشيوعيون على كل من يدعو إلى اللّه بدءًا بالشيخ الشعراوي وشيخ الأزهر وانتهاء بالدكتور زغلول النجار .. حتى وصفوا وزارة الأوقاف نفسها بالتطرف وطالبوا بالقبض على كل الحركات الإسلامية السلمية بدءًا بالسلفيين والتبليغ وانتهاء بالإخوان .. وضاعت سمعة المسلمين وخاف كل شاب من ارتياد المساجد وحقق أعداء الإسلام في كل مكان أعظم المكاسب في الوقت الذي خسر فيه المسلمون أعظم الخسائر .. وزاد البلاء في السجون وخارجها ونال الحركة الإسلامية كلها الكثير والكثير من العنت والمَشَقّة وما يشيب الولدان من الأهوال .. وبعد غياب الدعوة الإسلامية في المجتمع ظهرت البلطجة والبانجو وعباد الشيطان وتنظيم الشواذ .. من يتصور في المجتمع المصري المسلم المُحَافظ أن يجهر الشواذ بشذوذهم وتصبح لهم جماعة يدعون إليها ويحثون الآخرين على الانضمام إليها وينضم إليها بعض صفوة المجتمع .

○ وقال بعض السلف : « رحم الله رجلاً عرف زمانه فاستقامت طريقته » . ونحن بهذه المبادرة المباركة قد عرفنا زماننا وما يتطلبه منا فاستقامت طريقتنا بهذه المبادرة وأوقفنا وَمَنَعْنا هذا القتال الذي لم يحقق سوى مصلحة أعداء الإسلام والمسلمين .

○ هناك فرق بين الثبات والعناد . فالثبات على الحق هو الدوران مع الحق حيث دار ، أما العناد فهو التمسك بالشيء حتى وإن تبين خطؤه .

○ يضيع الجهاد الحقيقي بين المبطلين له الذين يضيعونه بإبطاله ، وبين المخطئين فيه الذين يضيعونه بالخطأ فيه ، ويكون ذلك بإغفال شروطه وعدم الاهتمام بموانعه وعدم قياس المصالح والمفاسد فيه .. وكلا الفريقين يسيء إلى رسالة الإسلام ولا يسلك نهج الأنبياء .

○ كانت المبادرة استجابة لرؤية تستبصر الواقع حولنا في مصر والعالم . فقد انتهينا من خلال قراءة الواقع قراءة متأنية أننا بصدد مواجهة مجموعة من التحديات العديدة التي كان قرار المبادرة لإنهاء العمليات القتالية ومنع العنف يمثل الاستجابة الصحيحة لها . وهذه التحديات وأخطرها .

١- الخطر الناشئ من محاولات تسييد الحضارة الغربية على حساب الهوية الإسلامية انطلاقاً من مقولات نهاية التاريخ وصدام الحضارات . وكانت العمليات القتالية بمصر تصب في خانة تقوية قيم الحضارة الغربية على حساب القيم الإسلامية .

٢- الخطر الناشئ من بُروز سياسة الحصار ومن ثم الاستئصال لتجليات الظاهرة الإسلامية سواء كانت دولة أو حركة أو أقلية ، وذلك على مستوى استراتيجيات القوى الدولية المناهضة للإسلام . وكان استمرار العمليات القتالية يجعل المناخ مهيأ لإتمام هذا الاستئصال أو إحكام الحصار .

٣- السعي الإسرائيلي الحثيث : إما لقيادة المنطقة أو تحقيق إسرائيل الكبرى وذلك في ظل تحريض إسرائيلي للعالم على مواجهة الأصولية في العالم الإسلامي .

وكان من شأن استمرار العمليات القتالية بمصر أن يحقق لإسرائيل هدفين :
- التخلص من حركة إسلامية مقلقة لها .
- واستنزاف قدرات مصر كدولة لها دور مركزي في أي مواجهة مع إسرائيل في المستقبل ، فضلاً عن أن استمرار هذا الاستنزاف يحقق تهميش الدور المصري في المنطقة .

٤- الخطر الناشئ من محاولات بعض من أقباط المهجر لتوظيف الضغوط الدولية ضد مصر لتحقيق مكاسب غير مستحقة أو غير مشروعة بدعوى أن الأقباط يتعرضون لعمليات تستهدفهم من الجماعات الإسلامية والحكومة المصرية تتستر على ذلك . وكان استمرار العمليات التي تستهدف بعضها الأقباط يمثل ذريعة يتذرعون بها لاستمرار الضغط والابتزاز خاصة مع إحساس هذا النفر من أقباط المهجر ببروز سياسة دولية تدعم الأقباط وتحرضهم ضد الحكومات التي يعيشون في كنفها حتى بلغ الأمر ببعض أقباط المهجر أن يطلب تَدَخُّل الأمم المتحدة لحماية الأقباط في مصر . بينما دعا البعض الآخر منهم الحكومة الأمريكية إلى تطبيق قانون التحرير من الاضطهاد الديني على مصر بنفس الذريعة .

٥- الخطر الناشئ من احتدام الصراع بين دعاة الفكرة الإسلامية ودعاة الفكرة العلمانية حيث ظهر جليًا أن هناك بعضا - نقول بعضا وليس كل - المعارضين للفكرة الإسلامية يُوَظِّف العمليات القتالية في مصر لتحريض السلطات على كل ما هو إسلامي لإحراز النصر الحاسم على دعاة الفكرة الإسلامية . وكان لزاماً علينا أن نحرمهم من هذه الفرصة .

٦- الخطر الناشئ من الاضطراب المتزايد في المشهد الاجتماعي بمصر وذلك من خلال بروز ظواهر مجتمعية خطيرة تؤثر في تماسك نسيج المجتمع مثل :
- العنف المجتمعي كالبلطجة ودعاوى الإباحية بشتى صورها .
- وبروز ظاهرة عباد الشيطان .

- وانتشار المخدرات في شتى الأوساط .
- والزواج الغير شرعي .
- والتفاوت الهائل في الدخول ، والإنفاق الترفي المستفز .. إلى غير ذلك .

وكان استمرار العمليات القتالية يمثل في نظرنا استمرارا لتفاقم هذه الظواهر لانشغال الجميع بذلك الصراع وغياب الدعاة الذين يمكن أن يمثلوا عامل توازن قيمي وأخلاقي في ضمير المجتمع . تلك هي رؤيتنا لأهم تحديات الواقع وأخطاره التي دفعتنا إلى اتخاذ قرار المبادرة كاستجابة صحيحة لذلك .

○ الصلح يحتاج إلى رجال شجعان - مثل الحسن بن علي - وهؤلاء الأفذاذ هم الذين يتحملون لوم اللائمين ومزايدة المزايدين .. لقد قال بعض الشيعة للحسن ابن علي حينما صالح معاوية : يا مذل المؤمنين . فكان يقول لهم : لَسْتُ بمُذِلِّ المؤمنين ، ولكن جماجم العرب كانت بيدي فكرهت أن أقتلكم على الملك . وكانوا يقولون له : يا عار المؤمنين : فكان يقول لهم : « العَارُ خَيْرٌ من النار » . فالصلح يحتاج إلى رجال أقوياء شرفاء من الطرفين يتحملون مسؤوليته ولا يخافون في الله لومة لائم ولا ينظرون إلى مصلحة شخصية ضيقة .

○ الصلح هو أعظم آلية شرعها الإسلام لرأب الصَّدع ولَمّ الشَّمْل . وهو أعظم آلية لإنهاء النزاعات بين المسلمين . وهو أعظم طريقة تمنع استمرار أي قتال بين المسلمين بعضهم بعضا .. ولولا وجود هذه الآلية العظيمة لكان أي نزاع مسلح بين طائفتين مسلمتين يستمر إلى ما لا نهاية .. أو يستمر حتى يفنى أحد الطرفين الآخر أو يستمر حتى تجري بحور من الدماء لا يعلم مداها إلا الله .

○ إن الصلح باب عظيم من أبواب الخير شرعه الله لتحقن به الدماء وتعصم به الأرواح .. إن هذه المبادرة التاريخية وهذه المصالحة الوطنية هي واجب يفرضه علينا الشرع ويدعونا إليه الواقع وتلزمنا به الحكمة ويهدينا إليه العقل السليم . ونحن على استعداد لتحمل تبعات هذه المبادرة العظيمة وهذه المصالحة المباركة نتحملها بالصبر الجميل والحلم الكبير .. فكل صُلْح لا يُحِلُّ حراماً ولا يُحَرِّم

حلالاً بل يحق الحق ويَحْقِن الدماء ويحمي بلادنا من التمزق هو واجب شرعي ينبغي علينا الالتزام والعمل به وله ..

○ إن هذه المصالحة الوطنية التي حدثت مع هذه المبادرة ليست بجائزة فحسب ولكنها واجبة .. فهي التي تُوَحِّد المسلمين وتنهي مأساة أن بأسنا كان بيننا شديد وهذا الصُّلح هو الذي يجعل بأسنا على عدونا الحقيقي إسرائيل ، التي تتربص بنا عبر الحدود وتريد السيطرة العسكرية على المنطقة كما يرى الليكود ، أو السيطرة الاقتصادية والسياسية كما يرى حزب العمل الإسرائيلي .. وكلاهما يأباه كل مسلم غيور على دينه ووطنه .

○ كل صلح حدث في الأرض حتى في مجال الأسرة لابد أن يكون فيه طرف قد هضم حقه وتنازل عن بعض حقوقه ولولا ذلك ما تم صلح على وجه الأرض .. وإننا نجد ذلك واضحاً في صلح الحسن بن علي مع معاوية بن أبي سفيان رضي اللّه تعالى عنهما فقد تنازل الحسن عن معظم حقوقه .. حتى الحقوق التي لم يتنازل فيها ضاعت منه وهضم فيها حقه .. ورغم ذلك كله فقد مدح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هذا الصلح العظيم وقال عن الحسن ابن علي عن أبي بكرة رضي اللّه تعالى عنه : « إنَّ ابني هذا سَيِّد ولعل اللّه أن يُصْلِح به بين فئتين من المُسْلِمين »[١] .. فسوده وأعلى قدره ، ولكل من أجرى اللّه على يديه هذا الصلح حظ ونصيب من سيادة الحسن بن علي ..

ونحن نقول لكل من تحمّل مسؤولية الصُّلح والإصلاح بين المسلمين :

يجب عليك أن تكون بعيد النظرة مستشرفاً للمستقبل متحملاً للصعاب حليماً عند النّكير عليك ، ولتنتظر من قبل ومن بعد جوائز السماء التي سينعم اللّه بها عليك جزاء صبرك وَتَحَمُّلك .

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٣٦٢٩] ، والترمذي [٣٧٧٣] ، والنسائي في المجتبى [١٤١٠] ، وأبو داود [٤٦٦٢] .

○ شرع الجهاد في الإسلام ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .. هذا هو الهدف الأسمى للجهاد ، فإذا أصبح القتال نفسه مُحْدِثاً للفتنة في الدين ومانعاً لتعبيد الناس لربهم وصادًّا للناس عن دعوة الحق ومخوفاً للشباب من ثمرة دعوة نقية .. إذا صار كذلك صار حراماً شرعاً وأصبح من الواجب مَنْعُه وَوَقْفُه .. واعتبر منعه ووقفه من أعظم القربات إلى الله .

○ شريعة الإسلام السَّمحة مُنَزَّهة أن تريق دماء أبنائها خاصة والدماء عامة بغير هدف شرعي أو مصلحة شرعية يقينية غير ظنية بينة وغير خفية أعلى من مفسدة إراقتها .

○ إن القتال إذا لم تكن له ثمرة سوى سفك الدماء وزَرْع الأحقاد وتَفْتِيت الأمة المسلمة وإضعافها أمام أعدائها الحقيقيين وزرع الخوف في نفوس الأمة وشبابها وزرع الخوف من كل ما هو إسلامي وتعطيل الدعوة إلى الله والزَّج بالمسلمين في السجون والمعتقلات إذا كان القتال بهذه الصورة فإنه يلحق بقتال الفتنة .

○ من أعظم قواعد الشريعة ما نَصَّ عليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام : « كُلُّ أَمْرٍ تَقَاصر عن تحقيق مطلوبه فهو باطل » .. فما بالنا إذا كان القتال الذي حدث لم يحقق الهدف الذي شرع من أجله فحسب ، بل حقق مفاسد كثيرة واضحة لكل ذي عينين .

○ إن الإصرار على القتال سواءً كان في مصر أو غيرها من البلدان ما دام قد جلب من المفاسد العظيمة على الدين والدنيا ولم يحقق أية مصلحة تُذْكَر لا في دين ولا في دنيا : كان هذا القتال مُحرّماً وممنوعاً شرعاً وعقلاً .

○ هداية الخلق إلى الحق هي الغاية الأسمى للدعاة إلى الله وهي أعظم غاية . فالدعاة مهمتهم تحبيب الناس في ربهم وخالقهم إلى صراط الله المستقيم بِأَسْهل وأَيْسر سبيل . وهداية الخلائق وتعبيد الناس لربهم هي الأصل والجهاد فرع عليها ، فإذا تضاد الأصل مع الفرع قدَّمنا الأصل على الفرع .. وهداية

الخلائق غاية والجهاد وسيلة ، وإذا تعارضت الغاية مع الوسيلة قدَّمنا الغاية .
وليعلم العاملون للإسلام أن الغايات والنَّظر إليها والعناية بها ورعايتها تدلُّ على الفقه في الدين وهي شيمة أئمة الدين في كل عصر .

○ لابد أن يعلم الجميع أن هداية الخلائق هي مصلحة في ذاتها .. وأن إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن المعاصي إلى الطاعات هو هدف في حد ذاته حتى لو لم يحقق ذلك نفعا ظاهرا للمسلمين أو الحركات أو الدول الإسلامية .. ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الغلام اليهودي وهو على فراش الموت(١) .. ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عمه أبا طالب وهو على فراش الموت(٢) .. فماذا كان الإسلام وجماعته الوليدة سيستفيد من إسلامهما وهما سيموتان بعد لحظات من إسلامهما ؟ إنها الحكمة الباهرة في حياة كل من يدعو إلى الله .. فخير الناس وهدايتهم وصلاحهم ورجوعهم إلى الله هو هدف في حد ذاته .. بِغَضّ النظَر عن انضمام هؤلاء الناس أو عدم انضمامهم إلى الحركة الإسلامية أو إفادتهم الظاهرية لها أو تبعيتهم لها .

○ نحن لن نستطيع أن نحيا حياتين أو نعيش أعمارنا مرتين ، عمر نجرب فيه ونخطئ ، وعمر نتعلم فيه من أخطائنا .. فما الحل في هذه المعضلة ؟ .. الحل أن نستعير خبرات الآخرين ودروس حياتهم ، فمن عاش مع دروس التاريخ طال عمره وازدادت خبرته .. ومن لم ينتفع بخبرة سنوات التاريخ لم يستفد شيئاً ، واضطر أن يعمل بنظرية التجربة والخطأ ويعمل بخبرة يوم بيوم ، وهذه نظرية مهلكة ومدمرة للأفراد والجماعات والدول ، وأين لنا العمر الطويل ؟! وأين لنا الإمكانيات المادية والبشرية التي تهلك بين الحين والآخر لنستطيع

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) وذلك حين قال صلى الله عليه وسلم : « يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله » رواه البخاري [١٣٦٠] ، ومسلم [٢٤ / ٣٩] عن سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنهما .

تعويضها بعد فقدها ؟! فلنضف أعمار المجربين إلى أعمارنا وخبراتهم إلى خبراتنا وتجربتهم إلى تجربتنا وأن نعمل بقول النبي العظيم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين »(1) ويُقاسُ عليه .. « لا تلدغ من جحر لدغ منه أخوك » ويُقاس عليه .. « لا تكرر أخطاء الآخرين » ويُقاسُ عليه « ابدأ من حيث انتهى الآخرون ولا تبدأ من حيث بدأوا » .

○ من مبادئ الجماعة الإسلامية التي لم تنل حقها من الرعاية والعناية « وتستوعب ما سبقتها من تجارب » فقد قصَّرنا في العمل بهذه الفكرة العظيمة ..

وقد يكون سبب التقصير هو :

١- عدم انفتاحنا على الآخرين من الحركات الإسلامية في سياق التنافس الشريف على العمل للدين .

٢- أو الانشغال اليومي بالعمل الدائب الذي يحرم القائمين عليه من الراحة الذهنية والتفكير المتأني .

٣- أو تلك المواجهات المسلحة وغير المسلحة التي كانت مستعرة بدرجات متفاوتة .. فالعاملون للإسلام إذا لم يأخذوا الوقت الكافي للتفكير المتأني لم تَسْلم خطواتهم من الخطأ . وأفضل شيء أن تفكر وأنت بعيد عن الصدام وتنظر إلى خريطته كاملة من بعيد مُتأمِّلاً مُتفكِّرا .. وهذا ما حرمتم منه .. وهذا ما يسره الله لنا وساعدنا على اتخاذ هذا القرار الشجاع ، قرار المبادرة وما تلته من مراجعات فكرية .

○ أعظم الدعاة هو الذي يستطيع الجمع بين الواجب والواقع .. فلا يضيع الواجب الشرعي تحت ضغط الواقع .. ولا يهمل الواقع الذي سيعمل فيه نصوص الشرع حينما يقوم بواجبه الشرعي .

○ المعنى الحقيقي لليُسْر أن تفعل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ما

---

(1) رواه البخاري [٦١٣٣] ، ومسلم [٢٩٩٨ / ٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وابن ماجه [٣٩٨٢] ، وأحمد في المسند [٢ / ١١٥] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

خُيِّر بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً فإنْ كان إثماً كان أبعد الناس منه[1] .. ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان دائماً يختار أَيْسَر الأمرين المباحين إلا أنه كان أكثر الناس صدعاً بالحق ودعوة إلى الله وبياناً للحق .. فاليُسْر لا يكون أبدا فيما حرّمه الله .

○ الإسلام وشريعته وسط بين الذين يأخذون الحضارة الغربية وخيرها وشرها ويستوردون أفكارها وأخلاقها وسلوكياتها مهما كانت مُنافية للإسلام ، وبين الذين يرفضون الحضارة الغربية بالكلية حتى ما كان منها مفيدا ونافعا للمسلمين ولا يستطيع المسلمون أن يتقدموا بدون هذه العلوم مثل الكيمياء والطب والهندسة .. فالحق هو أن نأخذ ما يوافق شريعة الإسلام ويفيد المسلمين وأن نترك أفكار ومبادئ وأخلاق الغرب التي تتنافى مع الإسلام .

○ الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ بفكرة الخندق في غزوة الأحزاب وهي فكرة فارسية من عطاء الحضارة الفارسية القديمة وكانت هذه الفكرة سبباً في الذود عن الإسلام ونبيه ودولته الوليدة .

○ الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتميز بخاصيتين ظاهرهما التناقض وحقيقتهما التكامل وهما : المرونة والثبات .. فالثبات يكون في مبادئ الإسلام الأساسية وغاياته العظمى ، أما المرونة فتكون في الوسائل والآلات مثل الكمبيوتر والانترنت والقنوات الفضائية وما شابه ذلك . وكلا الخاصيتين تكمل إحداهما الأخرى وتجعل الإسلام دينا عالميا يصلح لكل مكان ، ودينا حيويا متجددا غضا طريًا يصلح لكل زمان ، وتجعل للإسلام عطاءً متجددا في كل وقت ..

○ نحن هداة ولسنا ولاة .. ونحن دعاة ولسنا قضاة .. ونحن هداة ولسنا بغاة ..

○ ليس من الإسلام ولا الرجولة أن تكفر أكبر عدد من المسلمين ، بل أن تخطئ في الأسلمة خير من أن تخطئ في التكفير ، وذلك قياساً على أنك أن تخطئ

(1) جزء من حديث رواه البخاري [٣٥٦٠] ، ومسلم [٢٣٢٧ / ٧٧] ، وأبو داود [٤٧٨٥] ، وأحمد في المسند [٦ / ١٦٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

في العفو خير لك من أن تخطئ في العقوبة .

من ثوابت ما نعتقده اعتقادا جازماً في الدين ما يلي :

- نحن لا نكفر مسلماً حاكماً أو محكوماً بذنب أو معصية ما لم يَسْتَحِلّها .

- نحن لا نكفر الشرطة ولا الجيش بذنبٍ أو معصيةٍ أو مظلمةٍ كذلك ما لم يَسْتَحِلّها .

- نحن لا نكفر أمن الدولة أو المخابرات بذنب أو معصية أو مظلمة كذلك ما لم يستحلها .

- نعذر عوام المسلمين الذين يقعون في فعل كفر أو شرك بجهل حتى تقوم على من فعله الحجة التي يكفر تاركها وبالشروط التي نص عليها واتفق عليها علماء السلف الصالح .

- ليس هناك شيء اسمه كفر النّظام الحاكم .. فالنظام أو المؤسسات الحاكمة هي مؤسسات اعتبارية لا يلحقها وصف الكفر أو الإيمان .. ولكن هذا الوصف يلحق بالمكلف شرعاً ، وهو الشخص الحقيقي البالغ العاقل الراشد المختار « غير المكره » العالم « بحكم ما يفعل شرعاً » ووصلته دعوة الإسلام من قبل .. أما النظام والمؤسسات فلا يلحقها حكم مثل الإسلام أو الكفر أو الطاعة أو المعصية .. ولكن تقول هذا الفعل من مؤسسة كذا وافق الشرع في كذا كذا أو خالف الشرع في كذا وكذا . ولفظة كفر أو إيمان النظام هو لفظة مستحدثة لم تظهر إلا في منتصف القرن العشرين تقريباً . ولم ترد في كتب السلف وليس لها أصل في كتب التوحيد المعروفة ولكن تداولتها الألسنة والأقلام حتى أصبحت كالحقيقة التي لا تقبل النقاش .

○ إن مهمتنا ليست إخراج الناس من الدين بتكفيرهم ولكن مهمتنا هي إدخال الناس في دين الله وهدايتهم إلى طريق الحق .

○ إن مهمتنا هي هداية الخلائق والأخذ بأيديهم إلى جنة عرضها السماوات

والأرض .. إن مهمتنا هي تضميد جراح أمتنا بإعادة عصاة المسلمين إلى حظيرة الإيمان ، ليست مهمتنا الحكم على الناس ولم تكن يوماً مهمتنا .. ليست مهمتنا أن نشق عن صدور الناس أو أن نُنَقِّب عن سرائرهم فعلينا بالظاهر وعلى اللَّه السرائر . وقد أوكل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سرائر الناس إلى رب الناس وعاملهم بظاهرهم ورفض أن يقتل عبد اللَّه بن أبي بن سلول رغم يقينه بكفره وقال قولته العظيمة : « لا يتحدث الناس إن محمدا يقتل أصحابه »(١) .

○ الأصل في مُسْلمي مصر هو الإسلام والدين وذلك الأصل لا يزول إلا إذا ثبت عكسه بدليل قطعي لا يقبل الشك والتأويل ، وبعد إلزام الحجة التي يكفر تاركها ، وبعد انتفاء الموانع .. وليس كل أحد مؤهلا للحكم على أي مسلم بالكفر حتى لو كان عضوا في جماعة مسلمة .. فالمؤهل لهذا هو العالم المجتهد الذي استجمع شرائط الاجتهاد ..

والخلاصة : أن تكفير المسلم ليس لعبة يَتَسَلَّى بها البعض أو يتلهى بها البعض .. بل إن مسائل الكفر والإيمان هي من أخطر القضايا التي يجب على الحركة الإسلامية أن تحتاط لها .

المشكلة الكبرى في التكفير هي عدم التفريق بين نواقص الإيمان ونواقض الإيمان ، حيث جعل البعض نواقص الإيمان نواقض له ، والنقطة الفرق في الكتابة بينهما لها مردود عملي ونظري خطير جدًّا .

○ أهم شيء في الإسلام هو تعظيم الحق والرحمة بالخلق .

○ الإسلام دين قوى ينفتح على الآخرين ولا يخشى شيئاً من التعامل الإنساني والأخلاقي والمعيشي مع الأديان الأخرى والانفتاح عليهم .. المسلم يعطيهم

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٣٥١٨] ، ومسلم [٢٥٨٤ / ٦٣] عن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه تعالى عنهما .

النافع من دينه ودنياه ويأخذ منهم الصالح والنافع من دنياهم .. يقترب منهم دون وجل لأنه الأقوى .. يُحْسِنُ إليهم ويخالفهم أحسن مخالفة .

والإسلام دين ديناميكي يتفاعل مع الآخرين يأخذ منهم ويعطي ، ويتفاعل مع الحياة تفاعلا إيجابيا وكذلك فإن الدين الإسلامي دين غض وطرى على مر العصور والدهور ؛ لأنه يتميز بأمرين : الثبات والمرونة .. الثبات في العقائد والأركان والغايات والأحكام القطعية ، والمرونة في الوسائل والآليات التي تتغير من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ، وتتغير في الفتاوى التي تعتمد على العرف والمصلحة إذا تغير هذا العرف أو هذه المصلحة .

○ هناك فرق كبير بين الموالاة الممنوعة للكفار والمخالقة المشروعة لهم . فالموالاة تعني حب الكفار أو حب دينهم أو نصرة شريعتهم ومذهبهم أو التجسس على بلاد المسلمين أو عون الكفار على هزيمة المسلمين . أما المخالقة فتعني معاملتهم بالإحسان ومعاشرتهم بالمعروف . ومنها جواز إهداء الكافر وقبول هديته ، ومنها جواز عيادته في مرضه ، وجواز التعلم على يديه العلم النافع ، وجواز تعليمه العلم النافع ، وتهنئته بعودة من سفر أو شفاء من مرض أو زواج أو إنجاب ذرية ، وكذلك مشاركتهم في العمل المباح ونحو ذلك .

○ الداعية الممتاز هو الذي يجمع بين الصدع بالحق وعِفّة اللسان .. وبين التمسك بالدين والإحسان إلى الناس .. وبين مراعاة الحق وملاطفة الخلق .

○ الخلق الكريم لا يتجزأ فلا يكون المسلم حسن الخلق مع قوم ويكون سيئ الخلق مع آخرين .

○ الداعية الحكيم هو الذي يحدو للناس كي تتحمل الطريق إلى الله لأنه صعب وطويل .. وذلك مثل الراعي الذكي الذي يحدو لإبله كي تجد في المسير .

○ من أعظم الأمور التي يجب ألا ينساها العاملون للإسلام ثلاثة :

– من ضيع الأصول لم يحقق الوصول .

- ومن انشغل بالنفل عن الفرض فهو مغرور .
- ومن انشغل بالفرض عن النفل فهو معذور .

○ الداعية العظيم هو الذي يعمل بالحكمة العظيمة « اجن العسل ولا تكسر الخلية » .. فَمُهِمّته هداية الخلق وليس تحطيمهم أو تدميرهم .. أما الداعية الفاشل فهو كالنحال الفاشل الذي يكسر الخلية ويقتل النحل أو يطرده ويسكب العسل على الأرض .

○ أعظم حديث يعبر عن الداعية خصوصاً والمسلم عموماً هو قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً ، ولا تضع إلا طيباً ، وإذا وقع على عود لم يكسره »[1] .. فإذا وقعتم على عود فشموا ريحته .

○ عيشوا بقلوبكم وجوارحكم مع قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم الرفيق الحليم : « إن الرِّفق لا يكون في شيء إلا زَانَهُ »[2] فزينوا دعوتكم بالرفق لأنه الإطار الجميل الذي تحمل من خلاله دعوتك للناس .

○ قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « من يُحْرم الرفق يحرم الخير »[3] فهل تريدون أن تحرموا دعوتكم من الخير وحياتكم من الخير .. فمن حرم الرفق حُرم من خير الدنيا حيث يرفض الناس دعوته ويَنْفَضُّوا من حوله ويُحرم خير الآخرة فيعاقب ويعذب على غلظته وجفوته .

○ الحق مُرّ فلا تزده مرارة .. لا تزده مرارة بجفوتك وغلظتك وعلو صوتك وسوء خلقك والنصيحة مرة فلا تزدها مرارة بالسب والشتم أو الإهانة أو التوبيخ .. ولكن علينا أن نضع على الحق بعض السُّكَّر الذي يُحَلِّيه ويجعله مستساغاً

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه [٢٤٧] وقال الأرناؤوط : حديث حسن ، والنسائي في الكبرى [٦ / ٣٧٦ / ١١٢٧٨] عن أبي رزين العقيلي رضي اللَّه تعالى عنه .

(2) رواه مسلم [٢٥٩٤ / ٧٨] ، وأبو داود [٢٤٧٨] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها .

(3) رواه مسلم [٢٥٩٢ / ٧٤] ، وأبو داود [٤٨٠٩] ، وابن ماجه [٢٦٨٧] ، وأحمد في المسند [٤ / ٣٦٢] عن جرير بن عبد اللَّه رضي اللَّه تعالى عنه .

مقبولاً محبوباً كما يصنع الطبيب مع مريضه يضع له السكر في شراب الدواء كي يكون مستساغاً محبوباً .. وليعلم كل الدعاة أن هذا السُّكَّر لا يُغَيِّر من طبيعة الحق ولا يجعله باطلا .. وهذا السُّكَّر هو الرفق والحلم .. هو أن تسوق دعوتك إلى الناس في ثوب من الأدب الراقي والخلق النبيل .

○ من مشاكل الحركة الإسلامية هي الفشل في كسب الأصدقاء أما مشكلتها الكبرى هي تفنن البعض في تحويل الأصدقاء إلى أعداء .. والقرآن هو أول من وضع الآلية العملية لكسب الأصدقاء في قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .. وذلك قبل أن يعرف العالم كتاب ديل كارينجي[١] .. جربوا هذه الوَصْفة القرآنية .. إن العدو لن يتحوّل إلى ولي وفقط ولكن إلى ولي حميم .

○ على كل من يعمل للإسلام أن يحذر أن يقيم الدنيا ولا يقعدها من أجل حسم مسائل فرعية اختلف فيها الفقهاء سلفاً وخلفاً ولا مصير إلى اتفاقهم فيها لأنها من المسائل الاجتهادية الفرعية التي تتفاوت فيها الأفهام وتتعارض فيها الأدلة ويكون الخلاف فيها مستساغاً .

○ من رحمة الله بنا أن أركان الإسلام وغاياته العظمى وأهدافه الكبرى هي محل اتفاق بين جميع أئمة المسلمين سلفاً وخلفاً ، أما ما يدور الخلاف حوله فهي الفروع الفقهية وهذه يَسَعُنَا فيها ما وسع السلف الصالح من الخلاف حولها .. وكلما قلت أهمية المسألة كلما ظهر الخلاف الفقهي حولها .

○ نجد أن البعض يعطي كلمة : « الفكر » قدسية عظيمة وهذا خطأ !! ؛ لأن الفكر هو نتاج عملية ذهنية بشرية غير معصومة من الخطأ فلا عصمة إلا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . فقد يخطئ المسلم الصالح في فهم

(١) كتاب كيف تكسب الأصدقاء ؟. وهو من الكتب التي حققت مبيعات خيالية منذ ظهوره في الستينات .

الدليل وقد يخطئ في تنزيل هذا الدليل على الواقع وقد يخطئ في حساب المصالح والمفاسد .. أما القدسية فهي لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأحكام الإسلام القطعية وأركانه الأساسية المنبثقة عنهما .

○ هداية الخلائق ودعوتهم إلى الله هي الأصل والأساس ، والحسبة فرع عليها .. فإذا تناقض الفرع مع الأصل قدمنا الأصل .. فالدعوة أفضل من الحسبة وأشمل وأكمل في رسالتها . فالدعوة تعالج كل الآفات ، آفات القلب والعقل والجوارح أما الحسبة فتعالج معاصي الجوارح فقط . الدعوة تُغَيِّر الإنسان كله ، أما الحسبة فهي تغير موقف المعصية فقط .

○ تعيير العاصي بمعصيته أعظم ذنباً من ذنبه وأشد معصية من معصيته ؛ لأن تعيير الداعية للعاصي فيه تزكية لنفسه وشكر لها ومناداة بالبراءة من الذنب وفيه الكثير من الكبر والعجب والإدلال على الله بالطاعة وفيها ازدراء للآخرين .. وإننا نقول لكل داعية يُعَيِّر عاصياً بمعصيته تذكر أن كسرة أخيك العاصي بذنبه وذُلّه وخضوعه بعد توبته من ذنبه أنفع له وأجدى عند الله من صولة طاعتك وشموخك بعبادتك .. فما أقرب هذا العاصي التائب من رحمة الله ؟ وما أَقْرَب هذا الداعية المذل من سخط الله ؟ .. فذنب تذل به لديه خير من طاعة تدل بها عليه ، وإنك إن تبت نائماً وتصبح نادماً فخير لك من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً ، فالمعجب لا يصعد له عمل .

○ لو راعينا الضوابط الصحيحة في الحسبة لما غبنا عن الواقع ولما انتشر المنكر والفاحشة .

○ إن دور الحسبة في الحفاظ على تماسك المجتمع وحمايته من التآكل على صعيد العلم والعمل عظيم .. وبقدر ما اتسع صدر المجتمع للحسبة والمحتسبين وبقدر تشجيعه للدور الإيجابي لهم في مقاومة الانحراف والجرائم بالتعاون مع مؤسسات المجتمع بقدر ما تمتع المجتمع بالهدوء والاستقرار والأمن وبقدر ما ضاق صدر المجتمع بهم وحرمهم من مساعدة المؤسسات المجتمعية في التصدي

للانحراف بقدر ما عاني المجتمع من سلبية أثرت عليه من انتشار مظاهر الفساد والانحراف والجريمة .

○ أقام النبي صلى اللّه عليه وسلم حد الزنى على ماعز[1] بعد أن جاءه معترفاً اعترافاً لا شبهة فيه ، ولكنه صلى اللّه عليه وسلم لم يكن مجرد قاض يقول كلمته أو حكمه ويمضي ولكنه كان داعية معلماً ، بل هو سيد الدعاة لذا لم يترك هذه الحادثة دون أن يعطينا درسها على مر الأجيال . فالتفت إلى هزال الذي أحضر ماعزا ليعترف بين يديه وقال : يا هزال لو سترته بثوبك لكان خيراً لك .. فهو ينكر عليه أن يضبط هذه الجريمة ويسلمها للقضاء ليوقع عليه العقوبة بل يفضل أن يستره ولا يفضحه لعله يتوب فيتوب اللّه عليه .

○ **قد يسأل البعض لماذا هذه المراجعة ؟ فنقول لهم :**

لمراجعة أمور أُسيء فهمها ويجب تصحيحها ، ومن أجل أمور أسيء تطبيقها على الواقع ، ومن أجل قضايا كانت غامضة وتحتاج لإيضاحات ، ومن أجل قضايا أخرى كانت ناقصة تحتاج إلى تتمة واستكمال ، ومن أجل طرح قضايا جديدة لم نتطرق إليها من قبل ونحن في أمس الحاجة إليها .

○ المراجعة المثمرة لها سمات أساسية أهمها :

١- التجرد للّه عند المراجعة ؛ لأن الإخلاص للّه والصدق في القول والعمل أساس كل خير .

٢- أن تكون المراجعة مدعمة بصحيح الشرع ولا تكون مهدرة لصحيح الشرع .

٣- أن تكون المراجعة مصححة للمخطئ وليست مدمرة له ، أي تعالجه ولا تقتله كالطبيب مع مريضه .

٤- ألا تكون المراجعة فرصة لتبرير الأعمال ، أي إننا لا نقول لن نراجع أنفسنا

---

(١) روى البخاري [٦٨٢٤] ، والترمذي [١٤٢٨] ، وأبو داود [٤٤٢٦] عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما ، ومسلم [١٦٩١ / ١٦] ، وابن ماجه [٢٥٥٤] عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه ، وأحمد في المسند [١ / ٨١] عن أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه .

حتى يراجع الآخرون أنفسهم .

٥- أن تكون المراجعة منصفة ، فلا تبحث عن كبش فداء أو تبحث عن شماعة تعلق عليها الأخطاء كما أنها في الوقت نفسه لا تتهم البرىء ولا تبرئ الجاني .

○ عدم تصحيح الاجتهادات التي أدت إلى مفاسد كثيرة سيؤدي إلى تكرار هذه المفاسد وشيوعها في كل مكان . وقد يؤدي إلى جعلها نهجاً متبعاً وسلوكاً مستمرا وحينئذ يصعب العلاج والشفاء من تلك الأدواء وحينئذ يتسع الفتق على الراتق .

○ لقد راجعنا مسيرة العمل الإسلامي طيلة ربع قرن ووجدنا فيها حقا وخيرا كثيرا ووجدنا كذلك فيها أخطاء تحتاج إلى تصحيح وتصويب .. فمن الخير دعوة الإخوة للخير واستنقاذ الشباب من المعاصي وتعليمه الصيام والقيام والذكر والدعاء وتعليمه رسالة الإسلام الشاملة لصلاح العباد .. ومن الخير الذي حدث من قبل مثل رعاية اليتيم والإحسان إلى الفقراء وتعليم الناس الخير وتعليمهم القرآن والسنة شباب يقوم الليل ويصوم النهار ويبتعد عن المحرمات .. يبر والديه ويصل رحمه ويرحم المسكين ويُعين على نوائب الزمان ويقف بجوار الملهوف ويقضي حاجات الناس ويكره الرذيلة ويحب الفضيلة .. كل ذلك وغيره من صور الخير الذي قدمتموه من قبل وبذلتم فيه عمركم وضحيتم فيه بأموالكم وشبابكم .

○ فهذا الخير هو في ميزان حسناتكم عند الله ولا يمكن لمسلم بل ولا لعاقل أن يقول عنه إنه شر . فالأيدي المتوضئة والوجوه الساجدة لله والقلوب الطاهرة والأيدي النظيفة عن الحرام يحتاج إليها الوطن ، ولا يمكن لمصر أن تستغني عنكم ولا يمكن لكم أن تستغنوا عن مصر .

○ بل إن البلاد في أمس الحاجة إليكم الآن أكثر من أي وقت مضى وهي تواجه سيلاً جارفاً من الفساد المالي والأخلاقي والانحدار القيمي . وإن لم نتكاتف

جميعاً في مواجهته : أغرق البلاد والعباد ، وقضى على الأخضر واليابس في هذا الوطن الحبيب ..

○ فكل صواب وخير نحن متمسكون به ، وفي المقابل وبنفس الإصرار بل أكثر فإن كل خطأ يُنافي القرآن أو يُخالف السنة أو يصطدم مع صحيح الدين أو يضيع مصالح الدين والوطن العليا فإننا أول من نبرأ منه ونتخلى عنه ولا نجد حرجاً في أنفسنا في بيان ذلك لكل الناس ..

○ وفي الختام نقول ينبغي ألا ننسى أو نهدر الصواب في زحمة الحديث عن الأخطاء .

○ قد يقول قائل : إن ذكر الأخطاء قد يغري بنا الجماعات الأخرى والناس .. فنقول لهم : كلا ، إن تصحيح الأخطاء يرفع مكانتنا عند اللّه وهذا هو الأهم .. وكذلك سيرفع قَدْرنا عند الناس .. لأن ما كان للّه دام واتصل وما كان لغير اللّه انقطع وانفصل ، والقلوب بيد اللّه هو الذي يجعلها تحب من يحبه اللّه وتبغض من يبغضه اللّه ..

ونقول أيضاً لهم : وهل انخفضت مكانة الحسين بن علي سيد الشهداء حينما قال الفقهاء إنه أخطأ في اجتهاده في الخُروج على يزيد .. ؟ وهل انخفضت مكانة خالد بن الوليد حينما عاتبه الرسول صلى اللّه عليه وسلم على قتله للمرأة ودفع ديتها ، وحينما تبرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من فعلته مع بني خزيمة وأخطأ في اجتهاده معهم .. ؟ وهل انخفضت مكانة أسامة بن زيد حينما خطأ الرسول صلى اللّه عليه وسلم اجتهاده في قتل الكافر بعد أن نطق الشهادتين .. ؟ وهل انخفضت مكانة ابن الأشعث وسعيد بن جبير ومن معهما من شهداء الأمة الأبرار حينما خطأ الفقهاء اجتهادهم في الخروج على عبد الملك بن مروان .. ؟

○ وأخيرا فإن الذين يخطئون هم الذين يعملون وهم أصحاب الهمم العالية .. فالمعصوم وحده هو النبي صلى اللّه عليه وسلم والأنبياء ، أما ما سوى الأنبياء

فهو معرض للخطأ ما دام يعمل لدين اللَّه .. أما الكسالى وأصحاب الهمم الضعيفة فهم لا يعملون ولا يخطئون .

○ المراجعة غير المداهنة ، لأن المراجعة هي الإقبال على صحيح الدين وترك ما عداه ، أما المُدَاهنة فهي ترك صحيح الدين من أجل الآخرين أو من أجل الدنيا .

○ نحن في هذه المراجعة شهداء للَّه على أنفسنا لا على أحد . وإنَّ صَبْر الصابرين وعبادة العُبّاد ودعوة الدَّاعين إلى اللَّه لا تهدر إذا قلنا أخطأ الإخوة في الأحداث الأخيرة .. والجميع يعلم أن خطأ هؤلاء الإخوة هو خطأ اجتهاد وليس خطأ هوى أو عناد .

○ إن بناء آلية النقد الذاتي والتي يُسَمِّيها الشرع بالنفس اللوامة تضع الجماعة المسلمة والفرد المسلم على المسار السليم للتصحيح والسير دون تَوَقُّف في الطريق الصحيح .. ولكن يمارس هذه الوظيفة مع نفسه ، وكل واحد يمارسها مع الآخرين ولكننا نحمد اللَّه أننا مارسناها مع أنفسنا .

○ قصة آدم عليه السلام فيها عبرة جميلة .. فإبليس كان عنده تنزيه للذات حيث رأى أن موقفه سليم مائة في المائة .. أما آدم فكان مبدؤه ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ فمبدؤه الحقيقي الاعتراف بالخطأ وبذلك تدخل مشكلته إلى نطاق الحل .

○ هناك فرق بين المراجعة والتراجع .. المراجعة شيء منضبط بكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يصحح الخطأ ويسد الثغرات ويقرر الصواب ويحاسب المخطئ .. أما التراجع فهو إهدار للفضل والخير والدعوة الصالحة .

○ أوجب اللَّه العدل مع كل أحد : « يا عبادي إني حَرمّت الظُّلم على نَفْسي وجعلته بينكم مُحَرّماً فلا تظالموا »[1] .. فلا تظلم كافرا أو مسلما ولا بعيدا أو قريباً ولا كتابيًا أو عاصياً .. فبالعدل قامت السماوات والأرض .. وبالعدل وللعدل أرسلت الرسل وأنزلت الكتب .. ولم يأت الإسلام بتحريم ظلم

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٢٥٧٧ / ٥٥] عن أبي ذر الغفاري رضي اللَّه تعالى عنه .

المسلمين فحسب ولكن حرم ظلم كل أحد وأمر بالعدل مع كل أحد .

- تعميم العقاب هو من الظلم المنهي عنه شرعاً .. والإسلام سبق القوانين الوضعية التي جاءت بمبدأ شخصية العقوبة بمئات السنين حيث قال الله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم] .
- ليس من الصواب شرعاً أو الحكمة عقلاً الإلحاح لحذف فريضة الحسبة من عقلية المواطن العادي ؛ لأن هذا يؤدي إلى شيوع ظاهرة السلبية أمام الانحرافات التي تحدث في المجتمع ، كما أنه يحرم المجتمع من آلية فعالة لمواجهة الخلل والآفات التي تصيبه مما يفقده قوته وحيويته .. والواجب الذي نراه هنا أن يتفق المجتمع على إطار صحيح لممارسة هذه الفريضة بما لا يتسبب عنها شيوع الفوضى أو الاعتداء على حريات وحرمات المواطن بغير وجه حق .
- إن الضرب قبل المنكر ردع والضرب بعد المنكر تعزير ، وكلا الردع والتعزير ليسا للمحتسب ولا يجوز أن يقوم بأيهما وإنما هما للقاضي . ومن فعله من المحتسبين المتطوعين فقد تجاوز وتعدى حدود الله .
- أمن الكنائس من أمن المساجد[1] مبدأ خاطئ شرعاً لأن الله قال في كتابه العزيز : ﴿ .. أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .
- ماذا يريد مسيحيو مصر بعد كل هذه الامتيازات العظيمة التي حصلوا عليها:
  - ليس هناك معتقل مسيحي واحد . رغم وجود الآلاف من غيرهم .
  - لم يطبق على أي مسيحي قانون الطوارئ .
  - هناك عدة كليات لاهوتية مسيحية مستقلة تماماً عن الحكومة .

---

(١) مقولة رفعها بعض الإخوة تبريرا لضرب الكنائس واقتحامها إذا هوجمت المساجد وهي بهذا المعنى : « مقولة خاطئة » .

- هناك عدة وزراء مسيحيون باستمرار . وفي وقت قريب كان وزير الاقتصاد في مصر مسيحيًا .

- لهم كل حقوق المواطنة وأعلى من غيرهم .

- نسبة عدد الكنائس إلى المسيحيين أكبر من نسبة عدد المساجد إلى المسلمين في مصر .

- هناك استقلال تام للكنائس عن الدولة في الوقت الذي تشرف فيه الدولة على كل صغيرة وكبيرة في المساجد .

- تم رد كل الأوقاف المسيحية للمسيحيين في مصر في الوقت الذي بقيت كل أوقاف المساجد تحت إشراف وسلطة الدولة .

- يتم الآن تدريس التاريخ القبطي في كل مراحل التعليم في مصر رغم أن معظم المؤرخين المنصفين يقولون : « إن التاريخ القبطي يخلو من الأحداث التاريخية الهامة » .

- الإمام والخطيب في المسجد يعين ويعزل من قبل الحكومة في الوقت الذي لا تستطيع الحكومة تعيين أو عزل أصغر قسيس .

- ٦٠ ٪ من الصيدليات ، ٢٠ ٪ من شركات المقاولات ، ٤٥ ٪ من العيادات الخاصة للأطباء ، و٢٢,٥ ٪ من أسهم الشركات ، ٧٠ ٪ من تجارة الذهب ، ٩٠ ٪ من تجارة البيض ، ٦٠ ٪ من تجارة الأخشاب ، ٢٥ ٪ من المهن الممتازة ، ٥٠ ٪ من تجارة قطع غيار السيارات في مصر يملكها الأقباط .. وذلك بالرغم من أن عددهم لا يجاوز ٦ ٪ من تعداد السكان .

○ ورغم أننا لا نؤيد فكرة ماذا يملك المسلمون في مصر وماذا يملك غيرهم ؟ لأن ذلك يرسخ الطائفية ويجعل كل طرف يتربص بالآخر ، ولكننا نسرد هذه الإحصائيات للرد على مزاعم أقباط المهجر التي تدعي في كل مكان وتَصْرُخ في كل واد أن أقباط مصر مضطهدون ، وتتحالف مع اللوبي اليهودي في

أمريكا وتُؤَلِّب الدنيا كلها على مصر حكومة وشعباً وتستنهض الإدارة الأمريكية للضغط على مصر حكومة وشعباً ، بل وتشجع على استخدام أمريكا لقانون الاضطهاد الديني الذي يُخَوِّل الإدارة الأمريكية بإدارتها المنفردة بالتدخل العسكري لحماية الأقليات الدينية والعرقية المضطهدة في أي مكان في العالم .. وهذا القانون يضع مصر من ضمن الدول التي تضطهد الأقلية القبطية فيها .

○ أقباط المهجر يخونون وطنهم الذي تربوا وتعلَّموا وعاشوا فيه ومازالت أسرهم تعيش فيه .. إنهم يطعنون وطنهم مصر في ظهره بِحَثِّ أمريكا على قطع المعونات عن مصر أو تطبيق العقوبات الاقتصادية والتكنولوجية عليها بزعم اضطهاد مصر حكومة وشعباً للأقباط .

○ أول مرة في تاريخ مصر يحدث توحد بين أقباط المهجر واللوبي اليهودي في أمريكا ، حيث تلاقت مصالحهم نحو إضْعَاف مصر صاحبة الدور المحوري من منطقة الشرق الأوسط والقادرة على كبح جماح إسرائيل التي تعربد في المنطقة . ولولا اللوبي اليهودي ما استطاع أقباط المهجر الوصول بسهولة إلى الكونجرس الأمريكي والإدارة الأمريكية والتأثير عليهما بهذه الصورة الخطيرة .

○ لقد قال مصطفى صادق الرافعي : « إن لسيوف المسلمين أخلاقاً » .. نعم والله إن لسيوف أمتنا أخلاقا وأي أخلاق ؟ .. ومن جملة أخلاق سيوف أمتنا أنها تضرب الظالم المستبد المعتدي لترفع ظلمة وتَكُفّ عدوانه ، وفي أحيان كثيرة يكون هؤلاء المستضعفون على غير ديننا بل يكونون من الكافرين برسولنا المُعْرِضين عن دينه .

○ وقد كان مسيحيو مصر من جملة المستضعفين الذين أخرجتهم أمتنا بقيادة الفاتح عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه « من جور الأديان إلى عَدْل الإسلام » فالكل يعرف حجم الاضطهاد الرهيب الذي كان يمارسه الرومان على نصارى مصر الأرثوذكس لإجبارهم على تغيير مذهبهم الكنسي .

○ ومن أخلاق سيوف أمتنا أنها تحمي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرا وتحمي كذلك الكنائس ومعابد أهل الكتاب لا لأن ما يذكر فيها من عقائد وما يتلى فيها من صلوات موافق لما عندنا ، بل لأنهم صاروا أهل عهد لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويتوجب علينا حمايتهم والدفاع عنهم .

○ إن التاريخ لم يحفظ قط أن هناك اضطهادا منظماً وقع على أهل الكتاب من المسلمين في أي حقبة من أحقابه . وإن كان سجل بعض حوادث على صورة مظالم تعرض لها بعض أهل الكتاب من بعض المسلمين كما سجل مظالم عدة وقعت من مسلم على مسلم أو من كتابي على آخر أو من كتابي على مسلم وفي المقابل اسودت صفحات كثيرة من التاريخ بذكر مذابح ومجازر تعرض لها بعض أهل الكتاب على يد فريق آخر منهم يخالفهم في المذهب أو العرق أو الوطن كما سجل مذابح عدة تعرض لها المسلمون على أيدي أهل الكتاب .

○ لا يجوز في ديننا ظلم كتابي أو هضم حقه لكفره وعدم إيمانه .

○ إن العقلاء جميعاً من مسلمين وغيرهم يقطعون دون بحث ولا تفتيش في وصايا هذا الدين وأحكامه أنه لم يأت بظلم أهل الكتاب واضطهادهم إذ لو كان هذا الزعم صحيحاً لما بقي في ديار المسلمين كتابي واحد .

○ لو كان من جملة ما شرعه الله اضطهاد أهل الكتاب لما حال حائل دون إهلاك أهل الكتاب إهلاكاً لا تقم لهم بعده قائمة .. فقد كانت دولة الإسلام تمتد من سور الصين شرقاً إلى شواطئ الأطلسي غرباً ومن وسط أوربا حيث تركيا والأندلس شمالاً إلى أواسط أفريقيا جنوباً فمن كان يومها يمنع المسلمين من إبادة أهل الكتاب إبادة شاملة خاصة وهم وقتها رعايا وأهل ذمة لا حول لهم ولا قوة وسط بحر زاخر من أهل الإسلام أصحاب الشوكة والمنعة .

○ الإسلام أباح للمسلمين البيع والشراء من أهل الكتاب وقبول هديتهم وإهدائهم واستئجارهم واستئجار المسلم نفسه منهم ومشاركتهم في العمل المباح

ومضاربتهم فيه وأكل ذبائحهم والزواج بالعفيفات المحصنات منهم وعيادة مرضاهم والتعلم منهم العلم النافع وتعليمهم العلم النافع وتطبيب المسلم عندهم وتطبيب المسلم لهم وتهنئتهم بزواج وإنجاب ذرية وسلامة من سفر وشفاء من مرض ونحو ذلك .. وهناك عشرات الأدلة الشرعية على كل هذه الأمور يعرفها كل مهتم بالإسلام .

○ قتل الكتابي في غير قتال وبلا موجب للقتل سوى أنه كتابي لا يَصِحُّ شرعاً ولم نسمع عن أحد من أئمة الإسلام وأعلام الهدى أنه قال به لا في السلف ولا في الخلف .

○ لقد بلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموال وممتلكات أهل الكتاب أنه يمنع من إتلاف ما يعدونه حسب دينهم مالاً كالخمر والخنزير وإن لم يكن مالاً عند المسلمين فمن أتلف من المسلمين على مسلم خمرا أو خنزيرا فلا شيء عليه ، فإن أتلفها على نصراني يرى أنها حلال له في دينه فقد قال فقهاء الأحناف : يغرم المسلم قيمتها . فإن كان هذا ما يقوله فقهاء الإسلام في خمرهم وخنزيرهم فكيف بأموالهم وممتلكاتهم المحترمة شرعاً عندنا ؟! فلا يجوز بحال إتلاف شيء من ذلك كما لا يجوز أكلها بالباطل !!

○ هناك آيات وأحكام تخاطب الأفراد وهناك آيات وأحكام أخرى لا تخاطب الأفراد ولكن تخاطب الدولة المسلمة ممثلة في سلطتها السياسية أي الحاكم ، ومن هذه الأحكام أحكام الحدود . فلا يجوز لأحد تطبيق حد السرقة أو حد الزنى أو القصاص حتى وإن لم يقم بها الحاكم لسبب أو لآخر .. فآية : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] وآية : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨] وآية : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : ٢] وكذلك الآيات الآمرة بأخذ الجزية من أهل الكتاب والآيات الآمرة بالصلح والحرب بين الدول ..

كل هذه الأحكام لا تخاطب الأفراد ولا للجماعات غير الممكنة ولكنها تخاطب الدولة المسلمة .. فإن لم تقم هذه الدولة بتطبيق هذه الأحكام فلا يجوز للأفراد ولا للجماعات تطبيق هذه الأحكام . أما الأحكام التي تخاطب أفراد الأمة كلها حكاماً وغير حكام فهي الأحكام التي في مقدورهم إنفاذها ولها عشرات الأمثلة مثل الأمر بالصلاة والزكاة والزواج والطلاق والبيوع والحج والصيام .

○ لو أن الأفراد والجماعات مثلاً حاولوا تطبيق الأحكام الخاصة بالحكام نظرا لعدم تطبيقها لساد الهرج والمرج وعمت الفوضى وفشى الفساد .. فهل يستطيع الفرد أو الجماعة تطبيق حد السرقة على أي أحد سرق .. إن ذلك يحتاج لأشياء كثيرة من القدرة على ضبط الجناة دون منازع أو معارض ثم دفعهم للقاضي المسلم الذي تتوفر فيه شروط الاجتهاد ثم إحضار الشهود ثم تنفيذ الحكم والقدرة على إنفاذه .. وليست القدرة تعني قدرتك على قطع يد السارق ثم الفرار من أقربائه ومن الشرطة ومن الجميع .. هذه ليست هي القدرة المنوط بها تنفيذ الأحكام الشرعية والتي تحدث عنها الفقهاء في كتبهم .. ولكن المقصود بالقدرة في مثل هذه الأحكام وما شابهها قدرة المتمكن الذي لا ينازعه من في مثل قدرته أو من هو أعلى منه وأقدر .. وهذه القدرة التي تحدث عنها الفقهاء في كتبهم لا توجد هذه الأيام إلا في الحكام ونوابهم .. ولو قام تنفيذ هذه الأحكام بنية طيبة بعض الأفراد أو الجماعات لوقع من الاضطراب والتقاتل والتدافع والفوضى ما لا تتم معه الأمور على الوجه الشرعي المقصود .. فضلاً عما يوجده ذلك من الفتن التي تزيد مفاسدها أضعافاً مضاعفة فوق المصالح التي كان يبغي تحصيلها .

ما سبق من تقرير المعنى السابق ينطبق على حكم الجزية إذ أن حكمها في القرآن الكريم يتوجه الخطاب فيها للحكام الممكنين ولا يتوجه الخطاب فيها إلى آحاد

الناس أو إلى الجماعات والحركات الإسلامية .. فالجزية ليست حقًّا ماليًّا لبعض آحاد المسلمين على بعض أهل الكتاب يحاولون استخلاصه كيفما اتفق بل إن أخذها تكليف شرعي تخاطب به الدولة المسلمة ممثلة في سلطتها السياسية فإن لم تقم به الدولة فلا يجوز لأحاد ولا لجماعات القيام به .

○ يجوز للحاكم المسلم أن يأخذ من أهل الكتاب الجزية باسم الزكاة مثل المسلمين وبقدر الزكاة أو ضعفها كما فعل عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه مع نصارى بني تغلب الذين رفضوا دفع الجزية بهذا الاسم لأنهم أنفوا من اسم الجزية فصالحهم عمر على ذلك .

وقد نقل ابن القيم ذلك عن كثير من الأئمة وقال : « فهذا الذي فعله عمر رضي اللَّه تعالى عنه وافقه عليه جميع الصحابة والفقهاء من بعدهم » .

يقول الشيرازي في المهذب : « فإن امتنع قوم من أداء الجزية باسم الجزية وقالوا: نؤديها باسم الصدقة ورأى الإمام أن يأخذها باسم الصدقة جاز » يقصد بالصدقة هنا الزكاة .

○ ○ ○

الفصل الثاني

وصايا الوداع

دموع الوداع

كانت أصعب لحظات تمر علينا وعلى الإخوة في السجون هي لحظات الفراق ، وأشق يوم على نفوسنا هو يوم اللقاء الختامي ..

ففي هذا اليوم كم بكت العيون وسحت بالدموع وخفقت القلوب واشرأبت الأعناق عندما أنشد المنشدون أناشيد الوداع ..

إنها لحظات مؤثرة في النفوس يتذكرها كل من عاشها .. فرغم قصر الفترة التي عشناها مع هؤلاء الإخوة إلا أنها ربطت بين قلوبنا وأشعرتنا أكثر وأكثر بمأساتهم ، لقد عشنا همومهم .. هموم من طلقت زوجته ، وهموم من تفرقت أسرته في سجون مصر شمالاً وجنوباً .. هموم من أصابته الأمراض الخطيرة في السجن فأضيف إلى سجنه سجن أكبر وأشق على نفسه ..

هموم كثيرة جدًّا من الفقر والحاجة والعوز والألم وموت الوالدين وهجران الأوطان والأولاد وكان يؤلمنا أننا نودعهم وأغلبهم ماكثون في المعتقل لفترة .. تألمنا لسجنهم رغم أننا سجناء مثلهم ، بل إننا قبلهم وقد نمكث بعدهم فليس هناك وعد بشيء ، ولم نطلق المبادرة من أجل شيء زائل من عرض الدنيا .

وفي هذه اللحظات المؤثرة درج الإخوة على أن يبثوا للإخوة خلاصة عمرهم وتجربتهم في الحياة ويبثوا إليهم شجونهم ويوصوهم بأهم الوصايا التي لا تتوقف عند حد الوصايا الشرعية والدينية ولكنها تشمل الحياة كلها والطريقة المثلى للتعامل مع الحياة .. ويذكروهم بالعهد الوثيق الذي قطعوه على أنفسهم بالالتزام بالمبادرة نصًّا وروحاً ويحدثوهم عن المستقبل .. ويبشروهم بالفرج القريب ويبثوا فيهم كوامن نفوسهم وأمنياتهم العظيمة في هذا الجيل .. وكانت هذه الوصايا جامعة وشاملة ومختصرة في الوقت نفسه .. وكان كل منهم يغطي جانباً مهما من جوانب الدين والحياة ..

فإذا تحدث الجميع سمعت منظومة متكاملة الجوانب وذلك دونما اتفاق بينهم ولكن لاختلاف الاهتمامات والتفاعل مع جوانب الحياة المختلفة تختلف كلماتهم ووصاياهم ، وكانت هذه الوصايا تلقى في المحاضرة الختامية أو في يوم آخر في العنابر .. وكان لهذه الوصايا عميق الأثر في نفوس كل من سمعها ، وكم بكى من بكى حتى سمع في بعض الأوقات نشيج البعض .. ولقيمة هذه الوصايا وأثرها في النفوس أحببت أن يطلع عليها القارئ ليعيش معنا بقلبه وجوارحه في هذه اللحظات الشجية .

○ ○ ○

من وصايا الوداع

○ نودعكم بعد أن رأينا عزمكم على الوفاء بالعهود ، وبعد أن شعرنا بمدى تجاوبكم العظيم مع المبادرة ومدى تفهمكم لها .

○ نودعكم ونحن سعداء لثقتكم فينا كما نثق فيكم ، وكذلك لقبولكم الذي لم نتوقعه لكل القضايا التي طرحناها عليكم .

○ السجن ضيق فوسعوه بأخلاقكم ، فالمكان يتَّسع ويضيق بأخلاق أصحابه ..

وتاللّه ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

○ لا تسيئوا تقديم الإسلام إلى الآخرين ، ولكن قدموه غضا طريًّا نابضاً حيا فتيًّا .

○ اهتموا بمعالي الأمور ، واتركوا سفاسفها ، ولا تستجيبوا لطبيعة السجون التي تُضيِّق أُفق الإنسان وتحصر اهتمامه في توافقه الأمور وتستغرق وقته في جدل عقيم حول قضايا ظاهرها ضخم وحقيقتها تافهة ، وعيشوا مع الحديث الشريف : « أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا »(1) .

○ إذا استفزكم أحد في السجن أو خارجه فلا تندفعوا وراء هذا الاستفزاز وعليكم بخيار الصَّبر .. وهو ليس خيار الضعفاء والجبناء كما يتصور البعض ، ولكنه خيار الأقوياء والأفذاذ من الرجال .. وهو خيار أولي العزم من الرسل ، وهم أعظم الرسل ، والرسل أعظم الخلق ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وهو خيار إيجابي عظيم وليس خيارا سلبيًّا كما يتصور البعض .. ألا ترى أن الإمام أحمد بن حنبل هزم المأمون والمعتصم بالصبر الجميل وانتصر مذهبه الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة .

○ استعينوا بالسّعة التي وسَّع اللّه بها عليكم فيما يحب اللّه من العبادات والحب في اللّه تعالى وطلب العلم النافع وصلة الأرحام .

○ نحن ما جئناكم لنفتح باباً للنبش في الماضي والدوران حوله والاستغراق فيه ولا للبحث عن المخطئ والمصيب ولا لتحميل المسئولية لفلان أو فلان .. بل

---

(1) رواه أبو داود [٤٨٠٠] عن أبي أمامة رضي اللّه تعالى عنه وقال الألباني : حسن .

جئناكم من أجل المستقبل .. فلنطو صفحة الماضي بما فيها ولنستقبل زمانا جديدا وعهدا جديدا يكون فيه الخير وتكون فيه الحكمة أعمق ويكون فيه الصلاح أبلغ وتكون فيه هداية الخلائق أعظم وأكثر .

- لا ترفعوا معيارا للتكريم والتفاضل بينكم إلا الذي رفعه اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .. « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »[1] . ولا تجعلوا أساساً للحب إلا الحب في اللّٰه .. لقد جاء الإسلام فصهر بين صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي وعلي القرشي في بوتقة واحدة ، واستطاع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أن يستفيد من الخصال المحمودة لكل قبيلة ويوجهها لصالح الإسلام والمسلمين وأن يَتَغَاضَى عن الخِصَال والطِّباع المكروهة .
- أُوصِي نفسي وإخواني أن نُعْطِي ظهورنا للماضي .. لقد تحولت آلامه وأشجانه وأحزانه إلى أحاديث .. مجرد أحاديث نتسامر بها ، ذهب الألم وبقي الثواب إن شاء اللّٰه .
- انظروا إلى الأمام فأحلى الأيام لم تأت بعد .. وأسعد الساعات لم نهنأ بها بعد وأجمل الأماني والأحلام لم تتحقق بعد .. اليوم خير من الأمس وغدا إن شاء اللّٰه سيكون خيرا من اليوم ، وتأكد أن اللّٰه لن يضيع صبركم وثباتكم .
- لقد تحيرت قبل أن ألقاكم للمرة الأولى عم أتحدث ؟ ..

أتحدث عن صبركم وأنتم الذين عجز الصبر أن يجاري صبركم ..
أم أتحدث عن رسوخ أقدامكم وأنتم الذين تَسْتَقِي منكم الجبال رسوخها .
أم أتحدث عن إيمانكم وصدقكم وأنتم الذين أضأتم بإيمانكم ظلام ليالي البلاء والمحنة وظلام الزنازين .. فسلام عليكم .. أقبلتم على الدين يوم أحجم الناس .. وضحيتم يوم ضن الناس .. وحضرتم يوم غاب الناس .. سلام عليكم ..

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٥ / ٤١١] عن أبي نضرة رضي اللّٰه تعالى عنه . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

○ أول كلمة نزلت في القرآن هي : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ لتخبر العالم أجمع أن هذا الدين هو دين العلم ولا مكان فيه للجهل .. فالعلم حصن عظيم يتحصن فيه المسلم من أهل الأهواء والضلالات ومن الشبهات والشهوات .. ويكفي أن طلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ولا يتم فضل العلم النافع إلا بالعمل به والإخلاص له .. فعليكم بهذه الثلاث تغنموا وتسعدوا .

○ أحبتي الكرام أقول لكم :

أناديكم أناديكم ... أشد على أياديكم
أقبل الأرض تحت نعالكم ... وأقول أفديكم
وأهديكم دعا قلبي ... ودفء القلب أعطيكم
فمأساتي التي أحيا ... نصيبي من مآسيكم
وآمالي التي أرجو ... إشراقة أمانيكم

بهذه الكلمات أبدأ وصيتي لكم .

○ لقد أكرمكم الله بنعم كثيرة تستحق أن نشكر الله عليها كثيرا .. فالنعم الكثيرة لا يوافيها إلا الشكر الكثير .. والنعم العظيمة لا يوافيها إلا الشكر العظيم .

○ نقول لكم عند الفراق : لقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمة الدنيا والآخرة في كلمات قليلة ..

« عش ما شئت فإنك ميت .. وأحبب من شئت فإنك مفارقه .. واعمل ما شئت فإنك مجزى به »[1] ولو اجتمعت فلاسفة الدنيا لشرح حكمة الدنيا والآخرة

(1) رواه الحاكم في المستدرك [٤ / ٣٦٠] ، والطبراني في الأوسط [٤ / ٣٠٦] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه . والحديث في العلل المتناهية [٨٨٦/٢] لابن الجوزي واللآلئ المصنوعة [٢٧/٢] للسيوطي والموضوعات [٣٣/٢] لابن الجوزي ، والفوائد المجموعة [٧٥-١٢٤] للشوكاني ، قال ابن حجر في الأمالي : تفرد به زافر وهو صدوق سيئ الحفظ كثير الوهم ؛ وفي إسناده محمد بن عيينة وفيه مقال . فالصواب أن الحديث : ضعيف لا كما جزم به الحاكم من كونه صحيحا ، ولا كما جزم به ابن الجوزى من كونه موضوعا ، وله شواهد =

في كلمات ما استطاعوا أن يغزلوا مثل هذا النسيج البديع من كلمات الحكمة السهلة الممتنعة .. فسنة الحياة اجتماع وفراق .. ولقاء ووداع .. قُرْبٌ وبعد .. نفارق أقواماً لنجتمع مع آخرين .. ونودع أقواماً لنلتقي مع آخرين .. ونبتعد عن أناس لنقترب من آخرين .. وأهم شيء أن يكون اجتماعنا لله وفي الله وأن يكون افتراقنا هو افتراق للأجساد وليس للقلوب .

○ نحن مجلس شورى الجماعة الإسلامية نتحمَّل المسئولية كاملة عن كل ما حدث .. ولا يفهم أحد أننا نحمل إخواننا بالخارج أو نحملكم أنتم المسئولية .. ونسأل اللَّه أن يرضى عنا بتحمّلنا لهذه المسئولية الجسيمة ..

○ من رحمة اللَّه بنا وبالناس أن جعل مع العسر يسرا ولم يجعل بعده .. ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ [الشرح : ٥] .. وكلما كان العسر كبيرا والبلاء شديدا كان اليسر كذلك عظيما وكبيرا .. وقد بدأت بشائر الفرج واليسر والغيث يبدأ بقطرات ثم ينهمر .

○ وأشد الأوقات ظلمة هي التي تسبق طلوع الفجر .. وأشد الأوقات بردا في الشتاء هي التي تَسْبق طلوع الشمس .. وإنني أُبْصر في الأفق البعيد نعماً من اللَّه لا تكاد تنتهي ..

○ قال تعالى : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة : ٦٣] .. علينا أن نأخذ الدين بقوة .. وسنظل على هذا العهد مع ديننا وجماعتنا وبلدنا .. والقوة ليست الشدة ولكن قوة القلب ، وقوة النفس .. ومعناها أن يحمل المرء نفسه على الصواب وإن خالف هواه .. ومن قوة الدين أن نوفي بالعهود ، وهذا الوفاء يحتاج لرجال أقوياء أشداء .. ومن القوة في الدين أن نُقر بالحق أينما كان ومع من كان ، ونرفض الباطل ونرده أينما كان ومع من كان . ونحن حينما نرجع عن خطأ فإننا إلى سنة النبي صلى اللَّه عليه وسلم ولذلك حفظ اللَّه هذه الأمة لأنها أبت أن تَعْلُو كلمة على كلمة اللَّه .. فلا يضعف أحد أن يقر بالحق سواء كان هذا يُكَلّفه الكثير أو القليل .. ومن أخذ الدين بقوة ألا تأخذ بهفوات

= ولكن بدون قوله : واعلم ... إلخ الفوائد المجموعة : [١/٧٤/٧٠]

العلماء وسقطاتهم لتجعلها منهاجاً ودينا .. ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود : ١١٢] فهذه هي الآية التي شيبت النبي صلى الله عليه وسلم[1] .. ومن أخذ الدين بقوة ألا تقدم شيئاً على سنة النبي صلى الله عليه وسلم وأن نحاكم أقوالنا وأفعالنا واجتهاداتنا لهدي النبي صلى الله عليه وسلم .

○ يمكن للمسلم أن يلزم نفسه بما شاء من الطاعات والقربات وعزمات الإيمان ولكن علينا ألا نلزم عموم الناس إلا بما ألزمهم وفرَضَهُ عليهم أو حرّمه عليهم ولكن هذا لا يمنعنا من تشجيع خواص المؤمنين على عزمات الدين والإيمان مجرد التشجيع والحث وليس الإلزام أو الجبر .

○ من الغلو المذموم في الدين والذي يجب علينا اجتنابه :

الاهتمام بالجزئيات دون الكليات .. ومنها تحويل الفروع الفقهية إلى أصول .. ومنها تحويل الخطأ إلى خطيئة .. ومنها تحويل الخطيئة إلى كفر .. ومنها تحويل المندوبات إلى فرائض .. وتحويل المكروهات إلى محرمات .. ومنها سوء الظن بالناس جميعاً والنظر إلى سلبياتهم دون إيجابياتهم والنظر دوماً إلى نصف الكوب الفارغ وأن يجعل الأصل في المسلمين السوء والضلال .. ومنها ترداد « هلك الناس » ومن ردد ذلك واعتقده وعاش فيه ومعه ، حق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قال الرجل : هلك الناس فهو أهلكهم »[2] وهو من أعظم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تنم عن عبقرية في النفس البشرية سبقت الطب النفسي بعدة قرون .

○ إن محاولة حسم الخلافات الفقهية الفرعية التي لم تحسم طوال تاريخ المسلمين هي محاولة فاشلة .. ومن أدراك أن الاختلاف في الفروع ضار ؟! إنه نافع

---

(١) روى الترمذي [٣٢٩٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال : يا رسول الله قد شبت ؛ قال : « شيبتني ﴿ هُودٌ ﴾ و ﴿ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ و ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ » . وقال الألباني : صحيح .

(٢) رواه مسلم [٢٦٢٣ / ١٣٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

ويثري الحياة الفقهية ويعالج قضايا عملية ومجتمعية كثيرة ، ونحمد الله أن كل من يفهم في الدين يعرف أنه كلما عظمت المسألة أو عظمت قيمة القضية كلما قل الخلاف حولها ، وكلما قلت أهمية المسألة قد كثر الخلاف الفقهي حولها . فأركان الإسلام وأسسه وقواعده وعقيدته لا خلاف حولها ولكن الخلاف في الفروع الفقهية الاجتهادية وهذه يَسَعُنا فيها جميعا ما وسع السلف الصالح من الخلاف حولها .

○ لا تكونوا من الذين لا هم لهم سوى الرغبة في إلغاء مذاهب الأئمة الأربعة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد .. ولا نقاش لهم إلا عن : هل من الأفضل للمسلم التمذهب أو عدم التمذهب ؛ في الوقت الذي تعاني فيه أمة الإسلام من ترك الفقه الإسلامي بالكلية والبحث عن الفقه الوضعي الذي تطور إلى درجة كبيرة بفضل رعاية الغرب له واهتمام دولهم به حتى سمعنا عن القانون الجوي والقانون البحري وقانون الفضاء .. إلخ . وهل من الحكمة إلغاء مذاهب الأئمة العظام الذين تلقتهم الأمة كلها بالقبول والرضى والتعليم على أيديها طوال خمسة عشر قرناً من الزمان .. فليس من الحكمة إلغاء عطاء السابقين .. ولكن الحكمة أن نقتبس ونستفيد منه في حل المشكلات المعاصرة ليتطور الفقه الإسلامي مع مستجدات العصر ويبحث في مشكلاته .. والحمد لله أن الفقه الإسلامي يتميز بالمرونة التي تؤهله لمواكبة آليات العصر الحديث وحل مشكلاته ، ولكن العيب فينا وليس في الفقه .

○ كما أن الفرد يتعلم من أحداث أمْسِه لِغده ، فإن الأمم والدول والجماعات تأخذ ماضيها لحاضرها ، وتستفيد من صوابها وخطئها ومن انتصاراتها وهزائمها ، وقد تستفيد من خطئها أكثر من صوابها ومن هزائمها أكثر من انتصاراتها فمع الهزائم يكون الانكسارية لله والقرب منه ومحاسبة النفس على الصغيرة قبل الكبيرة أما الانتصارات ونشوتها فهي تغري الأمم بالعظمة والعصمة والركون إلى النصر وتحويل السيئات إلى حسنات وستر القبيح ..

○ كونوا كالشجرة المثمرة إذا رماها الناس بالحجر رمتهم بالثمر .
○ أدوا زكاة قدرتكم وزكاة القدرة هي العفو وليس البطش .
○ لقد ظُلمتم كثيرا في السجون ، ومن ذاق مرارة الظلم عرف قيمة العدل .
○ عليكم بالإحسان إلى الناس جميعاً ، المسلم والكافر ، الطائع والعاصي ، القريب والبعيد ، الصالح والطالح ، المحسن والمسيء .. والإحسان درجة فوق العدل ، فإذا قصرت في الإحسان نزلت إلى مرتبة العدل ، فتحقق السلامة لدينك وعرضك .. فالداعية عليه أن يتخلق بأخلاق القرآن متأسياً في ذلك بسيد الدعاة إلى اللّٰه « رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم » الذي كان خلقه القرآن[1] ، وأن يعيش في رحاب أسماء اللّٰه الحسنى ومن أسمائه سبحانه وتعالى : « المحسن » وكلما عشتم مع هذا الاسم العظيم بقلوبكم وجوارحكم كلما سعدتم في حياتكم .
○ لقد جربنا قبل ذلك مواجهة الشر بالشر ومواجهة السيئة بالسيئة ومواجهة العدوان بالعدوان ، فما أغنانا ذلك شيئاً .. فلنجرب منذ اليوم مقابلة السيئة بالحسنة ، ومواجهة المنكر بالمعروف ، ومواجهة الشر بالخير ، ومقابلة الإساءة بالإحسان .. وعلينا أن نجرب منذ اليوم تلك الآلية العظيمة في كسب

---

(١) روى أحمد في المسند [٦ / ٩١] عن سعد بن هشام بن عامر قال : أتيت عائشة رضي اللّٰه تعالى عنها فقلت : يا أم المؤمنين ، أخبريني بخلق رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ قول اللّٰه عز وجل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح . وروى البخاري [٣٧٦٠] ، ومسلم [٢٣٢١ / ٦٨] عن عبد اللّٰه بن عمرو رضي اللّٰه تعالى عنه قال : إن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشاً ، وقال : إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً .
روى البخاري في الأدب المفرد [٢٣٤ / ٣٠٨] عن يزيد بن بابنوس قال : دخلنا على عائشة رضي اللّٰه تعالى عنها فقلنا : يا أم المؤمنين ، ما كان خلق رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ؟ قالت : كان خلقه القرآن تقرأون سورة المؤمنين ؟ قالت : اقرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى ﴿ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾ قالت : كان خُلق رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم .

الأصدقاء ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] إنه ليس مجرد وَليّ فحسب ، ولكنه ولي حميم .

- عليكم بالتواضع مع الناس جميعاً .. فالداعية بغير تواضع كالشجرة العقيمة التي لا تثمر .
- ومن أعظم أحاديث رسولنا صلى اللّه عليه وسلم التي قصّرنا في العمل بها « لا يشكر اللّه من لا يشكر الناس »[1] .. فشكرك لكل من أسدى إليك معروفاً هو شكر للّه سبحانه ، وجحودك لكل من أسدى إليك معروفاً هو جحود لنعمة اللّه سبحانه وتعالى ، وكلما رأيت الإنسان يشكر الناس الذين أسدوا إليه المعروف كلما تيقنت عميق صلته وقربه من اللّه وكلما رأيت الإنسان يجحد الناس الذين أحسنوا إليه فاعلم يقينا أنه يعامل ربه كذلك بمثل هذا الجحود بل أكثر .. إنها أشبه بالمعادلات الإيمانية .. ماذا ستكلفنا كلمة جزاك اللّه خيرا أو شكرا ، وكلمات الامتنان الأخرى إذا أسعدنا بها قُلوب من أسعدونا وسعوا في تفريج كربتنا أو كانوا كرماء معنا وقت المحنة ومحسنين لنا وقت البلاء .
- أولى الناس أن نحفظ جميلهم في هذه المحنة وبعدها هم أمهاتنا ثم زوجاتنا ثم أبناؤنا ثم إخواننا ثم أشقاؤنا ، فهم على الترتيب الذين تحملوا بل حملوا عنا عبء أكثر من عشر سنوات عصيبة كل يوم فيها أثقل من دهر .
- شكرا لكل من أجرى اللّه علي يديه التوسعة والفرج في هذا السجن وغيره من السجون .. شكرا للذين حملوا على عاتقهم مبدأ الحوار مع الجماعة الإسلامية .. شكرا لكل من حول القتل إلى صلح ، وحول الكارثة إلى هدوء وصفاء .. شكرا لكل من عبر معنا وبنا هذه المحنة الفظيعة التي لم تشهد البلاد لها مثيلاً

(١) رواه أبو داود [٤٨١١] ، والترمذي [١٩٥٤] ، وأحمد في المسند [٢ / ٢٥٨] وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

شكرا لكل من ساعدونا على كل خير فعلناه ونفعله في هذه المبادرة .. شكرا لكل من أنقذ مصر من مستنقع الدماء وأعاد الكرامة الإنسانية والدينية للمعتقلين بعد طول إهدار .. شكرا لكم يا من استجبتم لمنطق الحوار وقدمتموه على منطق القتال ، وقدمتم منطق التفاهم على منطق التصفية الجسدية .

أنتم الورود الجميلة في مجتمع مسلم محب للدين بفطرته .. وهذا المجتمع يحتاج إليكم ولا يستغني عنكم أبدا ولا تستغنون عنه أبدا فأنتم منه وله .

- احذروا المزايدة فإنها تضيع الممكن في طلب المستحيل .
- ليس مهمة الحركة الإسلامية هي عناد الحكام أو عوام الناس ، وكلما قالوا : شرقاً . قلنا : غرباً . حتى لا نُتهم بنفاقهم ومداهنتهم ، وكلما قالوا : شمالاً . قلنا : يميناً .. ولكن نحن دعاة إلى الله ، وهداة إلى طريق الحق ، لا نكلف أحدا بما لا يطيق ، ولا نطلب من أحد ما لا يستطيع ، ولا نطلب من الناس ما يعنتهم أو يشق عليهم ، ولا نعارضهم لمجرد المعارضة ، ولكن إن كان في قولهم وفعلهم الصواب والحق أيدناه ودعمناه ، وإن كان في قولهم غير ذلك أنكرناه ورفضناه ابتغاء وجه الله وليس ابتغاء شهرة أو جاه .. وإن أصابوا الحق حمدنا ذلك وذكرناه ، وإن كانوا غير ذلك وضحنا وبينا بما يليق ويشرع ويحسن في دين الله ، فإن قبل الناس نصحنا شكرناهم ، وإن رفض الناس نصحنا عذرناهم ودعونا لهم بالهداية ، ولا يسألنا أحد خطة تعظم فيها حرمات الله إلا أجبناهم إليها .. ولا يسألونا خطة تحفظ هوية الأمة وتحقن فيها دماء الأمة وتجمع شملها وتقوي كيانها في مواجهة محاولات إسرائيل للسيطرة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية على المنطقة إلا أجبناهم إليها .. وليذكر الجميع أننا الذين سعينا مرارا وتكرارا لوقف نزيف الدماء منذ عام ١٩٩٣ .. إننا نعيش في هذه اللحظات مع هدى النبي صلى الله عليه وسلم حينما وقف عند مشارف مكة عند الحديبية وهو يقول : « والذي نفسي بيده

لا يسألونني خطة تعظم فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها »[1] .. ويعلق على ذلك أحد فقهاء الإسلام قائلاً : « إذا طلب قوم كائناً من كانوا أمرا يعظمون فيه حرمة من حرمات الله أجيبوا إليه وأعطوه وأعينوا عليه وإن منعوا غيره .. فيعانون على تعظيم ما فيه حرمات الله لا على أي شيء آخر ، ويمنعون مما سوى ذلك فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مُرْضٍ لَهُ أُجيب إلى ذلك كائناً من كان ما لم يترتب علي إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه .. وهذا أدق المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس[2] ولذلك ضاق عنه الصحابة ما ضاق وقال عمر بن الخطاب ما قال »[3] .

- الفكر هو إعمال العقل للقيام بالأعمال الذهنية لاستنباط الحكم والخروج بالرؤى والتصورات الصحيحة المناسبة للواقع ، والفكر بهذا الوصف يخرج من ذهن بشري ينظر للواقع والمنهج الذي يعمله في هذا الواقع .. فإن كان الذهن البشري إسلاميًا كان الفكر إسلاميًا ، وإن كان الذهن البشري علمانيًا كان الفكر علمانيًا ، وإن كان الذهن اشتراكيًا كان الفكر اشتراكيًا .. وإذا كان الفكر هو عمل الذهن البشري فالخطأ وارد في حقه ، ولذلك لم يقل أحد إن قول الأصولي أو المجتهد حجة على أحد وذلك لأنه غير معصوم من الوقوع في الخطأ . فالفكر الإنساني لا قدسية له ، ولكن القدسية هي للكتاب والسنة وأحكام الإسلام القطعية المجمع عليها .
- قد يقول البعض : كان ينبغي علينا أن نوقف مراجعتنا لأنفسنا حتى يراجع الآخرون أنفسهم .. ونحن نقول : هذا خطأ لأن الأطراف الأخرى لها موازينها وقواعدها وسياساتها التي تحكمها ولا تنفك عنها ، ونحن مسئولون

(١) سبق تخريجه .

(٢) راجع زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية .

(٣) حينما قال للرسول صلى الله عليه وسلم : « فقيم نعطي الدنية في ديننا » وذلك في غزوة الحديبية وهو جزء من حديث رواه البخاري [٣١٨٢] ، ومسلم [١٧٨٥ / ٩٤] ، وأحمد في المسند [٣ / ٤٨٥] عن سهل بن حنيف رضي الله تعالى عنه .

فقط عن أخطائنا ومسئولون أمام اللَّه عن أنفسنا :

﴿ كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء : ١٣٥] .. إن المهم أن ننجو بأنفسنا وليفعل كل طرف ما يفرضه عليه دينه وضميره ، ولن يسأل يوم القيامة أحد عن أحد ، ونحن نضع كل طرف أمام مسئوليته الدينية والوطنية والقانونية والإنسانية .

○ هناك بعض غلاة العلمانيين يريد تحويل هذه المراجعة من شيء محمود حسن إلى تكأة لتخطئة الإسلام ذاته .. وهذا موقف انتهازي بغيض يحول الخير إلى شر ويحول الصلاح إلى فساد .. فنحن نراجع مواقفنا على موقف الإسلام ونراجع أنفسنا على هدي الكتاب والسنة ، وليس على هدي مذهب اشتراكي وليبرالي .. فسنة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم التي يحاربها بعض العلمانيين هي الضياء الذي أنار لنا الطريق للمراجعة .. فليس الخطأ في الكتاب ولا في السنة ولكن في اجتهاد في قتال غير صحيح لأنه نزل الأحكام الشرعية على واقع لا يناسبها ولا يتفق معها ، ثم إنه لابد من تحديد طبيعة الخطأ ، فالكفر خطأ والمروق من تكاليف الشرع خطأ وفعل الحرام خطأ ، والذي ينظر في كتاب اللَّه وسنة رسوله صلى اللَّه عليه وسلم ثم يخطئ في اجتهاده يكون قد أخطأ أيضاً ، فلا يستوي مع غيره .. فالذي نتحدث عنه هو خطأ اجتهاد وليس خطأ هوى أو عناد .. والحق أن الإنسان إذا اكتشف خطأ في قول قاله أو موقف فعله أن يراجع نفسه ويقول : لقد أخطأت في كذا وكذا ، لأن الحق أحب إليه .. وقد جاء أن سعد بن إبراهيم قد قضى في قضاء برأيه ثم بلغه قول لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يخالف قضاءه في هذه القضية ، فشاور صاحباً في ذلك ، فقال له : لقد اجتهدت ومضى حكمك . فقال سعد : ويحك أأمضى قضاء سعد بن أم سعد ولا أنفذ قضاء رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بل أرد قضاء سعد بن أم سعد ، ثم دعا بكتاب القضية فشقه[1] .

---

(١) راجع : سير أعلام النبلاء للذهبي [٥ / ٤٢٠] .

○ لا يكن حظك من الفقه والعلم معرفة الفريضة والسنة لترك السنة .
○ لا يكن حظك من العلم معرفة المباحات لتعيش حياتك كلها دون هدف سام تسعى إليه ، أو غرض نبيل عظيم تسعى لتحقيقه ..
○ لا يكن حظك من العلم معرفة المكروه من المحرم لتأتي كل المكروهات بحجة أنه ليس حراماً ، وترتع حول الحمى ومن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، ومن أكثر من المكروه وقع في الحرام .
○ إذا كانت هذه الأيام قد منحت لنا أبواباً ، وهيأت لنا أسباباً للفرج ، فلا ننسى أننا لا نتعلق بالأسباب وإنما نتعلق برب الأسباب .. وقد رسخت الشدائد في قلوبنا هذه العقيدة العظيمة .. ومع تعلقنا برب الأسباب يجب أن تكون ثقتنا في وعده عظيمة راسخة .. والفرق بين الثقة في الله والتعلق بالأسباب واضحة ، فالواثق في الله مطمئن ، مستبشر دائماً على كل حال ، والمتعلق بالأسباب متقلب الحال مع وجود الأسباب وزوالها ..

○ ○ ○

الفصل الثالث

قالوا عن المبادرة

نهاية حقبة سوداء مظلمة

منذ أن أعلنا مبادرة وقف العنف من طرف واحد - بدون قيد أو شرط من الخامس من يوليو عام ١٩٩٧ م وتوالت ردود الأفعال ما بين مؤيد ومشكك .

لكن تلقتها معظم فئات المجتمع بالقبول والاستبشار .. والفرحة والسعادة بنهاية حقبة سوداء مظلمة من العنف المتبادل وإراقة الدماء . وكانت الفرحة غامرة ببداية حياة آمنة مطمئنة تم فيها وقف نزيف الدماء واجتماع أبناء الوطن الواحد .

لقد كانت معظم الآراء ترى في هذه المبادرة نهاية لحقبة مُؤْلمة من تاريخ مصر ، تصارع فيها أبناء الوطن الواحد ، وأريقت فيها الدماء ، ورأى العقلاء والحكماء من كافة الأطراف أن هذه المبادرة تمثل بداية لمصالحة وطنية عظيمة تحفظ للجميع أمنهم وأمانهم وتحفظ للوطن توجهه نحو التنمية والبناء والرخاء والتصدي للعدو الحقيقي الذي يرابض على حدود مصر الشرقية ويفكر بين الحين والآخر في اجتياح غزة بوابة مصر الشرقية . ورغم أن الكثير من المثقفين ورجالات الفكر والسياسة والأمن أيَّدُوا المبادرة ورأوا فيها بداية لخير كثير ، وبداية لحل أزمة التسعينات ودوامة العنف والعنف المتبادل ؛ إلا أن هناك مجموعة من الناس غلبت عليهم مصالحهم الشخصية أو غلبت عليهم توجهاتهم الفكرية أو نزعاتهم العقائدية .

فهناك أقوام انتفعوا من المواجهات الدموية ، وتربحوا من الصراع بين الدولة والإسلاميين ، وهناك أقوام آخرون صعدوا على جماجم الفريقين وعلى آلامهم وآهاتهم ، وعلى خراب بيوتهم وترمل نسائهم وتيتيم أطفالهم .

وهؤلاء جميعاً رفضوا المبادرة ، وشككوا في مصداقيتها ، وروجوا لمواجهتها . ومن أوائل هؤلاء : الشيوعيون ، أو بمعنى أدق فريق منهم . ونحن نضرب صفحاً عن أقوالهم وآرائهم ؛ لأنها ترى من المبادرة وقفاً لمكاسبهم المتتالية التي جنوها من فترة الصراع الدموي الذي حدث بين الإسلاميين ودولتهم .

وهذا التشكيك حدث رغم أن الأمن والأمان أصبح حقيقة ملموسة وواقعاً مشاهدا لا ينكره منصف أو عاقل أبدا وذلك بعد المبادرة .

فقد مرت خمس سنوات منذ حادث الأقصر ولم يحدث ما يعكر صفو الأمن في مصر فالمبادرة ليست شيئا نظريا بل أصبحت واقعا ملموسا ومحسوسا من كل مواطن عاش في مصر قبلها وبعدها .. فلم تكن المبادرة كلمة قيلت لا مردود لها في الواقع ، أو لا أساس لها على الأرض .. بل كانت المبادرة واقعا مشاهدا من أمن وأمان يعم ربوع مصر .. وهذا الواقع يعرفه كل جندي ويعرفه كل ضابط ، ويعرفه كل سائح ، ويعرفه كل مستثمر ، ويعرفه كل مسيحي ، وكذلك كل عضو من الجماعات الإسلامية عاش ما قبل المبادرة وشهد الواقعين : واقع ما قبل المبادرة وواقع ما بعدها .. وكل من أيد المبادرة ودافع ونافح عنها لم يفعل ذلك من فراغ ولكن حَرَّكَتْهُ غيرته الدينية وحُبّه لوطنه وحِرْصه على مصالحه العليا ، وتقديم هذه المصالح على ما سواها ، وحركه كذلك ما رآه في الواقع العملي من وقف تام لكل أشكال العنف والعنف المضاد ووقف لكل السلبيات التي حصدناها جميعاً من جراء صراع التسعينات .

إن المبادرة لم تقدم حلا وقتيا للصراع .. ولكن قدمت حلا دائما ومتكاملا لهذا الصراع . ونحمد الله أن كل مصري غيور على وطنه أيد المبادرة وشجعها وباركها .

وفي الوقت الذي شجّع فيه الجميع المبادرة وباركها ورأى ثمارها بعد خمس سنوات من إطلاقها إذ بجريدة الأهالي - الشيوعية التوجه - تنشر في صفحتها الأولى وبعناوين عريضة عن إحباط محاولة تهريب أسلحة إلى ملوك الإرهابيين من أعضاء الجماعة الإسلامية وعن ضبط سيارتي لوري محملتين بالأسلحة . ومخبأ للبنادق داخل الصخور في أسوان ونسبت ذلك إلى مصادر مطلعة ، ولكن ما هي هذه المصادر المطلعة ؟!

لم تفصح الأهالي عن مصادرها كعادتها المعروفة إذا أرادت الكذب والبهتان ،

وللأسف فإن هذه العناوين الضخمة تناقلتها بعض وكالات الأنباء لولا نفي أجهزة أمن الدولة في مصر لهذه الأخبار وإن هذه الأسلحة لا علاقة لها البتة بالجماعات الإسلامية ولا بالأمن السياسي نهائيا !!

وكان هذا النفي الواضح الصريح بمثابة الحجر الذي ألقمته الدولة لهؤلاء الشيوعيين ولجريدتهم الأهالي . وإن الدولة لن تقبل أن يجرها هؤلاء إلى صراع موهوم بينها وبين الإسلاميين من أبناء الوطن وأن زمن صعود الأهالي على جماجم المسلمين قد وَلَّى .

وتساءل الجميع وقتها ، ماذا تريد الأهالي بهذا النشر الكاذب ؟ ..

هل تريد الإساءة إلى سمعة البلاد في الخارج وتقول إن مصر ليس فيها أمن ولا أمان ؟! هل تريد أن تخوف الاستثمارات الأجنبية من مصر ؟!

هل تريد إشاعة الفوضى ؟!

ألا تريد أن تتوقف عن تأليب أمة الإسلام بعضها على بعض .

ألا تريد الأهالي أن تتوقف عن الصعود على جماجم الحركات الإسلامية كما دأبت في السنوات الأخيرة ؟

فكم صعدوا على آهات ودماء وجراحات الكثيرين . لقد كسب بعض الشيوعيين واليساريين أعظم المكاسب في السنوات الماضية في الوقت الذي خسرت فيه الحركات الإسلامية أعظم الخسائر وهم يودون استمرار خسائرنا واستمرار مكاسبهم .. ولكن هيهات هيهات .

مصيبة بعض اليساريين التي يعتبرونها حجة دامغة ويريدون أن يحاجونا بها هي قولهم : ما هي الضمانات التي تقدمها الجماعات الإسلامية حتى تخرج من السجن ؟! وكأن السجن قد كُتب على الإسلاميين ، أو كأن الاعتقال فرض علينا مع أنه لا مبرر له من الشرع أو حتى من القانون الوضعي !!

ثم إننا نقول لهؤلاء : لماذا تطالبون التيار الإسلامي دائماً بتقديم الضمانات دون

بقية التيارات السياسية الأخرى التي تحولت تحولا دراماتيكيا من النقيض إلى النقيض كحال بعض المنتمين للتيار الشيوعي الذين انتقلوا فجأة ودون مقدمات من ديكتاتورية البروليتاريا والصراع الطبقي إلى التشدق بمفاهيم الحرية والديمقراطية ، ولكن لا عتب على هؤلاء اليساريين ؛ لأنهم في الحقيقة لا يعادوننا فحسب ولكن يعادون الدين نفسه ، ويريدون مصادرة كل ما هو إسلامي ويحاربون كل داعية ناجح حتى لو كان تابعاً للأزهر أو للأوقاف أو حتى من دولة أخرى غير مصر . فما دمت قد نجحت في دعوتك إلى اللّٰه فانتظر الحرب الضروس من هؤلاء ، ولكن لا بأس فإن اللّٰه مُظهر دينه وغالب على أمره ولو كره اليساريون وأذنابهم ..

ومن أجل عدم موضوعية بعض اليساريين في مصر أعرضنا صفحًا عن ذكر أقوالهم وآرائهم في المبادرة واكتفينا بالأقوال المُنصفة التي لم يحركها سوى الصالح الوطني وسوى الرغبة الحقيقية في مصالح البلاد والعباد .

ومن أهم المقالات وأوضحها وأرصنها في تأييد المبادرة هي كلمات قالها الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة المصور ، والذي حضر بنفسه وناقش وحاور وسأل واستمع إلى جميع مستويات الجماعة الإسلامية بدءا من قادة الجماعة ومجلس شورتها إلى الصف الثاني بسجن العقرب إلى القاعدة والأفراد بسجن وادي النطرون واستمع إلى المحكوم عليهم بالإعدام ، وإلى قادة الجناح العسكري سابقاً .

لقد خرج الأستاذ مكرم بعد حواراته بنتيجة منطقية يخرج بها كل وطني عاقل .. ماذا سيستفيد المحكوم عليهم من المبادرة ؟! .. كل الأقوال تنطق أنه ليس هناك وعد بتخفيف الحكم ونحو ذلك .. فضلاً عن العفو عنهم . بل ماذا سيستفيد من المبادرة الذين حُكم عليهم بالإعدام وتم التصديق على الحكم حتى يشجعوها ويؤيدوها بكل ما أوتوا من قوة ؟

لقد خرج الأستاذ مكرم من لقائه بالمحكوم عليهم بالإعدام والسجن بقناعة راسخة أن الجماعة الإسلامية مقتنعة بالمبادرة كشرع ودين أولاً وآخرا .. وليس لمجرد المنفعة

أو التخلص من موقف صعب أو التخلص من القبضة الأمنية للدولة كلا ..

بل إن الذين أطلقوا المبادرة أنفسهم ما زالوا في السجون رغم انتهاء حكمهم !! وكل الصف الثاني للجماعة الإسلامية الذين أيدوا المبادرة ودعموها وتحركوا إلى السجون مع قادتهم لشرحها وعرضها على جميع الإخوة . هذا الصف الثاني معظمه في السجون وبعضه قضى إلى الآن ثلاثة عشر عاماً وهو معتقل فقط في ظل قانون الطوارئ .. ومعظمهم لا علاقة له بالأحداث الأخيرة في التسعينات .. لأنه ببساطة سجن قبلها بكثير ..

لقد استمع الأستاذ مكرم إلى الجميع وقال : « ربما يكون من حق هؤلاء وقد كنت خصما لدودا ولا أزال لهذه الجماعات أن أقول أخيرا إنني الآن أكثر الجميع تأثرا بهذا اللقاء الذي تم في سجن العقرب وأكثر الجميع اعتقادا بصدق مواقفهم الجديدة »[1] .

وشهد شهادة حق حينما قال وكرر كلمة : « أشهد » .

« وأشهد أن القيادات الأربع ملكت الشجاعة أن تعلن فكرها الجديد أمام قواعدها صريحاً واضحاً دون أن تترك فرصة للظن أو الحيرة أو تستخدم لغة ذات وجهين أو يعتريها الرغبة في حفظ ماء الوجه ، خصوصاً في المواقف الصعبة .. »[2] .

« وأشهد أن القيادات الأربع كانت تتحدث اللغة ذاتها لم ألحظ أي تباين من أفكارها ولم ألمس أي فروق في اجتهاداتهم . وكان الأربعة صوتا واحدا ، وفِكْرا واحدا ، وخَطا واحدا رغم أن كل واحد منهم تكلم في موضوع بعينه .. »[3] .

« وأشهد أن الإجابات كانت صريحة وواضحة تعكس بصدق فكرا جديدا ورؤية جديدة .. »[4] .

---

(١) مجلة المصور بتاريخ ٢١ / ٦ / ٢٠٠٢ م .

(٢) مجلة المصور بتاريخ ٢١ / ٦ / ٢٠٠٢ م .

(٣) مجلة المصور بتاريخ ٢٨ / ٦ / ٢٠٠٢ م .

(٤) مجلة المصور بتاريخ ٥ / ٧ / ٢٠٠٢ م .

نص تقرير الأزهر الشريف عن كتب المبادرة الأربعة

○ **كتاب : « مبادرة وقف العنف .. رؤية شرعية ونظرة واقعية »**

يقول تقرير الأزهر : « هذا الكتاب يعتمد على أفكار علمية ودينية مدعمة بالأدلة القوية من الكتاب والسنة وأدلة من أصول الفقه والقياس عليها في أن وقف الأعمال القتالية دفع للضرر ، لأن القتال يُسبب ضررا كبيرا للأمة ، وليس فيه مصلحة محققة ، وأن درء المفسدة مُقَدّم على جلب المنفعة » .

ويقول أيضاً : « النتيجة التي ينتهي إليها الكتاب طيبة ولا بأس بها ، ومرغوب فيها وهي منع القتال بين الشرطة والجماعات الإسلامية .. وفيها خدمة ومصلحة شرعية للدعوة الإسلامية تحقق الأمن والسلام بين المسلمين ، وتُوَحِّد الأمة أمام أعدائها الحقيقيين ، كما تؤدي هذه النتيجة إلى الصلح بين المسلمين والصلح خير .. » .

○ **كتاب : « النصح والتبيين .. في تصحيح مفاهيم المحتسبين »**

نص التقرير : « هذا البحث قيم يبين آداب المحتسب وسلوكه والطريقة التي يتبعها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجميع شواهد البحث صحيحة من القرآن والسنة النبوية ، وأرى إجازته لأنه لا يمس العقيدة ولا يتعارض مع الثوابت » .

○ **كتاب : « حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين »**

ويقول التقرير : « ليس في هذا البحث ما يخالف الدين والعلم ، ولا مانع من نشره وتداوله حيث إن مثله مطلوب .. » .

○ **كتاب : « تسليط الأضواء .. على ما وقع في الجهاد من أخطاء »**

يقول التقرير : « فأرى لا مانع من تداول هذا البحث حيث إنه لم يشتمل على مخالفة عقدية أو شرعية كما أنه تضمن أيضاً تصحيحاً للمفاهيم الخاطئة لدى البعض من الشباب في فهم فقه الجهاد في الإسلام والله الموفق » . أ.هـ

مقتطفات من أقوال العلماء المسلمين ورجال الدعوة والفكر عن المبادرة

○ **الدكتور محمد كمال إمام** « أستاذ الشريعة بحقوق الإسكندرية » :

« نحن في حاجة لتوحيد صفوف الأمة لمواجهة الأخطار الخارجية » .

جريدة اللواء الإسلامي(*)

○ **الدكتور عبد العظيم المطعني** « الأستاذ بجامعة الأزهر » :

« ما كتبوه في بيانهم يدل على تحول إيجابي في الفكر بأسانيد شرعية قوية » .

جريدة اللواء الإسلامي(*)

○ **الدكتور عبد الصبور شاهين** « الأستاذ بكلية دار العلوم » :

« أعتقد صدق نيتهم وأثق في مقدرة رجال الأمن على مراقبتهم » .

جريدة اللواء الإسلامي(*)

○ **الدكتور عبد العظيم المطعني** :

« لقد قرأت ما كتبه القادة التاريخيون للجماعة الإسلامية ، والحق يقال إن الذي قدموه من أفكار لتصحيح ما كانوا يعتنقونه من مفاهيم اتَّسم بالرصانة والإصابة ودقّة النظر ، وهو يرمز إلى مرحلة واعية تحول فيها فكر هؤلاء الشباب إلى ما يبشر بالخير والاستقرار .. » .

جريدة اللواء الإسلامي(*)

○ **المفكر الدكتور عبد الصبور شاهين** :

« لا أرى بأساً رغم كل ما حدث من قبول تلك المرجعة والتعامل معها بموضوعية وحسن ظن من المجتمع بكل فئاته » .

جريدة اللواء الإسلامي(*)

ويؤكد الدكتور عبد الصبور شاهين :

« إن هناك من لا يريد تصفية هذا الخلاف بين هؤلاء الشباب ومجتمعهم لأنهم يتكسبون من جو التوتر الذي كنا نعيش فيه .. » .

جريدة اللواء الإسلامي(*)

(*) مجلة اللواء الإسلامي : العدد رقم [١٠٥١] بتاريخ ١٤ / ٣ / ٢٠٠٢ م .

○ **الدكتور محمد كمال إمام :**

« إن الخضوع للحق والالتزام بالدليل شرف لمن يقوم به .. » .

« إن مراجعة الذات والعودة إلى الفكر المستقيم أمرٌ محمود لمن يقوم به .. » .

« وإذا كنا كمسلمين نؤكد أن ديننا يقبل التصالح مع غير المسلمين فكيف لا نقبل عودة المسلم إلى صفوف مواطنيه .. » .

« إن الذين لا يريدون صالح هذه الأمة أولئك الذين يكثرون من سوء الظن ولا يريدون تصفية الخلافات الفكرية أو غير الفكرية بين أبناء المجتمع الواحد .. » .

جريدة اللواء الإسلامي(*)

« هناك لحظات من تاريخ الأمم يكون فيها المجتمع في أمَسِّ الحاجة إلى توحيد صفوفه » . جريدة اللواء الإسلامي(*)

○ **الدكتور محمد مورو** « كاتب بمجلة المختار الإسلامي » :

« إن التطورات الهامة على المستويين الفكري والسياسي التي شهدتها الجماعة الإسلامية في مصر تستحق وقفة تأمل وتحليل » . المختار الإسلامي(**)

○ **الدكتور عصام العريان** « من قيادات الإخوان بمصر » .

« مراجعة الجماعة الإسلامية جاءت ذاتية وليس للحكومة دخل بها » .

« يجب أن نرحب كمسلمين ومصريين ومهتمين بشئون هذا البلد بأي محاولة لوقف ملف الاعتقال السياسي ، وأي محاولة لتفريغ السجون من المعتقلين والمحبوسين سياسيا ، وأي محاولة لمحاربة العنف والإقلاع عنه ، كل هذا محل إجماع وتقدير من كل محب لهذا البلد .. » . جريدة آفاق عربية(***)

○ **اللواء / فؤاد علام** « خبير أمني معروف » .

« يُنصح بضرورة تخفيف العقوبة على أفراد الجماعة داخل السجن واحتضان

(*) مجلة اللواء الإسلامي : العدد رقم [١٠٥١] بتاريخ ١٤ / ٣ / ٢٠٠٢ م .

(**) مجلة المختار الإسلامي عدد [٢٣٨] تاريخ ١٠ / ٨ / ٢٠٠٢ م .

(***) جريدة آفاق عربية تاريخ ١٨ / ٧ / ٢٠٠٢ م .

العناصر القيادية فهم الأكثر قدرة على معرفة مواطن الضعف والقوة داخل صفوف أفرادها .. » .

« الحوار القائم حالياً يؤكد صدقهم مائة في المائة فيما يشرعون فيه لذا يجب أن تستفيد الدولة من إمكاناتهم في مختلف المجالات وتعمل على إزالة العقبات التي تواجههم » . مجلة الأهرام العربي(*)

○ **الدكتور رفعت سيد أحمد** : « الكاتب المعروف » :

« الحوار المطول والخطير الذي أجراه الأستاذ مكرم محمد أحمد في الذكرى الخامسة لإعلان المبادرة جاء ليلقم الفريق العلماني ومعه الفريق الإسرائيلي داخل الحكومة المصرية والغاضب من التحولات السلمية للجماعة حجرا .. » .

« التفسير الصحيح للمبادرة يَكْمُن في أن تحولاً بنيويًا رئيسيا في طبيعة الجماعة قد حدث وأن هناك مراجعة حقيقية كاملة في كل أطروحات الماضي العنيف للجماعة وأنها كانت جادة وواعية للمخاطر العالمية الجديدة خاصة بعد أحداث سبتمبر والخطر الإسرائيلي القادم على المنطقة كلها .. » . جريدة الميدان(**)

– ويصف الأستاذ مكرم محمد أحمد بقية لقاءاته مع قادة أفراد الجماعة فيقول :

« لم أصدق بالفعل أن المبادرة جاءت وليدة عملية مراجعة شاملة لفكر الجماعة قامت بها هذه القيادات وهي داخل السجون وأثمرت فكرا جديدا يستند إلى رؤية شرعية صحيحة ، وفَهْم جديد لمعنى الجهاد أكثر قرباً من ينابيع الإسلام الصحيحة .. »

وردا على الأصوات التي شككت في صِدْق المبادرة وصدق القائمين عليها قال : « إنني لا أملك مبضع جراح كي افتش عن القلوب والنيات ، ولكن ما جرى أمام عيني على امتداد خمس ساعات كاملة أو يزيد لم يكن بالقطع سيناريو أحكم ترتيبه أو مسرحية أخرجت بعناية كما يعتقد البعض .. » .

(*) مجلة الأهرام العربي عدد ٢٧٦ ص ١٤ : ١٧ بتاريخ ٦ / ٧ / ٢٠٠٢ م .

(**) جريدة الميدان عدد ٤٦٦ تاريخ ٢٠ / ٨ / ٢٠٠٢ م .

وحذر من إهدار آدمية المعتقلين فقال :

« ولكن الصحيح أن إهدار آدمية هؤلاء داخل المعتقلات يمكن أن يساعد على إيجاد جيل جديد أكثر خطورة وأشد عنفاً . وهذا ما حدث مع الأسف خلال الفترة الناصرية » .

وشجع الدولة أن تمد يد العون للمبادرة والقائمين عليها فقال :

إن واجبي يلزمني أن أقول إن مسئولية الدولة والمجتمع أن يمدا يد العون إلى هذه المبادرة ، وأن تتعاون كل الأجهزة على نجاحها المؤسسات الحزبية والتنفيذية ، لا أن يأخذ البعض منها موقف المتفرج أو المتشكك ، لأن نجاح المبادرة يعني تأكيد استقرار مصر وأمنها » .

وأكد سلامة موقف وتحركات المفَرَج عنهم فقال :

« وثمة تأكيدات من مسؤولين أمنيين على مستوى عال أنه لم يقع حتى الآن ما يُشير إلى أن أيًا من هؤلاء الذين تم الإفراج عنهم قد نكص عن وعده أو حاول إحياء العمل السّري أو جاهَر برأيٍ يُخَالف مبادرة وقف العنف .

على العكس أصبح شاغل معظمهم أن يروجوا لهذه المبادرة وهذا أمر مشجع على ضرورة إعادة النظر في قضية المعتقلين لأن الإبقاء على هذا العدد الكبير من المعتقلين وراء الأسوار لن يُغَيِّر شيئا خصوصاً أن الجميع يساندون المبادرة » .

وحذر من استمرار غلق باب المعتقلات فقال :

« قد يكون واجباً أن يأخذ الأمن جانب الحذر ، ولكن الحذر لا يعني إغلاق أبواب المعتقلات بالضبة والمفتاح على الموجودين داخلها وقتل الأمل في نفوس المعتقلين الذين ينتظرون فرجاً قريباً .. » .

وشجع على الإفراج المتتابع عن هؤلاء الشباب فقال :

ولست أشك في أن الإفراج المتتابع عن هؤلاء الشباب متى ثبت أنهم قد غيروا فكرهم سوف يعزز فرص نجاح تصفية فكر العنف وهو كسب عظيم يستحق المحاولة حتى ولو كان في الأمر بعض المقامرة .. » .

مجلة المصور

– تحت عنوان « الجماعة الإسلامية ونهاية العنف .. لماذا الآن ؟! »

كتب الأستاذ / ضياء رشوان « مدير تحرير تقرير الحالة الدينية الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام » .

« الجديد في التغطية الإعلامية والسياسية لمبادرة وقف العنف خلال الأسبوعين الأخيرين هو تَضَمُّنهَا موقفاً علنيًا واضحاً من جانب السلطات الرسمية وشبه الرسمية المصرية وعدد من أبرز العناصر الفاعلة في النخبة والإعلام المصريين بصدق المبادرة وجدية ما ترتب عليها من تحول جذري من الجماعة الإسلامية وتوقفها التام عن كل ممارسات العنف .. » .

« ومع أن التغطية الإيجابية وذلك الموقف المساند للمبادرة قد تأخر – حسب تقديرنا – ثلاث سنوات على الأقل . حيث كان واضحاً منذ إطلاقها قبل خمس سنوات أنها تمثل مدخلاً واسعاً لتحول جذري في طبيعة الجماعة الإسلامية من جماعة دينية عنيفة مغلقة إلى جماعة سياسية اجتماعية سليمة ذات برنامج إسلامي .. » .

ويرد على القائلين بأن الدولة تسعى للإفراج عن الجماعة الإسلامية لضرب جماعة الإخوان فيقول :

« والحقيقية أن هناك صعوبات كبيرة تواجه قبول صحة ذلك الدافع في مقدمتها إدراك الدولة خطورة تلك المراهنة في ظل خبرتها التاريخية مع نفس تلك الجماعة الإسلامية منذ منتصف السبعينات وحتى بداية الثمانينيات عندما دعمتها في مختلف الجامعات المصرية لتواجه بها المد اليساري والناصري ثم انقلبت عليها بعد تلك الفترة وأضحت أول وأخطر عناصر تهديد الاستقرار والدولة معاً في مصر خلال الثمانينيات ومعظم التسعينيات كذلك فإن ذلك الطرح لا يصمد أمام حقيقة أن تحول الجماعة الإسلامية يعني خروجها من معسكر حركات العنف الإسلامي إلى معسكر الحركات السياسية الإسلامية الذي توجد جماعة الإخوان في مركزه

منذ قيامها ، وهو ما يجعل التشارك بينهما في كثير من الرؤى والقضايا وبخاصة على المدى المتوسط والبعيد أمرا مرجحاً تدعمه خبرة الإخوان الطويلة بالعمل السياسي والجماهيري على الرغم من استمرار الخلاف بينهما حول قضايا ورؤى أخرى عديدة ولا شك أن خبرة الدولة الأمنية والسياسية يجعلها تدرك بعمق تلك الحقيقة ، الأمر الذي يمنعها من تلك المراهنة » .

ويرد على الموقف الأمريكي المغلوط :

« ونتيجة لهذا الموقف الأمريكي غير المؤسس سوى على انطباعات عامة وبعض المعلومات المغلوطة والمدسوسة ، بدأت حملة إعلامية وأمنية وسياسية أمريكية واسعة للترويج بأن هناك مخاطر جدية من استئناف الجماعة الإسلامية عملياتها العنيفة بداخل مصر وخارجها انطلاقاً من تحالفها المزعوم مع شبكة ابن لادن .. » .

وقال عن التناقض الحاد في التقديرات الأمريكية والمصرية :

« الدولة المصرية قد تأكدت بما يشبه اليقين من صدق وجدية واستقرار تحول تلك الجماعة الكامل والنهائي من طريق العنف الديني إلى طريق العمل السلمي .. » .

وبناء عليه لم يكن من طريق إلا :

« إعطاء المجال واسعاً لأصحاب الشأن أنفسهم لإعلان حقيقة تحولهم وأبعاده على الرأي العام المحلي والعالمي بما في ذلك إدانتهم العلنية الصارمة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر والتي تتهم واشنطن ابن لادن بالقيام بها والذي حظي شخصيا واستراتيجيته الصدامية بمساحة واسعة من نقد وأدانه قيادات الجماعة الإسلامية في حديثهم مع رئيس تحرير المصور »(*) .

جريدة الأهرام

○ ويقول الأستاذ ضياء رشوان في حوار عنوانه « هل هناك محاولة لإحباط الحوار بين الجماعة الإسلامية والحكومة » .

(*) جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٥ / ٧ / ٢٠٠٢ .

« إن موقف الدولة منذ بدء الكلام عن تلك المبادرة هو موقف أمني فقط وما أجرته المصور من حوارات مع قادة الجماعة في السجون إشارة إلى مباركة الحكومة للمبادرة وأن الدولة استوعبت حقيقة موقف الجماعة من إنهاء العنف ومنحت قادة الجماعة التاريخيين فرصة لشرح مفاهيمهم الجديدة .

أما مسألة إعطاء الحكومة ثقتها للجماعة فهذا موضوع أمني ولن يتحقق إلا بعد تأكد الحكومة من توقف العنف تماما »[١] .

ويرى رشوان أن المبادرة ستظل مستمرة لأن الجماعة الإسلامية اعتبرتها تغييرا جذريا في استراتيجيتها .. » .

- ويقول الكاتب / خالد الدخيل :

« من يريد إذن إعادة الأمور إلى وضعها المأساوي الدموي السابق : أمريكا غير المرتاحة للتصالح بين الدول والجماعات في موسم حصاد الإرهابيين بمختلف فرقهم أم الكتاب الذين لا يهتمون سوى بتدبيج المقالات الأسبوعية التي تحذر من التيار الإسلامي بأجنحته ، أم بعض الأسماء التي صنعت منها الصحف قيادات بارزة رغم أنها لم ولن تكون كذلك .. » .

هؤلاء وهؤلاء يعلمون قبل غيرهم أن المناخ قد تغير وأن شجاعة أصحاب كتب المراجعة وموقف الدولة المتفهم والمتعاون سد الطريق أمام محترفي إشعال الحرائق ..[٢]

- ويقول الأستاذ / أحمد المسلماني في مقال له نشر في الأهرام بعنوان : « اليسار ومراجعات الإسلام السياسي » .

○ « .. وجاءت مراجعات الجماعة الإسلامية في وقت نموذجي بالنسبة إلى تلك الجماعة فحالة من الكسل الفكري تخيم على اليمين وحالة من السبات العميق تخيم على اليسار وحالة من الركود تغطي على الجميع .. » .

(١) جريدة الأسبوع الصادرة بتاريخ ٢٩ / ٧ / ٢٠٠٢ .

(٢) جريدة الأسبوع بتاريخ ٢٩ / ٧ / ٢٠٠٢ .

○ « .. وهنا جاءت مبادرات الجماعة الإسلامية بوقف العنف في اللحظة الصواب بالنسبة لها ، وفي اللحظة الخطأ بالنسبة لبلادنا . ولو كان اليسار المصري الذي يملك ما يملك من عتاد وأشخاص قد بدأ هو هذه المراجعات في أوقات سابقة لكان قد كفى نفسه عناء أن يكون هامشيا على متن الجماعة الإسلامية .. » .

○ « والمراجعات الفكرية الكبرى هي أمر بالغ الصعوبة وحين حاول جوربا تشوف المراجعة انهارت الفكرة والدولة معاً ولكن الجماعة الإسلامية تجرعت السم وفعلتها .

فعلتها الجماعة قبل انهيار حركة الإسلام السياسي العالمية في الحادي عشر من سبتمبر . ولم يفعلها اليسار المصري بعد انهيار الاشتراكية بسنوات ..

○ « ولقد كان الأولى بحزب التجمع وصحيفة الأهالي أن يبادرا إلى عمل مراجعات كبرى في فكر وممارسات اليسار في مصر بدلاً من مجرد التعلق بخبر هنا ورأي هناك » .

○ « ولو كانت المناوشات التي يقوم بها اليسار حالياً إزاء مبادرة الجماعة الإسلامية بوقف العنف هي جزء من إطار واسع ورؤية شاملة لحالة المعرفة والثقافة أو لواقع السياسة والاقتصاد أو لطبيعة المجتمع والسلطة لكان أمرا محمودا ، ولكان لهذه المناوشات دورها في حرب مشروعة بين الأفكار وصراع رفيع بين المذاهب » .

○ « ويأتي هذا الحديث في مناسبة إبداء الجماعة الإسلامية في مصر تقدما كبيرا في تأكيد مبادرتها لوقف العنف وفي صياغة إطار فكري متميز بات يمثل أحد أفضل المراجعات النظرية في الفكر العربي الحديث .. » .

○ « هل تؤدي حركة التجديد في فكر الجماعة الإسلامية إلى زيادة كبيرة في معدل النمو على نحو ما حدث للإخوان في مرحلة ما بعد العنف فتكون لها

الغلبة أو يكون الشارع السياسي رهناً لصراع جماعات الإسلام السياسي وحدها إخواناً وجماعات في ظل حالة الجفاف السائدة في مصر ؟!
وفي عبارة أخيرة .. هل تكسب الجماعة الإسلامية بالسياسة ما لم تكسبه بالقتال ؟ » .

○ « وقد فاجأت الجماعة الإسلامية بما أصدرت من دراسات أربع في سلسلة تصحيح المفاهيم كل الأوساط بأنها فعلت كل ذلك ويزيد .

وجاءت دراسات وتصحيحات الجماعة الإسلامية حاسمة ونهائية ولا تحتمل التأويل أو التبديل أو سوء الفهم وقد جاء ذلك كله على نحو يثير الدهشة

○ « إن الجماعة بفكرها الجديد فَعَلَت ما لم تجرؤ عليه بعض حكومات الدول الإسلامية فقد انتقدت أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة ، وأعلنت استعدادها للاعتذار وتقديم تعويضات لمن أضيروا منها ، وهو موقف قاطع وحاسم ومن غير « لكن » المعوقة لما قبلها . والجماعة بمراجعاتها تلك تقترب من حالة جماعات ما قبل الإسلام السياسي ، وهي الحالة التي كان عليها حسن البنا بضع سنين ، وعليها الآن جماعات التبليغ والدعوة ، إنها العودة من الإسلام السياسي إلى الإسلام العبادي أو من السلطة إلى المجتمع » [1].

الدكتور عبد الصبور شاهين

يتحدث عن رأيه في المبادرة وتاريخه مع حل الأزمة والوساطة قبلها فيقول :

« .. ولم تتم الوساطة لأسباب تتعلق بالدولة ، وخيم الصمت تماماً على هذه الفكرة حتى تم الإعلان عنها عام ١٩٩٧ في شكل بيان ألقاه أحد المتهمين في إحدى جلسات محاكمته والآن تجري حوارات ومناقشات بين الجماعة والدولة ويبدو أنها ستصل إلى نتائج إيجابية لاسيما أن الفترة الماضية كانت كافية لتربية الجماعة الذين اكتشفوا أنهم وصلوا إلى طريق مسدود ، ورغم أن الدولة تبدأ الآن

(١) جريدة الأهرام الصادرة يوم ٢١ / ١٠ / ٢٠٠٢ .

من نفس النقطة التي بدأت منها عام ١٩٩٧ ، ورغم أنني لم أناقش سبب عودة المفاوضات مرة أخرى في هذا التوقيت ، لكنني أرى ضرورة أن تستوعب الدولة هؤلاء بشكل مدروس ، وأعتقد أنه لابد من الإفراج الشامل عن كل المعتقلين خاصة إذا كانت الدولة حسنة النية في هذه المبادرة ، وهذا سيكون بمثابة إرادة سياسية عليا للدولة لإعادة ترميم وبناء الجبهة الداخلية »[1] .

الأستاذ فهمي هويدي « الكاتب والمفكر الإسلامي المعروف »

يتحدث عن تجربته الخاصة في وساطة ١٩٩٣ ، وعن المبادرة الحالية فيقول :

« .. ورغم أن أهداف الوساطة انصبت حول وقف العنف وتجنيب البلاد شروره وعدم الإساءة إلى صورة الإسلام والتأكيد على أهمية الالتزام بالقانون والدستور واحترام السلطة لكن شكوكاً في أطراف معينة سارعت إلى محاولة إفشال هذا المسعى بمختلف السبل وهي :

- دوائر التطرف العلماني ومحترفو اليسار الذين ارتفعت أسهمهم في أجواء الاشتباك بين السلطة والإسلاميين ، لذلك فإنهم عمدوا إلى تأجيج ذلك الاشتباك وتعميقه ، ومن ثم فقد أصبحت لهم مصلحة حقيقية في استمرار الوضع الذي يستمدون منه حضورا ودورا وشرعية ، ومن ثم فإن فض الاشتباك يهدد ذلك كله .
- أصحاب المواقع الوظيفية الذين يهمهم إنقاذ الكراسي قبل إنقاذ الوطن وقد يتصورون أنهم وحدهم بِحُكم مناصبهم الذين لهم حق الحديث في الموضوع وبمنطق « فيها أو أخفيها » فإن الوساطة إذا لم تتم من خلالهم فينبغي أن توقف أو تفشل .

---

(١) مختصرا عن الأهرام العربي الصادر بتاريخ السبت ٢٥ ربيع ثان ١٤٢٣ هـ - ٦ يوليو ٢٠٠٢ م [ص ١٥ ، ١٦] .

○ الجهات الأجنبية التي يهمها استمرار حالة عدم الاستقرار في مصر سواء لاستنزاف الوطن أم إضعافه أم لصرف الانتباه عن ممارسات ومخططات تلك الجهات .

وفضلاً عن هذه المحاولات فقد لعبت وسائل الإعلام دورا كبيرا حال دون إتمام الوساطة . كما نسجت بعض الصحف قصصاً وحكايات فحواها أن الوساطة فشلت بسبب شروط الجماعة على الرغم من أن اللجنة قبل أن تشرع في الوساطة كانت تعرف مطالب الجماعة من خلال رسالة بعث بها « صفوت عبد الغني » أحد أفرادها وتدور بالدرجة الأولى في إطار وقف تجاوزات الشرطة في حقهم وحق عائلاتهم والإفراج عن الذين برأتهم المحاكم والأجهزة الأمنية واستخدمت أساليب عدة لتحديد احتجازهم لآجال طويلة وهي نفس مطالب المنظمة العربية لحقوق الإنسان ، الأمر الذي يعني أن موضوع الوساطة كان في جوهره منصبا على الدفاع عن سيادة القانون وحقوق الإنسان . والدولة اعتبرت الوساطة ليًا لذراعها لكن عندما أرادت إتمام مفاوضات مثل المبادرة الحالية تبنتها وسائل الإعلام وحرصت الأجهزة على نجاحها ، وهذه فكرة مهمة جدًا . لكن السؤال هنا ماذا تفعل الدولة مع الجماعة ؟ وما الصيغ التي تحملها الدولة للتعامل معهم بشكل سلمي ؟ ما يحدث الآن بمثابة نصف الطريق المنتظر الوصول إليه ، لكن النصف الآخر متعلق بالإجابة على هذين السؤالين ، فإذا أغلقت الدولة باب العنف فيجب عليها فتح باب اللاعنف حتى لا يظهر جيل آخر يتمرد على المبادرة ويتساءل : ماذا فعل بالمبادرة ؟ .. خاصة أن الدولة تريد أن تأخذ فقط »(*) .

الأستاذ جمال سلطان « المشرف العام على مجلة المنار الجديد »

يتكلم عن رأيه في المبادرة وما يتعلق بها ، تحت عنوان :

(*) مختصراً عن الأهرام العربي ـ الصادر بتاريخ السبت ٢٥ ربيع ثان ١٤٢٣ هـ - ٦ يوليو ٢٠٠٢ م [ص ١٥] .

« مراجعات الجماعة الإسلامية ومراجعات الآخرين المنتظرة » فيقول :

« الحقيقة أن الكتب الأربعة يكون من الظلم قصرها على مجرد تأسيس شرعي للمبادرة . لأنها تجاوزت المبادرة إلى التأسيس لمرحلة جديدة في الخطاب الإسلامي الحركي والدعوي يعود بالدعوة الإسلامية إلى موقعها الصحيح في قلب المصالح القومية العليا للأمة ، كدرع لها في تحديات الواقع والمستقبل ، وصمام أمان لأمنها القومي بدلاً من الانزلاق إلى دوامات الصراع الثأري مع السلطة بما تهدره من مصالح قومية وبما تشكله من تهديد جدي للأمن القومي المصري في مرحلة شديدة الحرج .

الكتب الأربعة وإن كانت صدرت من قادة مازالوا في السجون بما يعطي شبهة وجود ضغوط مباشرة أو غير مباشرة على من قدموها إلا أن المتأمل في صياغتها وأسلوبها والتوازن النفسي والعلمي والإنساني الذي امتازت به يقطع بأن مثل هذه الضغوط لم تكن مؤثرة « جديًّا » في هذا التحول الجديد ، هذا فضلاً عن أن القادة الذين كتبوها أمضوا بالفعل مدة سجنهم بالكامل ، ولا يتصور أن يقدموا تنازلات جوهرية وحاسمة في هذا الوقت المتأخر بدون قناعة إنسانية وشرعية وأخلاقية » .

ويضيف قائلاً : « والذي لا شك فيه أن الكتب وما حوته مثلت موقفاً شجاعاً ومسؤولاً من قادة الجماعة الإسلامية رغم مرارة التجربة وأعبائها النفسية وتعريض أنفسهم لنهش المتربصين من داخل الصف ومن خارجه ، وهذه أبرز إيجابياتها ، كما أنها احتفظت بالدور المستقبلي للجماعة الإسلامية كحركة دعويه سلمية تشارك في التأسيس لنهضة مجتمعها العربي المسلم في مصر وهذه إيجابية أخرى .

كما يأتي الإبراز الكبير لحسابات المصالح والمفاسد في منطلقات التصويب المنهجي كأحد أهم الإيجابيات ؛ لأن وعي هذه المسألة سيكون حاكماً لمسيرة الحركة المستقبلية ، كما أن الوعي بهذه المسألة واستيعابها هو دليل الحكمة والتعافي النفسي لأية حركة دعوية أو سياسية ، وبرهان على تجاوزها مراحل المراهقة الفكرية

التي تتجاهل الواقع وحساباته وموازناته الدقيقة وتتأسس على الاندفاع الحماسي بغير إدراك لحسابات المصالح والمفاسد ، ويأتي أخيرا التنبيه المتكرر في الكتب على مراعاة « المصالح القومية » لمصر بلورة لهذا الوعي وإعلاناً عن دخول الحركة الإسلامية - في طورها الجديد - إلى صميم مشروع النهضة المستقبلية في مصر كحركة للنهوض وحركة للتحرر الوطني كذلك » .

ويتحدث عن مسؤولية الدولة تجاه المبادرة فيقول : « إن مراجعات الجماعة التي امتازت بالشجاعة في مواجهة النفس وأبناء الحركة والمجتمع لا يمكن أن تكتمل ويكتب لها النجاح إلا بظهور مراجعات أخرى من قبل النظام السياسي تملك قدرا من الشجاعة للاعتراف بأخطاء وقعت في هذه المحنة التي شهدتها مصر » .

يشرح رأيه في عودة الجماعة الإسلامية إلى رسالتها الأساسية وهي هداية الخلائق فيقول : « مراجعات الجماعة يستشف منها نزوع إلى العودة بالحركة إلى « مهدها الفكري الأول » كحركة دعوية .

ثم يهاجم بعض اليساريين الذين رفضوا المبادرة بقوله : « أما على الجانب العلماني واليساري خاصة فإن مقتضى « المصلحة القومية » لمصر توجب العمل على عزل هذه الرموز اليسارية المتطرفة والفاسدة التي تتاجر بكل شيء ممكن على حساب أمن مصر القومي ومصالحها ابتداء من استعداء الأقباط على مصر وشعبها وانتهاء باستعداء النظام السياسي وأجهزته الأمنية على الشباب الإسلامي ، وتعمد « الدس » وإشعال لهيب الفتن بين الطرفين لاستمرار العنف والتشنج والإحباط لأن هؤلاء المتطرفون لا يعيشون إلا في هذه « الخرائب » . وأما عندما تستعيد الأمة وعيها ورشدها ويسود الأمن والأمان فإن هذه الرموز الفاسدة والمتطرفة لا وجود لها ولا قيمة ، إنهم أشبه بحفاري القبور ، عيدهم يوم يكثر الموتى ، وأنا على ثقة من أن القطاع الأوسع من اليسار المصري يمقت انتهازية هذه الرموز ويعرف نواياها ، ولكنها في النهاية الأكثر احتكارا لقنوات حزبية وإعلامية تعطيها أكبر من حجمها » .

ثم يختتم رأيه بقوله : « وفي الختام من الضروري والواجب عليها الترحيب والإشادة بالموقف الرشيد والعقلاني الذي تعامل به الجهاز الأمني مع التطورات داخل الجماعة الإسلامية ..

وبوجه خاص الظروف التي أحاطت صدور الكتب الأربعة وتصريحات القيادات الأمنية التي تميزت بالوعي الكبير لحساسيات الأمر ، كما اتصفت بالاتزان والبعد عن الإهانة الدعائية التي كانت علامة على جهود سابقة انتهت إلى إفسادها وإبطال قيمتها ، ولا شك في أن هذا الموقف الإيجابي سيكون مشجعاً لقطاعات من الحركة الإسلامية على فتح كل الملفات القديمة لإعادة تقويم المسيرة وتصحيحها وإذا كانت الجماعة قد أكدت أن مبادرتها ليست مقايضة أو مبنية على مطالب وشروط وهذا صحيح تماماً إلا أن هذا الموقف الأخلاقي يستدعي مواقف إيجابية عاجلة من الجانب الآخر يكون في مقدمتها الإفراج الفوري عن القيادات التي أمضت مدة عقوبتها كاملة إذ لا مبرر - قانونياً على الأقل - لاستمرار حبسهم بعدما أمضوا أقصى فترة عقوبة في القانون المصري « المؤبد » ولا شك في أن إطلاق سراح هذه القيادات سيضفي أجواءً من الشعور بالأمل والتفاؤل في أوساط الشباب الإسلامي ، وسيفرغ طاقات الاحتقان ويهدئ الخواطر القلقة وكذلك لابد من تسريع وتيرة تصفية مواقف آلاف المعتقلين الذين امتلأت بهم السجون الآن ؛ لأن بقاءهم وقد قضى بعضهم أكثر من عشر سنوات بدون محاكمة هو عبء قانوني وأخلاقي وسياسي لا يمكن استمراره كما أن تحريك مواقفهم سيشجع الفارين ومن هم خارج البلاد في التفكير في تصفية مواقفهم القانونية والأمنية »[1].

الأستاذ محمود مهدي[2] « مدير الصفحة الدينية بالأهرام »

تحت عنوان « الجماعة الإسلامية والرجوع إلى الحق » .. قال :

(١) اختصاراً عن المنار الجديد العدد رقم ١٨ - أبريل ٢٠٠٢ م .

(٢) في عمود القدوة الحسنة بجريدة الأهرام بتاريخ ٧ يوليو ٢٠٠٢ .

« وإن هذا الرجوع الحميد إلى الحق سيضع إن شاء اللَّه نهاية لحالات العنف في القتل والتطرف في الفهم التي روعت المجتمع فترة من الزمن وقتلت أنفساً بغير ذنب هو رجوع أسعد الملايين الغيورين على دينهم والحريصين على إظهار حقيقته .. إنه دين محبة وسلام ، كما أخبر بذلك نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام في قوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »(١) .. وأسعد كذلك كل المصريين الذين أراد اللَّه سبحانه وتعالى لمصرهم أن تكون دار أمن وأمان لأهلها ولكل القادمين إليها .. وحديثنا اليوم عن هذا الرجوع الحميد إلى الحق من جانب الجماعة الإسلامية واعتقادنا كبير بأنه رجوع صادق وحقيقي .. هو حديث تحية للراجعين إلى الحق فقد دخلوا دائرة الإيمان الواردة في القول المأثور « المؤمن رجاع » أي أنه كثير الرجوع إلى الحق كلما تبين له .. وهو أيضًا حديث تحية للأستاذ / مكرم محمد أحمد الذي أبرز هذا الرجوع بالنشر في مجلة المصور التي يرأس تحريرها .

وتحية كذلك للذي شجع ووافق على إتمام هذه الخطوة المباركة التي أقدم عليها أشخاص هم من قبل ومن بعد أبناء مصرنا العزيزة وأمتنا الإسلامية الغالية » .

- ويضيف كذلك الأستاذ / محمود مهدي .. تحت نفس العنوان(*) :

« لا ريب أن كل غيور على دينه محب لوطنه قد سعده رجوع الجماعة الإسلامية إلى الحق من خلال إعلان مبادرتها بوقف العنف وتصحيح المفاهيم التي اعتنقتها عن طريق الخطأ ، فلما تبين لها الصواب وظهر لها الحق رجعت إليه ..

وهو رجوع حميد نسأل اللَّه تعالى أن يثبت أقدامها عليه ويرزق أعضاءها القبول والمؤازرة والتشجيع من كل ذي شأن .. لقد حلت الجماعة جناحها العسكري كما أعلن ذلك رئيسها كرم زهدي ، وأضاف في حواره مع الأستاذ مكرم المنشور في مجلة المصور « إن مبادرة وقف العنف مبادرة استراتيجية وصلح دائم وليست

(١) رواه البخاري [١٠] ، ومسلم [٤٠ / ٦٤] ، والترمذي [٢٥٠٤] ، والنسائي في المجتبى [٤٩٩٦] ، وأبو داود [٣٤٨١] عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّه تعالى عنهما .

(*) في عمود القدوة الحسنة بجريدة الأهرام بتاريخ ٨ يوليو ٢٠٠٢ .

صلحاً مؤقتاً مع الدولة » .

إن حسن الظن بالجماعة الإسلامية وتشجيعها على هذه المبادرة وقبولها من جانب الدولة قبولاً حسناً .. سيعود على الدين والوطن بالخير والاستقرار والأمان .. » .

ذكر الدكتور / عصام العريان(*)

في حواره مع مجلة الوطن : ردًّا على سؤال المحاور :

عمليًّا ممكن أن تقوم الجماعة الإسلامية بهذا الدور ، وهل تستطيع أن تنفي أن هناك من يخطط لهذا من وراء الكواليس ؟

قال : « أولاً يجب أن نرحب كمسلمين ومصريين ومهتمين بشؤون هذا البلد بأي محاولة لوقف العنف وأي محاولة لوقف ملف الاعتقال السياسي وأي محاولة لتفريغ السجون من المعتقلين والمحبوسين سياسيًّا ، وأي محاولة لمراجعة العنف والإقلاع عنه .. كل هذا محل إجماع وتقدير كل محب لهذا البلد .. وبعد ذلك فليسمح لهم بالنشاط ، فالمجتمع في حاجة لأي جهد وأي إضافة .. » .

○ ○ ○

(*) مجلة الوطن بتاريخ ١٨ يوليو ٢٠٠٢ .

الباب الثاني

تساؤلات حول المبادرة

أسئلة حرجة .. وأجوبة صريحة

لم تكن ندواتنا ولقاءاتنا التي التقينا فيها بأبناء الجماعة الإسلامية في السجون – كما ظن البعض وروج – مجرد إملاءات لوجهات نظر اقتنعنا بها . ولم يكن إخواننا كما – ظن البعض وروج – مجرد عرائس أو دمي طيعة بأيدينا نحركها على مسرح الأحداث كيف نشاء ووقتما نشاء .

كان الأمر – في جملته – بعيدا كل البعد عن هذه التصورات .. وكم أسعد قلوبنا وأذهب عنها الحزن أن وجدنا إخواننا حريصين كل الحرص على اتباع الحق وتحريه والتمسك به متى ظفروا به .. لذا أنصتوا إلينا ، واستمعوا إلى كل كلماتنا ثم جاءت أسئلتهم واستفساراتهم لتقوي هذا الشعور الذي انطبع في نفوسنا من الوهلة الأولى .. كانت الأسئلة الموجهة إلينا قوية في مضمونها .. دقيقة في تفاصيلها .. محرجة في بعض الأحيان .. ومع كل هذا لم نشعر بالضيق في وقت من الأوقات .. بل اعتبرنا هذه المناقشات – رغم كل ما فيها – علامة صحية على تفاعل إخواننا مع المبادرة .. فعن طريق هذه المناقشات نستطيع أن نستخرج ما يجيش في صدور إخواننا ويعتمل في نفوسهم تجاه المبادرة .. وأن نضع لهم النقاط على الحروف فيما يلتبس عليهم فهمه في طرحنا الجديد الذي طرحناه عليهم .. وأن نزيل الإشكال الذي قد يعتري الأفهام .. والنفس البشرية إذا تجردت لله تعالى فإنها تسعى إلى نيل مرضاته ، لذا تحاول جهدها أن تصحح سيرها إلى الله تعالى ، لذا فهي مطالبة بالتوقف بين الحين والآخر لتقويم الذات واستبصار مواقع الخطأ .. لهذا كله وجدنا إخواننا – ولا نزكي على الله أحدا – قلوبا تريد الهدى وتبغي الصلاح ، والغاية المنشودة هي رضا الله تعالى .. وكان هذا التفاعل الخلاق مع مبادرتنا الذي يدل على فهم واستيعاب لمراميها وليس مجرد تقليد أعمى كما أراد البعض أن يصور .

وفي هذا الباب - أخي القارئ - سأحاول أن أضع بين يديك نموذجا لهذه الأسئلة التي طرحت علينا .. ولم ننس أن نشفع هذه الأسئلة بإجاباتها التي رددنا بها عليها .. كانت الأسئلة شاملة لموضوعات شتى ، فقد سألنا إخواننا عن المبادرة وطبيعتها ، وهل تعتبر كتب المبادرة إلغاء لما سبق وسطرناه في السنوات السابقة ؟ ولماذا طرحنا قضية حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين رغم أن الجماعة معروفة أنها بعيدة تمام البعد عن لوثة التكفير ، وأنها كانت من المحاربين بشدة لفكر التكفير المنحرف ؟ وما هو الفرق بين دار الإسلام ودار الكفر ؟ وهل بالفعل تم حل الجناح العسكري ؟ وإذا كانت الجماعة قد تخلت عن العنف ، فما الذي يميزها عن بقية التيارات الإسلامية الأخرى ؟ الخ .. أسئلة كثيرة واستفسارات متنوعة قوبلنا بها ، ورأينا أن نسطر أهمها ليعلم القارئ الكريم أن رحلاتنا في سجون مصر لم تكن مجرد نزهة .. ولعل هذه الأسئلة تدور في أذهان الكثيرين خارج السجون .. ولعلهم بعد قراءة هذا الباب يجدون إجابات شافية وافية لها .. ولن أطيل عليك - أخي الكريم - فإني أعلم أن في الأذهان الكثير .. والكثير من الأسئلة والاستفسارات .

السؤال الأول : تكلمتم عن المبادرة باعتبارها مراجعة لمسيرة الجماعة في المرحلة السابقة ، ومحاولة لضبط مسيرة الركب على الهدى القويم . وتحدثتم عن عوائق هذه المراجعة ، وأهمية معرفتها للتغلب عليها لتحقيق نتيجة مثمرة لهذه المراجعة . بقي السؤال .. ما هي شروط هذه المراجعة لكي تكون مثمرة ؟ وما هو الفارق بين المراجعة وبين التراجع ؟

لكي تكون هذه المراجعة مثمرة تأتي بنتائجها المرجوة على مختلف الأصعدة ينبغي أن تتوفر فيها شروط كثيرة أهمها :

أولا : التجرد بمعنى أن يكون القصد إليها خالصا لوجه الله تعالى ولا تتسرب إليه الأهواء ولا يعدل به عن قصده ، بمعنى أنه لا ينبغي أن تكون مراعاة لأحد ولا

استرضاء له ، أو أن تكون تقليدا للغير بغض النظر عن صوابه وخطئه ، أو تكون مجرد وسيلة لدفع الأذى أو للتخلص من مأزق أو اتقاء لخطر مع تجاهل للتوجيه الشرعي فيها ، أو أن تشوبها المظهرية أو الشكلية مع خلوها من المضمون الشرعي السديد ، أو أن تكون نفاقا للمجتمع أو للآخرين فيظهر أمام الناس ما يخالف الباطن . وإنما ينبغي أن تكون المراجعة صادقة واضحة شفافة تستهدف هدفا واحدا أصيلا هو إرضاء الله عز وجل والوقوف عند أمره ونهيه وإن أغضب ذلك الآخرين وإن أدى إلى الاصطدام بما ألفوه من أعمال أو اعتادوه من مواقف لسنين طويلة .

ثانيا : ينبغي أن توافق هذه المراجعة الشرع العظيم فالعمل لا يكون مقبولا عند الله إلا بنية صالحة وموافقة كاملة للشرع ، وكل عمل ليس عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم فهو رد على صاحبه[1] ، فلا ينبغي أن نقدم عقولنا على الشرع ، ولا يجوز أن نقدم أذواقنا عليه ولا نقدم أهواءنا كما يفعل العصاة والمبتدعون ، ولا نقدم عادات أو تقاليد أو ما ألفه الناس على الشرع ، بل نقدم أمر الله ورسوله وحدهما متجاهلين كل إغراء أو ضغوط لترك هذا الأمر.

ثالثا : أن يكون المراجعون مؤمنين بقضيتهم وبأهميتها ، حريصين أن تؤدى على خير وجه لتحقيق ثمارها المرجوة ، وأن يكونوا مؤهلين لأداء هذا العمل أهلية علمية وواقعية ، وأن يكون لديهم القدرة على ذلك .

رابعا : أن يكون هدف هذه المراجعة التصحيح لا التدمير ، فلا ينبغي أن تأخذنا حمية المراجعة والرغبة في إسقاط ما كان من تجاوزات فنهدر تبعا لذلك ما كان صحيحا موافقا للشرع وندمر ما كان من أعمال صالحة بدعوى المراجعة . بل الصواب أن نصوب ما كان صوابا ونسعى في دعمه وتطويره ونصحح ما كان من خطأ لنبني على أسس سليمة بنيانا راسخا قائما على أرضية صلبة من الهدي النبوي

(١) روى البخاري [٢٦٩٧] ، ومسلم [١٧١٨ / ١٨] ، وأبو داود [٤٦٠٦] ، وابن ماجة [١٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

السديد . فالمراجعة ليست تدميرا لما سبق بخطئه وصوابه ولا إجهازا على كل ما فيه من خير أو شر ، وإنما هي تصويب للمسيرة وتقويم للأعمال بما يحميها من استمرار الخلل فيها .

خامسا : من أهم مواصفات المراجعة المثمرة ألا تكون مراجعة تبرير للخطأ .. فكثيرا ما يضعف المراجعون عن مواجهة أخطائهم والاعتراف بها فيلجأون إلى تبرير ذلك ، وهذا عكس سابقه . والتجرد يساعد على النظرة المحايدة الصادقة التي لا تهدم الصواب ولا تبرر الخطأ . فتحمي الصواب أن تأخذه حمى المراجعة فتهدره وتسقط مشروعيته ، وتحمي الخطأ أن تضفي عليه قدسية ليست له فتبرره تحت دعوى حماية الثوابت وعدم التفريط والتراجع .

سادسا : الاستمرارية ، بمعنى ألا تكون المراجعة صحوة مفاجئة لعارض من العوارض التي تلم ، ثم تزول بزوال ذلك العارض . بل ينبغي أن تكون المراجعة كمنهج هي جزء أصيل من عملنا لمراقبة الأعمال ومشروعيتها ، وأن يكون التصويب والتصحيح لا يتأثر بتغير الأحوال أو بمرور الوقت . فالمراجعة ينبغي أن تكون متكررة لضبط المسير . ونتاج هذه المراجعة ينبغي ألا يزول بزوال المؤثرات المنتجة لها بحيث يتحقق الحفاظ على مكتسبات هذه المراجعة وإزالة ما من شأنه أن يعطلها أو يعطل تلك المكتسبات فلا ينبغي أن نعطي الفرصة للحماس المصاحب لها أن يزول ولجذوته أن تخبو .

أما التراجع فهو انسحاب غير منظم وغير قائم على أصول أو قواعد أو أدلة . لا يحمل تصويبا للصواب ولا تصحيحا للمسار ، بل يهدم الصواب والخطأ ، ويلغي المسار صحيحا كان أم غير ذلك يحمل في طياته الانهيار وإلغاء ما كان ، ومصادرة ما هو آت .

أعاذنا الله وإياكم من الخذلان .

السؤال الثاني : هل تفهم من مبادرة وقف العنف أنكم عطلتم الجهاد ،

وتركتم اعتباره فرضا من فرائض الدين ؟

بداية لا يستطيع مسلم أن ينكر فرضية الجهاد وإلا كان منكرا لمعلوم من الدين بالضرورة .. فالشارع الحكيم أوجبه على عموم المسلمين كفرض كفاية لدفع العادية على الدين وعلى البلاد .. ونصوص الكتاب والسنة في ذلك أكثر من أن تحصي ، نسوق منها :

قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .. وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .. وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦] وغيرها .

وفي السنة : « الجهاد ماض إلى يوم القيامة »[١] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله »[٢] وغير ذلك كثير ..

ولكنه كأي فرض من فرائض الدين لابد من تحقق مشروعيته حتى يكون واجب الأداء ، بمعنى لابد من توافر شروطه وأسبابه وانتفاء موانعه ومراعاة مقاصد الشرع واستيفاء لمشروعيته يستلزم أمورا عدة أهمها :

١ - الشرعية : بمعنى التحقق من موافقته للشرع ، فالأمر هنا عظيم وهو إراقة الدماء واستحلال الأموال ، ويزداد الأمر خطورة أننا في مجتمع من المسلمين الذين عصم الله دماءهم وجعل حرمتهم أعظم وأشد من حرمة الكعبة - كما يذكر

(١) روى أبو داود [٢٥٣٢] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من أصل الإيمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله ولا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ أن بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار . وقال الألباني : ضعيف . وروى موقوفا عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ولا بأس برواته إلا أن مكحولا لم يسمع من أبي هريرة . قاله الحافظ في الفتح .

(٢) رواه البخاري [٢٥] ، ومسلم [٢٢ / ٣٦] .

الحديث الشريف – لذلك فإن التحقق من أن الدماء المراقة هدر شرط أساسي في تلك المشروعية ، وينبغي أن تكون قطعية لا شبهة فيها ، وأنه لا يوجد أي مانع شرعي من الموانع التي أشرنا إليها من قبل يمنع القتال .. ثم ومن المشروعية أيضا عدم الإضرار بما للأمة من مصالح عليا ، وخاصة تلك التي تمس حاجات الناس وأقواتها وأرزاقها ومرافقها الحيوية ، فهذا إلى جانب حرمته شرعا باعتبار تلك الأموال والمرافق من أموال المسلمين المعصومة ، وإن المضيع المباشر لها والمتسبب أيضا وإن لم يباشر إنما يقع في محارم اللّه ، فإنها أيضا تثير المجتمع وتستعديه وتفقده الثقة في الدعوة والدعاة .. ولا يخفى ما كان من الأحداث السابقة من خلل في تلك المشروعية سواء على صعيد الضبط الشرعي والذي كثيرا ما افتقده المشاركون في هذه الأحداث ، أو على صعيد الاستهانة بالدماء والأموال المعصومة والمرافق التي تمس حاجات الناس ولا يخفي أيضا أثر تلك الأحداث في استعداء المجتمع علي الإسلام والمسلمين أولا وعلى دعوتهم ودعاتهم .

٢– صدق النية : فلا يجوز للمسلم أن يتحرك لأي عمل يبتغي به الثواب إلا بنية صادقة وقصد يبتغي به وجه اللّه تعالى وإعلاء أمره . وأما دخول دعاوي العصبية والقبلية والثأر الشخصي والجماعي وصور الحمية الجاهلية المختلفة إلى قصد العاملين ، أو مثلا الرغبة في مجاراة الآخرين أو التحرك لنفي أقوال المشككين أو غير ذلك من الأسباب الدنيوية لا شك أنه محبط للعمل ومفسد له ومضيع لثوابه ، بل وقد يكون معصية في ذاته مجلبة لسخط اللّه من حيث أراد صاحبه أن ينال الثواب .

٣– غلبة المصلحة : وذلك أن الجهاد ليس غاية في ذاته ، وإنما شرعه اللّه لتحقيق غاية عليا هي حماية بيضة الإسلام وبلاد المسلمين وإعلاء راية التوحيد ، وهي مصالح عليا تغياها الشارع الحكيم في أمره بالجهاد .. فإذا ذهبت هذه المصالح أو كان قصد الإنسان غير هذه المقاصد ، أو كان هناك من المفاسد المترتبة على هذا الجهاد ما يربو على هذه المصالح ، فإن الجهاد هنا لا يكون مشروعا .

وهذه المصالح لها عناصر متعددة ، منها المصالح الدينية العامة من إقامة الدين ونشر دعوته ومنها حماية المسلمين ونسائهم وذراريهم وضعفائهم حتى لا يكونوا عرضة للتنكيل والفتنة في الدين ، فإن المفاسد الناتجة عن تجاهل هذه الحماية قد تربو على كثير من المصالح التي قد تقصد ، ومنها توقع القبول العام من الأمة وتجييشها ضد العدو المشترك واشتراكهم في حماية دينهم وبلادهم ، ومنها اختيار الزمان والمكان المناسبين للمعركة ، وغير ذلك من العناصر التي ينبغي ألا يعدو على تقديرها إلا أهل الخبرة والدراية من القائمين على أمر المسلمين ولا تترك هكذا في أيدي البعض ممن لا يحسنون تقدير الأمور ، فهي مسألة خطيرة تراق فيها الدماء ، ولذا ينبغي أن توضع في يد أولياء المسلمين ممن يجمعون بين المعرفة بمقاصد الشريعة والإدراك الجيد للواقع دون رعونة أو اندفاع غير محسوب .. ولا ينبغي أن يتجاهل العاملون للدين الأخذ بالأسباب الواقعية الملائمة إلى جانب الأسباب الشرعية اعتمادا على معجزات سماوية ، فإن هذا ليس من التوكل وإنما هو من التأويل الفاسد للنصوص ولا يخفى كيف منع الشارع الحكيم ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من قتال أهل مكة - المقطوع بكفرهم وصدهم عن سبيل الله - رغم أنه أولى الناس بأن ينصر بالمعجزات ولكن ليترسخ هذا المعنى الهام في نفوس المؤمنين ، فتقدير توازن القوى والقدرة شيء هام في اتخاذ مثل هذا القرار .

٤- ينبغي ألا يوكل النفير العام على أعداء أمة الإسلام ودينهم إلا إلى إجماع الأمة من قادتها وأهل الحل والعقد فيها ، ولا يكون ذلك للآحاد والأفراد أو حتى للجماعات التي لا ينتمي إليها إلا بعض الأمة قلوا أو كثروا .. إذ أن المضار التي ستنتج عن هذا النفير ستقع بعموم المسلمين . والحسبة ممنوعة إذا كان سيترتب عليها الإضرار بالمسلمين ، والجهاد نوع من الحسبة .. لذا ينبغي أن يكون لممثلي عموم المسلمين والمقدمين والمطاعين فيهم دورهم في هذا الأمر .

والخلاصة .. أن الجهاد فرض يلزم أداؤه على من تعين عليه ، ولا يستطيع أحد

أن يسقط وجوبه ، ولكن لابد أن تتوافر لهذا الجهاد المشروعية التي تحقق الغاية منه وهي إرضاء الله وتحصيل الثواب .. ولا تكون هذه المشروعية - بعد النية الصحيحة - إلا بتوافر شروطه ودواعيه وانتفاء موانعه التي أشرنا إليها .. فليس كل من يحمل السلاح ويقتل أو يقاتل يكون فعله جهادا يثاب عليه ، ولكن الجهاد الذي هو مناط بالثواب هو الذي يوافق مراد الله تعالى من فرضه وإلا سقطت مشروعيته وذهب ثوابه .

○ ○ ○

السؤال الثالث : لقد أثار حادث الأقصر كثيرا من التداعيات على مختلف الأصعدة سواء داخل الجماعة أو خارجها وكان لموقفكم الرافض بحسم لهذه الحادثة أثره في تداعي مقاومة الرافضين للمبادرة واحدا تلو الآخر حتى استجابوا جميعا لنداءاتكم المتكررة .. بقي أن أسمع تفصيلا ، لماذا رفضتم هذا الحادث ؟ وما هو موقفكم الشرعي والواقعي منه ؟

نعم ، لا شك أن حادثة الأقصر كانت نقطة فاصلة في تاريخ الجماعة وتعديل موقفها فقد كان للصدى المدوي الذي أحدثه هذا الحادث أثرٌ كبيرٌ في توقف كثير من أبناء الجماعة - الذين عارضوا المبادرة في بدايتها - أمام أنفسهم ومراجعة ما سبق ثم كان أن أدركوا خطأ هذا المنحى الذي كانت تسير فيه الجماعة وسرعان ما بادروا إلى التراجع عن موقفهم المعارض واحدا وراء الآخر حتى انتهت هذه المعارضة - بفضل الله - إلى غير رجعة من جميع أبناء الجماعة .

لقد كانت بالفعل حادثة غريبة على فكرنا ومنهجنا فضلا عن مخالفتها للأدلة الشرعية التي سوف نسوقها في النهاية .. كان غريبا أن يكون الرد على مبادرة شيوخ الجماعة الذين اعتادوا أن يقابل كلامهم ومواقفهم بالاحترام كعلاقة طبيعية بين شباب الجماعة وشيوخها بهذا العنف غير المسبوق بدلا من أن تلقى كلماتهم الاستجابة أو على الأقل التوقف لحين حدوث حوار يسمح بتبادل وجهات النظر

للوصول إلى الموقف الشرعي السديد من الأحداث ليلتزمه الجميع .. وكان غريبا أيضا هذا العنف غير المسبوق الذي تجاوز كل الخطوط الحمراء بالعدوان على النساء والأطفال والعجائز من السياح المسالمين الذين جاءوا إلى بلادنا وهم يأمنون إليها فإذا بهم يتحولون إلى ضحايا لنزاع لا ناقة لهم فيه ولا جمل ، وبهذه الطريقة البشعة .. واختتمت هذه المأساة بمقتل هذا الشباب .

نعم كان موقفنا من هذه الحادثة حاسما ومواجها لكل من حاول أن يكسو هذه المذبحة ثوب البطولة والنصر .. وكان أيضا حازما وقاطعا في طرح الأدلة الشرعية على حرمة ما وقع مستدلين – ضمن ما استدللنا به – بما أحدثته من حملة عالمية شعواء لتشويه صورة الإسلام والمسلمين واتخاذ هذه الحادثة مبررا لضرب الإسلام كفكر وعقيدة .. وكذا أبناء هذا الدين من العاملين له بحجة أن هذه الحادثة معيار على الإسلام والمسلمين .

ولكن لماذا كان قتل هؤلاء السياح حراما ؟

والحديث عن حرمة ذلك من وجوه :

أولها : عدم مشروعية قتل النساء والصبيان والعجائز حتى ولو كانوا من ديار تحارب بلاد المسلمين من أهل الكفر « من دار الحرب » .. وفيها من النصوص الكثير نسوق منها :

١- قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ .
أكثر المفسرين على أن من العدوان قتل النساء والصبيان والعجائز والزمني « الحسن البصري ، سعيد بن جبير ، أبو العالية ... »[1] .

٢- قال الإمام النووي : « أجمع العلماء على تحريم قتل النساء والصبيان إذ لم يقاتلوا »[2] .

(١) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي [٢ / ٣٤٨] .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي [كتاب الجهاد والسير ؛ باب تحريم قتل النساء والصبيان] .

٣- عن ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نهى عن قتل النساء والصبيان[(١)] .

٤- بل إن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنكر أشد الإنكار على خالد بن الوليد ، سيف اللّه المسلول لما أخبر أنه قتل امرأة وعلل ذلك بقوله : « ما كانت هذه لتقاتل » وأمره أن لا يقتل ذرية ولا عسيفا[(٢)] .

وبهذا المعنى تكلم العلماء من منع قتل النساء والصبيان حتى في الحرب - ما لم يقاتلوا - وحتى لو كانوا من أهل الكفر المحاربين للإسلام وعللوا ذلك بأن القتال والقتل إنما يكون لمن ينتصب لقتال المسلمين ، وهؤلاء ليسوا كذلك حتى من عللوا بغير ذلك من العلل فإنهم أكدوا على ذلك المنع .

وهنا ستسمع التساؤل : ولكن هؤلاء السياح إنما جاءوا ليفسدوا في البلاد بنشر الخمور والزنى والتبرج ، بل إن منهم من يحمل داء الإيدز لينشره بين أبناء بلدنا ، ومنهم من جاء ليتجسس على بلادنا لصالح أعدائها ألا ينبغي أن نتصدى لهم حماية لشبابنا وبلادنا منهم ..

والإجابة أن إصدار الأحكام الكلية شيء مخالف لنهج الشرع الشريف في الحكم على الناس .. وإن نسبة لا بأس بها من هؤلاء السياح من بلاد إسلامية جاءوا إلى بلد الأزهر بين متعلم ومستمتع بمناخها الجميل أو متعرفا على ثقافة البلد وأبنائه ، أما من لم يكونوا من بلاد الإسلام فإن إطلاق الحكم العام عليهم أيضا خاطئ ، فإن أكثرهم جاء أيضا لأهداف مشروعة لا غبار عليها ولو كان فيهم القليل ممن تصف فإن الجريمة في الشرع والقانون شخصية ولا تعمم .. وإن الحق يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] هذا من ناحية ، أما من الناحية

(١) رواه أحمد في المسند [٢ / ٢٢] ، البخاري [٣٠١٤] ، ومسلم [١٧٤٤ / ٢٤] ، والترمذي [١٥٦٩] ، وأبو داود [٢٦٦٨] ، وابن ماجه [٢٨٤١] ، ومالك في الموطأ [٩٨١] ، والدارمي [٢٤٦٢] عن ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما .

(٢) رواه أحمد في المسند [٣ / ٤٨٨] ، وقال الأرناؤوط : صحيح .

الأخرى فإن إنزال العقوبة بالمجرمين من ناشري الفساد والجواسيس ليس من اختصاص الأفراد إذ أن الأمر يتطلب إلى جانب سطوة السلطان التي تسعى في حماية البلاد وأبنائه وتحتاج إلى تحقيق قضائي يثبت الجرائم بوسائل الإثبات الدقيقة ليكون صاحبها بعد ذلك مستحقا للعقوبة وهذا لا يتأتى إلا للدولة بإمكاناتها وسلطانها ، أما الأفراد فإنهم يعجزون عن ذلك .. فيضعون الأمر في غير موضعه .

ثانيها : أن هؤلاء السياح إنما دخلوا بلادنا بأمان مشروع يوجب على كل مسلم أن يحفظه ويحمي صاحبه ، ولكي يتضح هذا المعنى نقول إن الأمان هو عقد السلامة من الأذى ، بمعنى أن به حفظ نفس ومال وعرض المستأمن وطمأنينته من كل عادية ..

وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم على حفظ ذمة المسلمين فقال : « .. فذمة المسلمين واحدة فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »(١) .

وقد اتفق الفقهاء أن المسلم حرا كان أو عبدا يجوز له أن يؤمن الفرد والجماعة الصغيرة بينما للإمام أن يؤمن الدول والجيوش ..

وعليه ، فكل من دخل ديار المسلمين بموافقة أحدهم أو بعضهم صار آمنا يحرم على أي مسلم أن يتعرض له . بل إن كل كافر جاء وهو يظن أن هناك أمانا يحميه يلزم تأمينه ولو لم يكن ذلك حقيقيا .

وفي هذا المعنى يقول الشيخ عليش في مختصر الخليل : « ثم الأمان يكون بلفظ أو إشارة مفهمة أي شأنها فهم العدو والأمان فيها وإن قصد المسلمون بها ضره كفتحنا المصحف وحلفنا أن نقتله فظنه تأمينا فهو تأمين » .

وفي شرح الأزهار « ولو بإشارة أو إذا قال المسلم للمشرك تعال إلينا فإنه يكون أمانا للمدعو كما لو قال أمنتك أو أنت آمن أو في أمان أو لا خوف عليك » .. وهو معنى نفيس إذ أن هؤلاء الفقهاء لم يكتفوا بصورة الأمان التي مقصودها

---

(١) رواه البخاري [١٨٧٠] ، ومسلم [١٣٧٠ / ٤٦٧] ، وأبو داود [٢٠٣٤] ، وأحمد في المسند [١ / ١٢٦] عن علي رضي الله تعالى عنه .

الأمان كلفظة الأمان مثلا أو ما يشابهها في هذا العصر من عقود العمل واستقدام الفنيين ودعوات السياحة وغيرها ، بل إنهم قالوا إن كل من ظُن أمانا حتى ولو لم يكن كذلك فهو أمان بمعنى أن كل من حصل على تأشيرة دخول إلى البلاد أو جاء آمنا إلى مطاراتها وموانيها وهو يظن أن ذلك أمان لزم جميع من في البلاد حمايته وحماية ماله وعرضه وسادتنا الفقهاء هنا يقطعون النزاع الذي يمكن أن ينشأ نتيجة الاختلاف حول شكل الأمان وألفاظه أو حول عدم اعتراف البعض بمشروعية ما يعطيه غيره من أمان حماية لثقة الأجانب في بلاد المسلمين ونشرا للأمان والاطمئنان في ربوع البلاد خاصة وأن السائح لا يعلم بهذه النزاعات وأسبابها .

ثالثها : تبقى قضية المصالح المترتبة على الحادثة ، والمفاسد الناشئة عنها ، وهي أوضح من أن نتناولها بالحديث ، لما شهده الجميع من تداعيات هذا الحادث وأثره على الدعوة والدعاة .

والحق أن حادث الأقصر ، وما ترتب عليه من تداعيات ، كان له أثر كبير في تأخير التفاعل مع هذه المبادرة قرابة السنوات الخمس ، قضيناها في محاولة مد جسور الثقة التي انهدمت ومحاولة إعادة المصداقية لدعوتنا لإنهاء الأزمة والأحداث . فإن الحادثة كانت تسير في واد آخر مخالف للوادي الذي كانت تدعو إليه المبادرة والبيانات التي تبعتها ، ولقد تحملت المبادرة من جراء هذا الحادث - ولا زالت تعاني منه - الكثير ، ولا زال المجتمع - ونحن جزء من نسيجه - يعاني صدمة هذه الحادثة ويتألم من تداعياتها .

○ ○ ○

السؤال الرابع : ما هو حكم السياحة ؟ .. وهل يجوز العمل في أعمال السياحة المختلفة ؟

ينبغي أولا أن نحدد ما هي السياحة ؟ ثم من خلال تحديد مفهومها يمكننا أن ندرك حكمها ، إذ أن الحكم على الشيء - كما يقولون - فرع عن تصوره .

فالسياحة في الأرض : هي التجوال فيها . وعليه فهي لا توصف بحل ولا حرمة إلا من خلال الهدف من هذا التجوال . فإن كان الهدف مشروعا كانت السياحة مشروعة ، فقد تكون واجبة إذا كان الهدف من هذا التجوال واجبا كالجهاد والدعوة ، وقد تكون مستحبة إذا كان الهدف مستحبا كالاعتبار والاتعاظ ، وقد تكون مباحة كالتجوال للتجارة ، وقد تكون السياحة مكروهة أو محرمة بحسب الهدف منها كمن يسيح ويتجول لقطع الطريق أو سرقة الناس .. وعليه فالمشروعية وعدمها هاهنا لا تلحقها لذاتها ، وإنما تلحقها لغيرها .

أما عن العمل في السياحة ، فهي كلمة تحمل في داخلها مفردات كثيرة تختلف في حكمها بحيث لا توصف بعمومها بحكم واحد كحل أو حرمة ، وإنما يوصف كل عمل على حدة بما يلائمه من أحكام بحسب ما فيه من موافقة للشرع وعدم موافقة .

فالعمل المشروع في السياحة كالبيع والشراء والإجارة منهم وإليهم عمل مباح لا حرج في ممارسته ، حتى ولو كان طرف العقد الآخر كافرا غير مسلم ، وحتى لو كان من بلاد محاربة ودخل بلادنا بأمان ، فإن هذه المعاملات تكون مشروعة لا حرج فيها .

أما الأعمال المحرمة كبيع الخمور لهم أو مساعدتهم على ارتكاب المحرمات والفواحش أو ما شابه ذلك ، فتلك أعمال محرمة في ذاتها سواء كانت مع السياح أو مع غيرهم ، وسواء كانت مع مسلمين أو مع غيرهم ، ولا يجوز الإتيان بها .

أما الأعمال المشروعة والتي تؤدي إلى محرمات ، أو التي يتيقن أن من عملت له سوف يستخدم هذا العمل المشروع ليس فيما أحل الله ولكن في المحرمات ، كمن يبيع عنبا لمن يعلم بالقطع أنه سوف يستخدمه في عمل خمر ، أو من يبيع سلاحا لمن يعلم بالقطع أنه سوف يستخدمه في قتل نفس معصومة الدم ، أو الذي يبني بناء لمن يعلم بالقطع أنه سوف يستخدم كحانة لشرب الخمر أو ما شابه ذلك .. فالعمل في ذاته مشروع ويمكن أن يستخدم فيما هو حلال كأكل العنب أو صيد

الطيور لمن اشترى العنب والسلاح مثلا ، ويمكن أيضا أن يستخدم في العمل المحرم ، ولكنني علمت على سبيل اليقين أنه سوف يستخدم في عمل محرم .. فجمهور العلماء يرون حرمة هذا العمل المشروع لأن ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام .

أما الأحناف فيرون جواز ذلك لأن العمل في ذاته مشروع ، وإنما يتحمل مسئولية ارتكاب المحرم ذلك الذي استغل هذا العمل المشروع في المحرمات ، ولأنه قد يغير قصده فيعمل بالحلال ، ولأننا لم نؤمر بشق الصدور وتعليق الأحكام على الغيبيات ، وأن العقود تستمد صحتها وبطلانها من توافر الأركان والشروط وموافقتها للشرع ، فإن توافرت - هي هنا كذلك - فإنها تكون صحيحة ، وأما ما خرج عن الأركان والشروط فلا أثر له في صحة وبطلان العقد .

ولا يخفي أنه لا حرج مطلقا على سلطات أي دولة مسلمة في أن توجه جزءا من جهودها وأموالها لاجتذاب السائحين في إطار يحقق مزيدا من الموارد لدفع حركة التنمية ويراعي في نفس الوقت آداب وتقاليد بلادنا الإسلامية .

○ **والخلاصة** : .. أن العمل في السياحة فيه أشياء مشروعة ، وقد تكون أحيانا مستحبة أو واجبة .. وفيه أشياء مكروهة أو محرمة وفيه أشياء مختلف فيها ، وإنما يضفي المشروعية وعدمها موافقة العمل للشرع الحكيم .

○ ○ ○

السؤال الخامس : ما هو الموقف من الكتابات القديمة التي نشرتها الجماعة من قبل ؟ وهل تعد الكتابات الجديدة بديلا عنها ؟ بمعنى آخر ، هل كانت الكتابات السابقة ، والتي تم تغيير بعضها ، هي بعضا من فكر الجماعة تم التخلي عنه ؟

بداية ، ينبغي أن يكون مفهوما أن منهجنا وفكرنا هو كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بفهم سلفنا الصالح .. بمعنى أننا نؤمن أنه لا قدسية لأي كتابات تلزمنا كمسلمين أن ندور حولها ونثبت عليها ولا تقبل أن يقع عليها أي تغيير أو تحويل إلا الكتاب والسنة ، أما ما عدا ذلك من اجتهادات البشر وكتاباتهم فليس

لها أي قدسية تعصمها من التقويم والتصحيح على وفق ذلك النهج السديد ، والصحيح فيها ما وافق الكتاب والسنة ، أما ما خالفهما فلا يلزمنا .

هذه واحدة ، أما الثانية : فهي أن كثيرا من الأشياء والكتابات يتعامل معها البعض باعتبارها ثوابت لا ينبغي التعرض لها بتبديل أو تعديل أو تقويم ، وهي في حقيقتها لا تتمتع بهذه الخاصية . وإنما ظن من ظن بها ذلك لطول إلف أو لكثرة تكرار ، أو لعدم اطلاع على مخالف لها ، أو لتقديره وثقته فيمن كتبها ، أو لفقدان ثقة فيمن خالفها ، أو لغير ذلك من الأسباب التي تخرج هذه الأفكار والاجتهادات عن وضعها الطبيعي كاجتهادات بشرية قابلة للمخالفة في نظر البعض .

أما الثالثة : فإنه لا يضر العالم المجتهد أن يرى الحق في غير رأيه الذي ارتآه ، فيترك رأيه ويعود للحق ، ويصوب ما كان يراه خطأ ، ولا ينتقص ذلك من قدره كعالم مجتهد . ورحم الله الفاروق عمر رضي الله عنه إذ أوصى قاضيه أبا موسى الأشعري ، فقال له : « .. لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق فإن الحق قديم »[1] .. ولا يجوز له أن يتمسك بهذا الخطأ بدعوى الثبات وعدم التخلي عن القديم ، فإن الحق أقدم منه ، وإن التمسك بهذا القديم ليس ثباتا على الحق ، وإنما هو معاندة مذمومة . وقد كان الأئمة العظام تتغير اجتهاداتهم بتطور أفهامهم ووضوح الحقيقة أمامهم وتبدل الأعراف والمصالح ولا يجدون في ذلك حرجا ، وأبرز مثال على ذلك ما عرف عن الإمام المطلبي الشافعي وفتاواه القديمة ثم فتاواه المصرية الجديدة ، وغيره من الفقهاء .

تلك مقدمات لابد منها قبل الحديث في إجابة هذا السؤال .. هل نسخت الكتابات الجديدة ما سبق من كتابات ، ونقول : إن هذه الكتابات هي آخر ما انتهينا إليه من دراسة بعد سنين طويلة عركتنا فيها التجارب واكتسبنا فيها من الخبرات الشيء الكثير ، هذا غير ما حصلناه من دراسات واسعة لكتب علماء

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى [١٠ / ١١٩ / ٢٠١٥٩] ، والدارقطني في السنن [٤ / ٢٠٦ / ١٥] .

السلف والخلف وسعت المدارك ، وزادت من عمق بصيرتنا ومن فهمنا لأمور الدين . وهذه الدراسات تحمل تفصيلات لأمور أجملت في السابق ، وكانت تحتاج لمزيد إيضاح ببيان شروطها وأسبابها وموانعها ففهمت من البعض على غير وجهها . وتحمل أيضا تقويما وتصحيحا لأشياء وممارسات كانت موضوعة في غير موضعها وتحتاج لتصويب .. وكذا تحمل أحكاما كانت غائبة عن أذهان البعض ، وكان لابد من تذكيرهم بها ، وإعادة وضعها في مكانها الصحيح .

كل هذه المعاني تعرضت لها الدراسات الجديدة ، وعليه فكل ما كان من قبل مجملا أو ناقصا أو خاطئا وتم توضيحه ، أو تكملته ، أو تصويبه ، فالجديد هو المعبر عنا .. والجديد ألغى كل ما يناقضه من كلام سابق أو ممارسات مخالفة . ولا ينبغي بالطبع أن يفهم من ذلك أن هناك تخليا عن نهج الجماعة وفكرها ، فإن منهج الجماعة وفكرها - كما أشرنا من قبل - هو الكتاب والسنة واتباع الحق حيث كان والدوران معه حيث دار .

ونقول لإخواننا جميعا ، ولكل من قرأ كلامنا السابق واللاحق مقولة الأئمة العظام من قبل : « ما وجدتم من كلامنا موافقا للشرع الشريف فعضوا عليه بالنواجذ ، واحملوه فوق الرؤوس ، لا لأنه كلامنا ، ولكن لأنه شرع الله ومعيار الحق . وما وجدتموه مخالفا لذلك فاضربوا به عرض الحائط »[1] .

---

(١) صح هذا من قول الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه .

وفي كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير [١٠ /٢٧٦ - ٢٧٧] : وقد قال غير واحد ، عنه : إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا به ودعوا قولي ، فإني أقول به ، وإن لم تسمعوا مني .

وفي رواية : فلا تقلدوني .

وفي رواية : فلا تلتفتوا إلى قولي .

وفي رواية : فاضربوا بقولي عرض الحائط ، فلا قول لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء .

وفي رواية : خير من أن يلقاه بعلم الكلام .

=

ونقول أيضا : ما وجدتم من كلامنا موافقا للهدى النبوي السديد ، فهو منهجنا وهي ثوابتنا وهو فكرنا ، وما وجدتم من مخالفة فنحن أول من يتخلى عنه .

○ ○ ○

السؤال السادس : تتردد مقولة مفادها أنكم تكفرون رجال الشرطة لأنهم يحاربون الإسلام في شخص شباب الجماعات الإسلامية الذين يتعرضون للمطاردة والسجن والتعذيب والمحاكمات العسكرية ، بالإضافة لتضييقهم على الدعوة والدعاة .. فهل لهذه الدعوة ظل من الحقيقة ؟ وهل يعتبر العمل في الشرطة كفرا مخرجًا عن الإسلام ؟ وببساطة هل تكفرون جهاز الشرطة بعد ما ذقتموه من أهوال في المرحلة السابقة ؟

أولا : الكفر والإيمان لا يوجه للأجهزة والحوائط والأبواب ، وإنما هو حكم شرعي يوجه للأفراد المكلفين دون غيرهم ، إذا توافرت فيهم مواصفات معينة ، وبالتالي فجهاز الشرطة كجهاز لا يوصف بكفر ولا إيمان .

ثانيا : لم يقل – فيما نعلم – أحد من الفقهاء أن هناك وظيفة يكفر صاحبها بمجرد وجوده فيها . وإنما يوصف الإنسان بالكفر إذا عمل عملا كفريًّا ، أو اعتقد اعتقادا كفريًّا توافرت شروطه وأسبابه وانتفت موانعه ، ولا يحكم بكفره إلا بعد

= وقال : لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد .

وقال : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويطاف بهم في القبائل ، وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال البويطي : سمعت الشافعي يقول : عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر الناس صواباً .

وقال : إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جزاهم الله خيرا ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل .

ومن شعره في هذا المعنى قوله :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

إقامة الحجة عليه التي يكفر تاركها ، والتي لا يردها إلا معاند . وعليه فرجال الشرطة مثل أي شريحة من شرائح المجتمع ، لا يحكم على أحدهم بالكفر إلا إذا تحققت فيه المواصفات السابقة ، وهم على الأعمال المذكورة فئات .. فمنهم من دخل هذا الجهاز وفي قلبه أن يدخل ليخفف الظلم عن الناس ، ويسعى ما استطاع أن يشيع العدل ، فهذا بلا شك مأجور مثاب على قصده .. ومنهم من يدخلها كوظيفة يتكسب منها لقمة عيشه ، وليس في ذهنه شيء تجاه الإسلام والمسلمين والجماعات الإسلامية ، وإنما هو يؤدي عملا وظيفيا بحتا ، فهذا يثاب على ما يؤديه من صالح الأعمال ، ويعاقب على ما يرتكبه من مظالم وينتهك من حرمات ، وهذه معصية مثل غيرها من المعاصي التي تقع تحت المشيئة بين العقاب والعفو .. ومنهم من يكره أشخاصا من الدعاة والجماعات الإسلامية ، ويرى أنهم يستحقون ما يوقعه بهم من تضييق وإيذاء لأشياء دنيوية أخرى يراها ، وليس في ذهنه أي عداء للإسلام ، ولا يرى في هؤلاء رمزا للإسلام والمسلمين ، فهذا أيضا يعصي بقدر ما يرتكب من مظالم بغير حق ، ويقع في معصية تحت المشيئة الربانية .. ثم منهم – مثل أي شريحة أخرى في المجتمع – من يكره الإسلام والمسلمين ، ويسعى لحرب الدين من خلال هؤلاء ، ويجحد آيات الله ويرد حكمه ، فذلك حكمه كحكم أي كاره للدين ومعاد له من الشرطة أو غير الشرطة ، ولا يحكم بكفره إلا بعد توافر الشروط وانتفاء الموانع وإقامة الحجة .

بمعنى أن الوظيفة ذاتها لا تحمل حكما على مؤديها ، وإنما الحكم يكون على فعله داخل هذه الوظيفة ..

فإن فعل ما يستحق الثواب أثيب عليه .. وإن فعل ما يستحق العقوبة عوقب على ذلك .. وإن فعل فعلا كفريا حكم بكفره بشروطه .

ولا ينبغي أن يفوتنا ونحن نتعرض لهذه القضية أن نلفت إلى أثر هذه الدعوى الخطيرة في تمزيق شمل الأمة وتشتيت جهود أبنائها في تكفير بعضهم البعض وإشاعة التباغض والاحتراب بينهم .. ورجل الشرطة هو أخي وأخوك وابني وابنك

وكثيرا ما تجمعنا صلاة الجماعة في المسجد وأداء الحج والعمرة .

فحبذا لو توجهت الجهود - وبدلا من تضييعها في الحكم على الناس بالكفر والإيمان - إلى العمل على نشر الدين والدعوة إليه وترك الحكم بالكفر والإيمان في مثل هذه المسائل الشائكة إلى أهله من أهل العلم والاجتهاد .. فنحن دعاة لا ولاة .

○ ○ ○

السؤال السابع : نعلم أن من أصول الجماعة عدم تكفير المسلمين ، ونعلم أن لكم أدبياتكم في هذا المعنى ، وأنكم كثيرا ما تصديتم لهذا الفكر الهدام ، إذن لماذا كتبتم فيه دراستكم هذه « حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين » ؟

نعم ، بفضل الله ومنته لم يكن تكفير المسلمين بعضا من منهجنا ، ولكن كانت للفترة السابقة وما عانى منه إخواننا من بلاء شديد وطول اعتقال وأضرار متنوعة بدنية واجتماعية أثرها في إثارة قلقنا من هذه الجهة على إخواننا - مع شدة ثقتنا فيهم - وكان لهذا القلق أسباب كثيرة ، نذكر منها :

١- إن جماعات التكفير الأولى في العصر الحديث إنما خرجت من تحت القهر وكان للبلاء الشديد الذي تعرض له أفرادها مع قلة علمهم أثره في الحكم على المجتمع بالكفر لأن أهله رضوا بتعذيب بعض أبنائه من المسلمين وسكتوا عن جلاديهم ، فكان لما تعرض له إخواننا من بلاء شديد غير مسبوق أثره في خشيتنا أن يقعوا في هذا الأمر تحت تأثير الحالة النفسية السيئة التي يكون عليها الإنسان في هذه الظروف والتي قد تفرغ بالإحساس بالقهر والظلم الذي لا تجد له مدفعا في نفي الإسلام عن ظالمه والثأر للنفس بتكفيره ، فيقع في تلك الهاوية .

٢- كانت تجربة الجماعة الإسلامية بالجزائر ، والتي كانت في بدايتها لا تكفر الناس ثم ، وتحت تأثير العنف المتبادل وكصورة من صور التبرير لها ، والسعي لتسويغ عمليات الانتقام والثأر المتبادلة ، أن سقطوا في هاوية التكفير ، فكان حرصنا على ألا تتسبب الأحداث التي كانت قائمة في استدراج إخواننا إلى تلك الهاوية .

٣- كانت عملية عزل قواعد الجماعة عن قياداتها داخل السجون وقطع الاتصال بينهم ، والتي حرمت الأفراد من توجيههم في مثل هذه القضية العلمية الشائكة والتصدي لما قد ينشأ عندهم من شبهات علمية أو عملية تحت تأثير الظروف الشديدة التي كانوا يعيشونها من أكثر الأسباب المثيرة للقلق ، إذ أن غياب أهل العلم مدعاة لحدوث سوء الفهم ممن قل علمهم خاصة مع غياب الكتب والمصادر العلمية التي تضبط الفهم ، والتي كان منعها بعضا مما عاناه إخواننا من ابتلاءات .

٤- كانت عملية السكنى الجماعية التي جمعت بطريقة عشوائية بين الجماعات التكفيرية المتنوعة وبين أبناء جماعتنا في زنازين واحدة ، مع عزل القيادات ومنع الكتب وترك الأفراد فريسة لحوارات ومناقشات غير متكافئة وفي ظروف شديدة وتضييق يعد من أكثر الأشياء المثيرة للبلبلة والتشكيك ، ونحمد الله أن عافى إخواننا من آثارها الضارة .

٥- بالإضافة إلى ما يتهمنا به الكتاب الشيوعيون في كتاباتهم مدعين أننا نكفر المجتمع ، خالطين للأوراق بيننا وبين أولئك المكفرة ، في محاولة لتشويه صورتنا ، مما دفعنا لكي نجعل من هذا الكتاب ردا عمليًا عليهم .

والحق أن كتاباتنا هذه لا تعني بالقطع أننا نتهم إخواننا بالتشكيك في عقيدتهم - عقيدة أهل السنة والجماعة - أو حدوث هذا الخلل فيهم ، بل على العكس فالجماعة الإسلامية ومنذ أيامها الأولى طرحت هذه القضية ودرست لأفرادها العقيدة الصحيحة فيها ، وتصدت بكل حسم لكل دعاوى التكفير بدرجاتها المختلفة ، ويكفيها فخرا أن موقفها هذا كان له أكبر الأثر - بعد فضل الله تعالى - على أبناء الصعيد - منشأ دعوتها الأولى - فلم تتسرب إليهم هذه الدعاوى سواء من كان في الجماعة أم من لم يكن فيها .

بل ونقول أيضا بكل اعتزاز : إن كتابات الجماعة الأولى في هذه القضية كانت محط احترام الباحثين وموضع رعايتهم ورعاية كل من سعى للتصدي لهذا الفكر التخريبي .

ولقد كان – من نعمة الله تعالى – أن وجدنا بعد هذه الجولة الواسعة في السجون أن أفراد الجماعة قد حفظهم الله تعالى من هذا الفكر ، وكانوا على العهد بهم من التزام عقيدة سلفنا الصالح التي لا تكفر أحدا من أهل القبلة بالذنب ما لم يستحله ، كما يقول علماؤنا الأجلاء .

○○○

السؤال الثامن : تشكك بعض المثقفين في هذا التحول السريع للقواعد ، والذي تصوروا أنه علامة على أن الجماعة إنما تبنت هذه المبادرة للخروج من المأزق الذي وجدت فيه نفسها ، ولالتقاط الأنفاس واستجماع القوى ثم العودة بعد ذلك إلى ما كانت عليه من قبل ، بمعنى آخر .. هل هذه المبادرة تكتيكية مرحلية أم إنها استراتيجية بعيدة المدى ؟ وما هي الضمانات لعدم العودة مرة أخرى لما سبق ؟

هذه الفكرة لدى هؤلاء المثقفين إنما نشأت لعدم معايشتهم لأفراد الجماعة وعدم الاحتكاك المباشر بهم ، والاكتفاء في تكوين فكرتهم عنهم من خلال حكايات الآخرين ، أو من خلال التقارير والأوراق[1] ، ولعل أكبر مثال يبين أثر الاحتكاك المباشر والمعايشة على تكوين فكرة صادقة هو ما حدث مع الأستاذ / مكرم محمد أحمد ، والذي جاء للقائنا كما يقول هو وعنده الكثير من التوجسات تجاه هذه المبادرة وتجاه أصحابها ، وهو من هو في مواقفه المعارضة لتوجهات الجماعة ، وقد تعرض من قبل لمحاولة اغتيال من جماعات أخرى كان من الممكن أن تكون حاجزا شديدا أمام وصول حقائق الأشياء إليه إلا أنه مع إحساسه بصدق ما قيل في اللقاء المباشر ، ومن خلال حوار موضوعي كان له هذا الموقف الداعم للمبادرة ، والحق

(١) روى أحمد في المسند [١ / ٢٧١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الخبر كالمعاينة ؛ إن الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير سريج بن النعمان فمن رجال البخاري .

أن الناظر من بعيد يتصور بالفعل أنه موقف تحول جاء غير متوقع بعد هذه السنين الطويلة من الصدامات والابتلاءات ، ويتصور أنه موقف مفاجئ غير الأمور والمواقف إلى الجهة المضادة فجأة ، وبالتالي فهذا التحول المفاجئ - كما يتصور - ينفي المصداقية عن جدية الاستمرار فيه ، ولذلك فنحن نسوق إليه الدلائل الآتية :

أولا : لقد استغرق التفكير في هذه المراجعات سنوات طوالا ، استعنا فيها بعشرات الكتب والمراجع ، وكانت قناعتنا بهذا التوجه ثمرة لجهد علمي كبير ، وتراكم خبرات لسنوات طويلة .

ثانيا : إن المبادرة كانت منذ سنوات خمس : ثمرة لمحاولات سابقة كثيرة لإنهاء تلك المواجهات ، ولكنها جميعا لم تنجح لظروف مختلفة ، تم نشر بعضها مثل لجنة الوساطة التي تكونت من مجموعة كبيرة من العلماء والمفكرين للسعي في إنهاء الأحداث والتي أعلنا الموافقة على ما تقوله دون تحفظ ، ومنها ما لم ينشر لأسباب مختلفة .

ثالثا : لقد أدرجنا هذه القناعات التي لخصتها المبادرة في كتب وإصدارات قمنا بطبعها وتوزيعها لتكون ميثاقا وعهدا بيننا وبين إخواننا وبين الآخرين ، يجعل من مسألة التراجع عنها طعنا في مصداقيتنا ودعوتنا ، ولم تكن دعوتنا مجرد كلمات قيلت في أحد المكاتب أو تداولناها بيننا سرا يسهل التنصل منها .

رابعا : لقد قمنا بشرح هذا الكلام بأنفسنا لإخواننا في السجون ، ولم نتحرج من مواجهتهم بهذه الآراء ، وصرحنا بموقفنا الصريح من الأحداث السابقة وما تم من تصويب وتصحيح ، ولم نبال بما يمكن أن يحدثه ذلك من مشاكل داخل أبناء الجماعة ، من منطلق أن توجهنا « لتصحيح الشرع فوق كل اعتبار آخر » .

خامسا : إن أكبر وأهم ضمان هو حصاد التجربة المريرة التي امتدت لسنوات وعاش فيها المجتمع المصري بكل طوائفه - ونحن بضعة منه - أياما شديدة أريقت فيها الدماء وتشتت فيها الجهود وتمزقت وحدة الأمة في مواجهة قضاياها العظمى وخاصة عدوها المشترك في فلسطين .

سادسا : الوعود والعهود التي قطعناها على أنفسنا ، والتي يوجب الشارع الحكيم الوفاء بها وإلا كنا متلاعبين بالشرع واقعين في محارم الله ، وهو سبحانه الذي شدد في كتابه الحكيم على الوفاء بالعهد فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة : ١] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء : ٣٤] ، وحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم أشد التحذير فقال : « إنه لا يجوز في ديننا الغدر »[1] .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أننا قلنا ما اعتقدنا من قبل أنه صواب وبمنتهى الوضوح والشجاعة وحبال المشانق معلقة فوق رؤوسنا ، وكنا نعلم أن كلماتنا هذه قد تقودنا إلى حتفنا ، ولكننا قلناها دون أن نبالي ، متحملين ما يترتب على ذلك ثابتين على حق اعتقدناه ، وثقة في الله وتجاهلا واستهانة بكل النتائج المترتبة على ذلك .

ونحن اليوم نكرر ما سبق منذ عشرين سنة ، ولكن في موقف آخر فنقول ما نعتقده حقا ، ونتحمل نتائج ذلك ونعلم ما يمكن أن يقوله البعض علينا .. ونحن نقوله أيضا لا ننظر إلى النتائج ، فقد أعلنا مبادرتنا من طرف واحد ولم ننتظر على ذلك جزاء من أحد ، وواجهنا به إخواننا في السجون وفي الخارج ، بل وواجهنا به المجتمع كله ونحن نعلم ما يترتب على ذلك ، بل ونقولها ونحن ما زلنا في السجون ، ولو بقينا في السجون ما بقينا ما تغير قولنا لأننا نعلم أنه الحق فلا ننظر لما يترتب على كلمة الحق من مخاطر .

وبقيت كلمة نقولها للسادة المثقفين أو مدعيي الثقافة الذين يشككون في مصداقية مبادرتنا ، ويطالبوننا بالضمانات .. لماذا لم يطالب الشيوعيون بضمانات عندما تحولوا هذا التحول العجيب في أصول فكرهم من الدعوة لدكتاتورية البروليتاريا والثورة الحمراء إلى الاشتراكية ثم إلى الدعوة للديمقراطية وحقوق الإنسان ؟ .. ولماذا لم يطالبهم البعض بضمانات لصدقهم ، بل سارعوا مهللين لهم

---

(١) روى البخاري [٣١٨٧] ، ومسلم [١٧٣٧ / ١٤] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به » .

ووسدوهم أعلى الأماكن في البلاد ؟ .. ولماذا يصير الإسلاميون دائما موضع الاتهام والتشكيك ؟ أم إنها سياسة الكيل بمكيالين ؟!

○ ○ ○

السؤال التاسع : ذكرتم أن هذا الاقتتال لم يكن صوابا ، وأن الذين وقعوا فيه قوم تنكبوا الطريق القويم . فما هو إذن مصير الإخوة الذين قتلوا في هذه الأحداث ؟ وهل معنى قولكم السابق أن أعمالهم هذه هدر ؟ وأنهم مؤثمون ؟

في الحديث المتفق عليه « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »(1) .. وهذا يعني أن كل من اجتهد في الوصول إلى الحق مستجمعا شرائط الاجتهاد باذلا في ذلك الوسع صادقا في نيته لله لا يقصد إلا وجه الله ورضاه ، فهو مثاب باجتهاده هذا .. فمن أصاب الصواب فله أجر العمل الصائب وأجر النية الصادقة وإن أخطأ الصواب له أجر النية الصالحة ويرتفع عنه إثم العمل الخاطئ لنيته تلك ، وفي هذا المعنى يشير العز بن عبد السلام . سلطان العلماء في كتابه قواعد الأحكام : « من فعل فعلا يظنه قربة ، أو مباحا وهو من المفاسد المحرمة في نفس الأمر ، كالحاكم إذا حكم بما يظنه حقا بناء على الحجج الشرعية ، وكالمصلي يصلي عن ظن أنه متطهر ، أو كمن يصلي على مرتد يعتقده مسلما ، وكالشاهد يشهد بحق عرفه بناء على استصحاب بقائه فظهر كذب الظن في ذلك كله ، فهذا معفو عنه ، ولكن يثاب فاعله على قصده دون فعله »(2) .

وفي مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية [٢٠ / ٣٢] يقول : « وإنني أقرر

---

(1) رواه البخاري [٧٣٥٢] ، ومسلم [١٧١٦ / ١٥] ، وأبو داود [٣٥٧٤] ، وابن ماجه [٢٣١٤] ، وأحمد في المسند [٤ / ١٩٨] عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه ، والترمذي [١٣٢٦] ، والنسائي في المجتبى [٨ / ٢٢٣ / ٥٣٨١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(2) راجع قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام [ص : ٢٢] .

أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها ، وذلك يعم المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية » .

بل وبمثل هذا المعنى يقول أيضا في [٢٣ / ٣٤٥] : « فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان سواء كان في المسائل النظرية أو العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام » .

وليس المقصود هنا الاجتهاد الفقهي بمعناه الاصطلاحي الذي يتوجه لأهل العلم فقط ، بل إن المقلد يكون له نصيب من هذا الحديث إذا جمع إلى نيته الصالحة استفراغ الوسع في إتيان فرضه بالبحث عن العالم الثقة العدل التقي الذي حصل من العلم ما يجعله أهلا للإفتاء ، والذي يطمئن قلبه كمستفت إليه لتميزه كعالم تقي فإنه إن فعل ذلك كان مأجورا على نيته الصالحة وإن لم يصب الصواب .

والحديث السابق يشمل المسائل العلمية وكذا العملية ، وهو في مسائل تحقيق المناط أولى ، نعني به البحث عن توافر الحكم النظري على الواقعة المراد تطبيقه عليها ، وهو نوع من الاجتهاد ، وإن كان أقل مرتبة من سابقه .

وقد خالف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد أمره ألا يفارقوا مواقعهم فوق الجبل فخالفوه بقصد حسن ونية صالحة فكانت هزيمة المسلمين بعد نصر ؛ وقتل سبعين من سادة الصحابة - رضوان الله عليهم - ومع ذلك لم ينفك عنهم وصف الشهداء فيمن قتل منهم ﴿ .. وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ ، ولم ينقص ذلك من مكانتهم الدينية ، ولم يحرموا من العفو الرباني عن فعلهم .

وكذا ناشد ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم سيدنا الحسين بن علي رضوان الله تعالى عليهم في خروجه إلى العراق وتكلم كثير من العلماء في أثر هذا الخروج وما ترتب عليه من مقتلة عظيمة في آل بيت النبوة . ولازال المسلمون يعانون من آثار هذا الخروج حتى الآن ، ومع ذلك فالحسين رضوان الله عليه سيد شباب أهل الجنة وهو الشهيد ابن الشهيد الذي أمرنا بحبه وموالاته وجعلت محبته

من حب النبي صلى الله عليه وسلم(١) .

---

(١) روى ابن حبان في صحيحه [٦٩٦٨] عن الشعبي قال : بلغ ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وهو بمال له أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق فلحقه على مسيرة يومين أو ثلاثة فقال : إلى أين ؟ . فقال : هذه كتب أهل العراق وبيعتهم . فقال : لا تفعل . فأبى ؛ فقال له ابن عمر : إن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ، ولم يرد الدنيا ، وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يريد منكم . فأبى فاعتنقه ابن عمر وقال : أستودعك والسلام . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : رجاله ثقات رجال الصحيح غير يحيى بن إسماعيل بن سالم فقد وثقه المؤلف [٧ / ٦١٠] وروى عنه جمع .

وعن مسألة الخروج على الحكام روى الخلال في كتاب السنة [٨٩] بإسناد صحيح : أخبرني محمد بن أبي هارون ومحمد بن جعفر أن أبا الحارث حدثهم قال : سألت أبا عبد الله في أمر كان حدث ببغداد وهم قوم بالخروج فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم فأنكر ذلك عليهم ، وجعل يقول سبحان الله الدماء الدماء ، لا أرى ذلك ولا آمر به ، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء ويستباح فيها الأموال وينتهك فيها المحارم ، أما علمت ما كان الناس فيه ؟ يعني أيام الفتنة . قلت : والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله ؟ قال : وإن كان فإنما هي فتنة خاصة فإذا وقع السيف عمت الفتنة وانقطعت السبل ، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك . ورأيته ينكر الخروج على الأئمة .

وقال : الدماء لا أرى ذلك ولا آمر به .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى [٢٨ / ١٧٩] قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ولما كان ظلوما جهولا وذلك يقع من الرعاة تارة ومن الرعية تارة ومن غيرهم تارة كان من العلم والعدل المأمور به الصبر على ظلم الأئمة وجورهم كما هو من أصول أهل السنة والجماعة وكما أمر به النبي صلى الله عليه و سلم في الأحاديث المشهورة عنه لما قال : « **إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض** » . رواه البخاري [٣٧٩٢] ، ومسلم [١٨٤٥ / ٤٨] عن أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه .

وقال : **من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه** . رواه البخاري [٧٠٥٤] .

وقال : **إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم** . رواه البخاري [٧٠٥٢] عن عبد الله رضي الله تعالى عنه .

ونهوا عن قتالهم ما صلوا . رواه مسلم [١٨٥٤ / ٦٢] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها .

وذلك لأن معهم أصل الدين المقصود وهو توحيد الله وعبادته ، ومعهم حسنات وترك =

وقد اجتهد في سرية مؤتة أربعة من القادة العظام فصوب النبي صلى اللَّه عليه وسلم اجتهاد أحدهم – خالد بن الوليد – وسماه سيف اللَّه ولم ينقص ذلك من مكانة من خالفه في الاجتهاد من القادة العظام زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد اللَّه بن رواحة ، بل إن النبي صلى اللَّه عليه وسلم ذكر مقامهم العالي في الجنة بين الشهداء .

○ **الخلاصة** .. أن من صدق اللَّه وحسنت نيته وأدى فرضه في البحث عن الحق والاجتهاد في الوصول إليه ثم كان اجتهاده في غير موضعه ، فإن اللَّه لن يضيع إيمانه ولن يحرمه الثواب ، ونحسب أن إخواننا كذلك ولا نزكي على اللَّه أحدا .

أما وبعد أن اتضح الصواب بالدليل الشرعي ، والذي ناقشناه من قبل باستفاضة في مصنفاتنا السابقة وبعد أن اقتنع به الجميع وأعلنوا ذلك ، فإن من يعيد الكرة ويقتحم تلك المحارم بعد هذا البيان فإنه لا عذر له ويكون مقتحما للمآثم .

○ ○ ○

السؤال العاشر : ذكرتم أنكم أنهيتم العنف وبدأتم عهدا جديدا من الدعوة الخالية منه . ماذا لو علمتم أن بعض أبناء الجماعة رافضون لهذه الدعوة ؟ وأنهم مصرون على إقامة خلايا لإعادة دورة العنف السابقة وإفساد جهودكم السابقة في وقفه ؟ وماذا سيكون موقفكم منهم ؟

بداية ، هذا الفرض لم يحدث – بحمد اللَّه – ولن يحدث إن شاء اللَّه تعالى .. ومن شاهد الحفاوة التي استقبلت بها دعوتنا ومبادرتنا من إخواننا في السجون واستجابتهم الحاشدة لها ، يدرك تماما أنهم جميعا كانوا يحملون الفكرة في قلوبهم ووجدوا في مبادرتنا أصدق تعبير عنها ، بل ولقد استجاب لها كل إخواننا في كل

= سيئات كثيرة .

وأما ما يقع من ظلمهم وجورهم بتأويل سائغ أو غير سائغ فلا يجوز أن يزال لما فيه من ظلم وجور كما هو عادة أكثر النفوس تزيل الشر بما هو شر منه وتزيل العدوان بما هو أعدى منه .

مكان كان للجماعة فيه وجود ، وجاءنا تأييدهم ودعمهم لهذا التوجه وكأنهم كانوا في داخلهم ينتظرون هذا التوجه . حتى من كره منهم هذا الأمر في نفسه لسبب أو لآخر فإنه التزاما بالعهود التي قطعناها على أنفسنا وحفاظا على ذمة إخوانه ومشايخه وثقة في عهودهم ، فإننا نعلم أنه لا يمكن أن يغدر بعد عهد أو يخالف إخوانه الكبار فيما تعهدوا به .

هذا هو نهجنا في علاقة أفراد جماعتنا بشيوخهم وحرصهم على الوفاء لهم ، ولكن لو تصورنا جدلا حدوث ذلك – وأحسبه لن يكون – فإن مواجهته تكون على أصعدة أربعة :

الأول : هو نشر فكرة المبادرة بين الناس ، وطرح أدلتها الشرعية والواقعية لتشيع بين الشباب الملتزم والمحب للدين ليكون هناك رأي عام يحاصر هذه الظاهرة ويتبنى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإشاعة هذا المناخ الجيد لدعوة الناس للالتزام بمبادئ الإسلام الصحيح وإصلاح الأنفس والضمائر .

الثاني : إذا وجد من لم تستقر في نفسه هذه المعاني فينبغي أولا أن نسعى للحوار معه وإقناعه بالنصوص الشرعية والرؤية الواقعية القائمة على التجربة الطويلة ، والتي أشرنا إلى بعض ما فيها في دراستنا السابقة وسنحرص من خلال متابعة الحوار على الوصول إلى اتفاق أو حتى موافقة على السير في طريق إخوانه في الدعوة إلى الدين بالحكمة والموعظة الحسنة وتكوين قناعاته بالإلحاح والمتابعة .

الثالث : وهي ولو فشلت كل تلك الجهود في إقناعه ، وهذا احتمال بعيد وهو أكثر بعدا من سابقه ، ووجدناه مصرا على موقفه ولم يستجب لكل هذه المحاولات فإننا في هذه الحالة سنكون أمام منكر ينبغي التصدي له بضوابط الحسبة الشرعية التي أشرنا إليها ، وينبغي أن يمنع بكل السبل من هدم المعبد على رؤوس أصحابه والعودة بنا إلى دائرة العنف السالفة . نعم ينبغي التصدي له بكل السبل الممكنة ، بل ويتصدى له بكل ما من شأنه أن يوقفه عند حده ويمنعه من التفريط في حق نفسه وفي حق إخوانه وفي حق مجتمعه فضلا عن تفريطه في حق دينه .

أما الرابع : فينبغي أن يعلن وبوضوح التبرؤ من أعماله ، فإنه لا ينبغي أن يكون في صفوفنا من يفكر في إعادة عجلة العنف مرة أخرى وإعادة المطاردة والسجون والاعتقال وإعادة الدماء المهراقة بغير حق والترمل واليتم ومحاربة الدعوة والتضييق على الدعاة .. ولا ينبغي أن يكون بين صفوفنا من يتجاهل تلك التجربة الطويلة والدروس المستفادة منها ويعود ليبدأ من حيث بدأنا ويعيد الكرة من جديد .. ولا ينبغي أن يكون بين صفوفنا قبل كل شيء من يتجاهل الأمر الشرعي المانع من هذا الاقتتال بين أبناء البلد الواحد الذي لا يستفيد منه إلا العدو .

نعم ينبغي أن نتبرأ منه ونبصر المجتمع بخطورة دعواه لكي يشاركونا في التصدي له حماية للمجتمع منه وحماية له هو نفسه من نفسه .

○ ○ ○

السؤال الحادي عشر : لقد أسقطت هذه المبادرة الكثير من الأعمال التي مارستها الجماعة في مراحل سابقة .. فما هي مبررات وجود الجماعة بعد أن أسقطت خيار العنف واستخدام القوة ؟!

لقد ترك الضجيج الذي أثارته الأحداث الدامية أثره على تفكير البعض حتى ظنوا أن العنف هو عمل الجماعة الوحيد أو هو على الأقل أكثره وأن التخلي عنه هو تخل عن مبررات وجودها وتخل عن أصولها التي قامت عليها بينما الحقيقة غير ذلك .

فالأعمال القتالية احتلت من حيث الزمان فترة وجيزة من تاريخ الجماعة بينما كانت الجماعة موجودة من قبل الأحداث تدعو إلى الله وتشارك المجتمع همومه ومشاكله وقضاياه برؤيتها الإسلامية .. بل إنها وأثناء الأحداث كانت تمارس هذا الدور في دعوتها الشاملة لكل أجزاء الدين .

وكذلك لم تستغرق تلك الأحداث من أفراد الجماعة إلا العدد القليل بينما انشغل الباقون بدعوتهم دون أن تؤثر فيهم .

بمعنى آخر فالجماعة تتعامل مع الإسلام بشموله سواء شقه الاجتماعي والذي

يعرف الجميع دورها فيه من إقامة المشروعات الخدمية كالحضانات والمساعدات المالية ورعاية الفقراء والأيتام والمشروعات الطبية كالمستوصفات والقوافل الطبية أو المشروعات التعليمية كدروس الطلبة وتعليمهم والمشروعات الدعوية من خطب ودروس وغيرها ، وكلها أنشطة مارسناها باسم الإسلام وشاركنا المجتمع بجميع فئاته ودعمنا وأيدنا فيها .. هذا إلى جانب الشق الجهادي الذي كان فيه الخطأ والتجاوز بما أوضحناه بالتفصيل من قبل والذي نسعى من خلال كتاباتنا هذه لتقويم ما كان فيه من خلل وتوجيهه إلى وجهته الشرعية الصحيحة .

إذا فحمل السلاح كان جزءا يسيرا من أنشطتنا ليس الجزء الأكبر زمانا ولا مكانا ولا انشغالا وإنما كان أكثرها ضجيجا وإثارة لما كان فيه من صدام حاد بالمجتمع وتجاوز واضح لفت إليه الأنظار .

فنحن لازلنا جماعة إسلامية تدعو للدين وتسعى لكي تعم سلوكياته وأخلاقه وأحكامه أفراد المجتمع ، وتسعى لجذب الناس إلى نبع الإسلام الصافي السمح في أنفسهم وفي معاملاتهم كما نسعى أيضا لضبط أعمالنا بالشرع الشريف وتقويم ما يعتري أعمالنا من أخطاء « فكل بني آدم خطاء »[1] - كما يقول الحديث ، ولا يعني وجود الخطأ في أعمالنا أن نهدر كل ما عداه من صواب .. بل إن الخطأ قرين السعي ومن سار لابد أن يعثر وإنما ينجو من العثرة من قعد في مكانه وأعرض عن العمل نسأل الله ألا نكون منهم .

فلا ينبغي أن نقعد عن العمل خوف الخطأ وإنما نعمل ونسعى لتصويب عملنا جهدنا ، ونستبصر بالهدي الشريف وبأهل العلم الذين يقتدي بهم لتكون دعوتنا على بصيرة ونهج رشيد .

○ ○ ○

السؤال الثاني عشر : لم يكن بيان المبادرة الذي ألقي في يوليو سنة

---

(١) جزء من حديث سبق تخريجه .

١٩٩٧م هو البيان الوحيد الذي أثار انتباه المراقبين في ذلك الوقت وإنما تلاه مجموعة من البيانات شعرنا أنها تحمل طروحات جديدة . فما هو الذي كنتم تريدون قوله من خلال هذه البيانات ؟

نعم كان هناك ساعتها بيانات أربعة كانت تحمل طرحا ورؤية جديدة كنا نريد من خلالها أن نلفت الانتباه إلى قضايا هامة .

وأول هذه البيانات : كان حول القانون الجديد للايجارات الزراعية وفكرته أن حكومات سابقة كانت قد سنت قانونا بالمخالفة للرؤية الشرعية للإيجارت الزراعية يعطي الحق للمستأجر أن يبقى في الأرض المؤجرة ولا يعيدها إلى صاحبها إلى الأبد هو وورثته ما دام يدفع إيجارا ، ولا يملك صاحب الأرض أن يسترد أرضه .. وكان لهذا القانون المخالف للقواعد الشرعية آثاره المدمرة على العلاقة بين الملاك والمستأجرين وضياع حقوق الملاك في أرضهم .. ثم كان أن أعلنت الحكومة إلغاء هذا القانون الجائر والعودة إلى الصورة الشرعية الموجودة في القانون المدني والتي تضبطها القاعدة أن « العقد شريعة المتعاقدين » .

وكان طبيعيا أن نعلن تأييدنا لتخلي الحكومة عن هذا القانون غير الشرعي ، وامتداح خطوتها للعودة لتلك القاعدة القانونية الشرعية رغم ما أثاره هذا التقنين من ضجيج . ولكننا أيضا نريد أن نقول شيئا آخر .. وهو أننا ندعم كل خطوة صحيحة تعلي من أمر اللّٰه كائنا من كان يفعلها ونؤيد الحق بغض النظر عمن يقوله وهادينا في ذلك قول النبي صلى اللّٰه عليه وسلم في الحديبية : « .. واللّٰه لا يدعونني إلى خطة يعظمون فيها شعائر اللّٰه إلا أجبتهم إليها .. »[1] . فكيف والداعي هنا ليس من كفار قريش وإنما هم مسلمون ويدعون إلى أمر شرعي ، فإن إجابتهم ودعمهم تصير واجبة في هذا الأمر الشرعي .

ونريد أيضا أن نقول .. إننا نضع أيدينا في يد كل من يخطو خطوة نحو إقامة

(١) جزء من حديث سبق تخريجه .

شرائع الله قلت هذه أو كثرت ، وندعمه في موقفه هذا ، داعين الله عز وجل أن يتم نعمته علينا وعلى بلادنا بإقامة الدين فيها كاملا غير منقوص إنه سميع مجيب .

أما البيان الثاني : فكان بمناسبة الإفراج عن الشيخ عباس مدني زعيم جبهة الإنقاذ في الجزائر ، إذ امتدحنا من حكومة الجزائر هذا الموقف الذي رفع الظلم عن أحد القيادات التاريخية الجزائرية ، التي كان لها دور نضالي كبير ضد الاستعمار الفرنسي ، ثم كان له دوره الأعظم في خدمة بلاده من وجهة نظر إسلامية . ونحن بشكرنا للحكومة الجزائرية لهذا الموقف كنا نريد أن نقول شيئا آخر ، وهو أننا نشكر لكل من يسهم في رفع الظلم عن أي من المسلمين وإعادة حقوقه . وأن هذا الشكر لا يتوقف على من أسدى هذه المكرمة له اتفقنا معه أو اختلفنا فإنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس[1] ـ كما يقول الحديث ـ .. وهادينا في هذا المعنى الطيب شكر النبي صلى الله عليه وسلم لمطعم بن عدي على مكرمته في إجارة النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف ، وقال صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر : « لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له »[2] .. هذا مع أن المطعم هذا عاش ومات كافرا لم يؤمن بالله .

أما البيان الثالث : فكان عن معاملة أهل الكتاب ، وسببه أن بعض نصارى المهجر كانوا يضغطون على الحكومة المصرية لابتزازها بدعوى أن الجماعات الإسلامية تضطهد النصارى في مصر ، وأن النصارى هنا يتعرضون لسلب حقوقهم منا لمجرد أنهم نصارى ، فكان لزاما أن نبين الصورة الشرعية لمعاملة النصارى ، والتي نتخذها نهجنا كدعاة إلى الله . فإن الشارع الحكيم أوجب العدل معهم وحفظ حقوقهم ما داموا مسالمين ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه البخاري [٣١٣٩] ، والطبراني في الكبير [٢ / ١١٧ / ١٥٠٤] ، وعبد الرزاق في المصنف [٥ / ٢٠٩ / ٩٤٠٠] عن محمد بن جبير عن أبيه رضي الله تعالى عنهما .

﴿ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .. فالبر والعدل هما الصورة الشرعية الصحيحة في التعامل معهم ، وأنه لا يجوز التعدي على النصارى لمجرد مخالفتهم في الدين ، وأن المعاملات الإنسانية والاجتماعية الطيبة مشروعة ويلزم المسلم أن يلتزمها . وذكرنا أن الادعاءات بالاعتداء عليهم وعلى كنائسهم غير صحيحة ، وأن تجاوزنا هنا وهناك لا ينبغي أن يتخذ ذريعة لتشويه الصورة المضيئة للمسلمين في التعامل معهم فما أكثر ما يتجاوزون في حق بلادهم وشعبهم ، ولم يزعم أحد أنهم يضطهدون المسلمين . ثم كان هذا البيان فرصة لبيان الصورة الشرعية الصحيحة لهذه المعاملة لإخواننا من أبناء الجماعة ليضبطوا معاملتهم على نهجها ، ولكي لا يدعوا لأولئك الموتورين من أقباط المهجر الفرصة لتأليب الأجانب الذين يجهلون واقع البلاد على بلاد المسلمين .

أما البيان الرابع : فكان عن الانتفاضة وقضية فلسطين ، قضية العرب والمسلمين الأولى ، وهمهم الأعظم . وقد دعونا فيه كل القوى الوطنية لكي تتضافر لمساعدة إخواننا من أبناء الانتفاضة ، والسعي الجاد لرفع الظلم عنهم . وذكرنا أننا أول من يضع يده في أيدي هذه القوى المختلفة من أجل إخواننا في فلسطين . وكنا نريد أيضا أن نقول : إن قضايا الوطن الكبرى لابد أن تكون أيادينا أول الأيدي التي تمتد للمشاركة فيها بغض النظر عمن يضع يده في أيدينا ، وأن الاختلاف حول مسألة هنا أو هناك لا ينبغي أن يكون مانعا من إضافة قوتنا إلى قوة أبناء بلادنا في قضايانا الكبرى . وهادينا في ذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم وهو يمتدح حلفا كان في الجاهلية بين قبائل الكفار لنصرة المظلوم وإعطائه حقه - يسمى حلف الفضول - وقال : « لو ادعى به في الإسلام لأجبت »[1] .. فرغم أنهم كفار ، بل وأعداء ، إلا أن التضافر لرفع الظلم وإعلاء القيم العظمى للدين جاز مع هؤلاء كما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم .. فكيف وهذه القوة من المسلمين من أبناء بلدنا ،

(١) جزء من حديث رواه البيهقي في الكبرى [٦ / ٣٦٧] عن طلحة بن عبد الله بن عوف رضى الله تعالى عنهما .

قد نختلف معهم أو نتفق ، ولكن هناك مواضع ينبغي أن تتضافر فيها كل هذه الجهود المختلفة ، ومنها أو قل على رأسها قضية مساعدة إخواننا بفلسطين في انتفاضتهم المباركة .

هذه هي البيانات الأربعة ، وهي كما لا يخفى تطرح طروحات هامة في قضايا جديدة بهذا الطرح . وتوضح معاني كثيرا ما فهمت عنا على غير ذلك .

○ ○ ○

السؤال الثالث عشر : تحدثتم في كتبكم عن الموانع الشرعية التي دعتكم لإطلاق هذه المبادرة والسعي لإيقاف هذا الاقتتال .. فماذا إذن عن الرؤية الواقعية ؟ وما المتغيرات الداخلية والخارجية التي دفعتكم لاتخاذ هذا الموقف ؟

الحق أن هذه المبادرة حصاد رؤية ذات أبعاد متعددة ، وثمرة لتجربة عريضة وواسعة ، بل ومؤلمة في كثير من أحوالها ، وثمرة أيضا لحوار واسع وطويل مع أطراف متعددة ودراسات جادة في أمهات الكتب .. ونستطيع أن نوجز هذه الأبعاد في الآتي :

أولا : تصدت المبادرة لإيقاف الصدام الدامي الذي عانينا منه جميعا أبناء هذا البلد منذ صيف سنة ١٩٩٢ ، والذي مزق أوصاله وأشاع حالة من الفوضى والتناحر ، وذلك لتحقيق الهدوء تمهيدا لحل المشكلات القائمة بين الدولة وبعض من أبنائها ، وتحديد سبل العلاج التي تحمي المجتمع من تكرار ما حدث لتفوت الفرصة على أولئك الذين يذكون نار الفتن ليصعدوا على جماجمنا جميعا لتحقيق مصالح شخصية وآنية محدودة متجاهلين مصالح البلاد .

ثانيا : أثمرت المبادرة فرصة لتحقيق واجب شرعي هام شغلتنا الأحداث المتلاحقة عن تحقيقه وهو واجب المراجعة الشرعية ومحاسبة النفس حول مسار الجماعة في العقود السابقة بالبحث عن مواقع الإصابة – وهي كثيرة – لدعمها وتطويرها وكذا البحث عن نقاط الخلل لإصلاحها وعلاجها . فقد كان هناك من الخير

الكثير في الدعوة والطاعات والسعي للأخذ بهذا الدين بالصدق والإخلاص ، وكان هناك أيضا بعض الخلل هو الذي أثمر تلك المبادرة سعيا لإصلاحه من خلال الكتب الأربعة ، وما تلاها من جولة في السجون وحوارات وبيانات وغيرها .

ثالثا : طرحت المبادرة كثيرا من القضايا والمواقف ، وناقشت شرعيتها ، فوجدت أشياء تحتاج لتوضيح لما ألصق بنا فيها من اتهامات نتيجة أخطاء حدثت من بعض أفراد الجماعة كانت تحتاج إلى تصويب وتصحيح .

رابعا : المبادرة كانت استجابة لرؤية تستبصر الواقع من حولنا على الصعيد الداخلي في مصر وعلى الصعيد الخارجي في العالم ، وما نلقاه جميعا من تحديات تواجه العالم العربي والإسلامي أفرادا وحكومات ، وكان إنهاء العنف هو الاستجابة الوحيدة اللازمة لمواجهة هذه التحديات ، وأبرز تلك التحديات ما يلي :

١- الخطر الناشئ عن محاولات تسييد الحضارة الغربية على حساب هويتنا العربية والإسلامية من خلال ما يسمونه العولمة . ونحن لا نرفض بالطبع عولمة التكنولوجيا والتقدم التقني ، وإنما نرفض عولمة الثقافة التي تصدر إلينا الأنموذج الغربي في القيم والأخلاق على حساب هويتنا الإسلامية ليحل أنموذج الحضارة الغربية بديلا لحضارتنا الممتدة عبر السنين .. وكذا الخطر الناشئ عن مقولات مفكري الغرب عن صدام الحضارات ونهاية التاريخ والتي تمثل البعد الفكري لتلك العولمة .. ولا يخفي أن استمرار أحداث العنف في البلاد كان يصب في خانة إضعاف الأمة في مواجهة قيم العولمة وكان يعطي المبرر للهجوم على ثقافتنا وهويتنا باعتبارها ثقافة عنف وإرهاب .

٢- الخطر الناشئ عن الحصار والسعي لاستئصال الظاهرة الإسلامية في العالم سواء دولا أو جماعات أو أفرادا ، وذلك بدعوى محاربة الإرهاب وحصاره . واحتلال أفغانستان بهذه الدعوى أكبر مثال على ذلك ثم ما تبعه من مطاردات وتهديدات وحرب إعلامية فاجرة وحشود عسكرية وتلويح بالتدخل العسكري في بلاد إسلامية أقربها إلى تنفيذ هذا التهديد العراق والبقية تأتي . وكان الاقتتال الدائر

يصب في خانة إيجاد المبررات لهذه المطاردة والحصار الذي لا يزال العالم الإسلامي والبلاد الإسلامية تعاني منها دون غيرها من البلاد .

٣- السعي الإسرائيلي الحثيث لقيادة المنطقة والسيطرة الاقتصادية والفكرية على بلادنا - كما يحلم حزب العمل وقوى اليسار الإسرائيلي .. أو السيطرة العسكرية وإقامة دولة إسرائيل الكبرى - كما يريد تكتل الليكود وقوى اليمين هناك . وتستخدم إسرائيل ضمن أسلحتها في تحقيق تلك الهيمنة التحريض على التيار الأصولي والسعي للضغط على الدول المحيطة بدعوى مطاردة التطرف والإرهاب ، وتجعل من ذلك مبررا لجرائمها في حق إخواننا الفلسطينيين أو دول الجوار وأولها مصر . ولا شك أن استمرار الأعمال القتالية بين أبناء البلد الوحيد المؤهل للتصدي لمخططات إسرائيل التوسعية .. لا شك أنه يصب في خانة إنجاح المساعي التي تسعى لتهميش دور مصر في المنطقة وفي الصراع العربي الإسرائيلي على الأخص ، وذلك بالانكفاء على مشاكلها الداخلية واتخاذ تلك الأحداث المشتعلة ذريعة لاستئصال تيار وطني صادق وجاد يمكن أن يكون إضافة حقيقية للقوى المواجهة للتوسع الصهيوني في المنطقة .

٤- الخطر الناشئ عن محاولات بعض أقباط المهجر لتوظيف تلك الأحداث لزيادة الضغوط الدولية ضد مصر وخاصة الأمريكية ، وذلك لتحقيق مكاسب غير مستحقة ولا مشروعة بدعوى تعرض الأقباط للاضطهاد من الجماعات الإسلامية والحكومة المتسترة عليهم - كما يزعمون - مستغلين بعض الأحداث الفردية المتباعدة أو حتى بدون أحداث .. وخطورة هذه أنها تجيء في وقت تسعى فيه بعض القوى العالمية لتمييز الأقليات وتحريضها ضد حكوماتها كوسيلة للضغط على هذه الحكومات لتحقيق مصالح تلك القوى وهي بلا شك لعبة استعمارية قديمة تتجدد من آن لآخر والتي بلغ الأمر ببعض أقباط المهجر أن يطالبوا بتدخل الأمم المتحدة لحماية الأقباط أو بتدخل أمريكا وذلك بتطبيق قانون الاضطهاد الديني الذي أفلح الأقباط بالضغط على أعضاء الكونجرس في استصداره ليكون ذريعة

لتلك التدخلات .. والحق أن أحداث العنف السابقة ، ورغم أنها لم تكن موجهة ضد الأقباط إلا أن أولئك الخونة من أقباط المهجر اتخذوا منها ذريعة للهجوم على بلدهم والتحريض عليها لابتزاز حكومة بلدهم لتحقيق مكاسب رخيصة لا يستحقونها في الوقت الذي ينعم فيه الأقباط في بلادنا بما لا تنعم به أي أقلية في العالم حتى وصفهم بعض أقطابهم من القبط بأنهم الطائفة المدللة .

٥- الخطر الناشئ من احتدام الصراع بين دعاة الفكرة الإسلامية وبعض دعاة العلمانية المتطرفين والذين ارتفعت أصواتهم – وهم قلة رغم ما يثيرونه من ضجيج – لتحريض السلطات ضد كل ما هو إسلامي حتى أصول العقيدة نفسها مستغلة تلك الأحداث للسعي لاستئصال الظاهرة الإسلامية ومظاهر التدين في مصر الإسلامية والتضييق على الدين نفسه . ورغم فشل تلك المحاولات المسعورة في زحزحة الشعب المصري عن تدينه والتزامه بدينه وعقيدته أو في تعويق ذلك الانتشار الهائل لمظاهر التدين ، إلا أنه كان من الضروري أن تنتهي تلك الذريعة التي يجعلونها مدخلا لتلك الدعوى ومبررا لتحريضهم .

٦- الخطر الناشئ عن الاضطراب المتزايد في المشهد الاجتماعي في مصر من خلال بروز ظواهر اجتماعية خطيرة في الفترة الأخيرة – لم تكن موجودة من قبل – تؤثر في تماسك نسيج المجتمع المصري المسلم وتحتاج إلى تضافر جميع القوى المخلصة لمواجهتها وعلى سبيل المثال ، مثل :

العنف المجتمعي كالبلطجة مثلا وتزايد جرائم القتل والاعتداءات وكذا دعاوى الإباحية بمظاهرها الشاذة والغريبة كل الغرابة على مجتمعنا مثل : « عبدة الشيطان وظهور قضايا الشذوذ الجنسي وانتشار المخدرات والزواج غير الشرعي وكذا الفساد المالي والإداري وغيرها .. » وهذه المظاهر أكثرها لم يكن موجودا في مجتمعنا من قبل وما كان فيه موجودا لم يكن يمثل ظاهرة وإنما كان يجيء استثناء وكان المجتمع من قبل ينظر إليه باستنكار ويتصدى له أفرادا ومؤسسات .

والحقيقة أن استمرار تلك الأحداث كان يمثل في نظرنا تقصيرا في مواجهة تلك الظواهر ، وذلك لانشغال كل أطراف المجتمع القادرة بفاعلية على هذه المواجهة في العنف والعنف المضاد وغياب دعاة الدين ما بين سجين أو خائف من السجن ، وانشغال أجهزة الأمن عن هذه الظواهر بتلك الأحداث .

أما على صعيد الجماعة فلا شك أن هذه الأحداث كان من شأنها أن تزيد من أزماتها ، سواء بمضاعفة أعداد المعتقلين والذي وصل إلى أرقام كبيرة ، أو المحكوم عليهم ، وكذلك أثر تأثيرا سلبيا على أسر هؤلاء وهؤلاء وزاد من معاناتهم بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الحركات الإسلامية . وكذا أثرها على الدعوة والدعاة إلى الدين وتعويقها ، بل ووأدها نتيجة الحملة الهائلة ضدهم دعائيا وأمنيا . بل إننا لاحظنا في ظل التضييق والمطاردة والضغوط تسرب بعض الانحرافات في المفاهيم الإسلامية لبعض أبناء الجماعة ، حتى أصبح البعض ينظر للجماعة وكأنها تتمحور حول مفهوم الجهاد دون بقية الدين - وليته كان في موضعه الصحيح - وأن الجهاد هو غاية عملنا ودعوتنا متجاهلين النشاط المجتمعي الكبير الذي قامت به الجماعة ، ونظرتها الشمولية في التعامل مع مبادئ الإسلام ، وأن الجهاد وهو فرض مثل باقي فروض الدين ، إنما يكون حين قيام أسبابه وشروطه وانتفاء موانعه ، وأنه وسيلة لدفع العادية على الدين والأمة .

استنادا لتلك الرؤية الواقعية التي أوجزناها فيما سبق ، إلى جانب الرؤية الشرعية التي عرضناها في مصنفنا عن المبادرة ، كان موقفنا الداعي لإنهاء تلك الأحداث .

○ ○ ○

السؤال الرابع عشر : إن ما تقولونه الآن ، ونشر على ألسنتكم في الكتب وفي الصحف والمجلات هو نفس ما تقوله جماعات أخرى تعمل على الساحة مثل جماعة الإخوان وجماعة السلفية وغيرهم . فهل نستطيع أن نقول إن ما بينكم من خلافات قد زال الآن ؟ أو بمعنى آخر ما الفرق بينكم وبينهم في دعوتكم ؟ وما

قولكم فيما نشرته أخيرا بعض الصحف من أن الحكومة سوف تستخدمكم للتصدي للإخوان المسلمين أو تحجيم دورهم في المجتمع ؟

نقول : إن السؤال بهذه الطريقة فيه خطأ منهجي ، فكل الجماعات التي تعمل على الساحة ممن يحملون عقيدة أهل السنة والجماعة إنما تهدف - إذا صدقت النوايا - إلى إقامة الدين في قلوب أبناء مجتمعهم وإن اختلفت الاجتهادات في طريقة سعيهم نتيجة اختلاف المدارك والأفهام والتجارب والخبرات .

والصحيح أن يسأل السائل ، ما مدى مطابقة ما تقولون لكتاب اللّه وسنة نبيه صلى اللّه عليه وسلم بفهمهما الصحيح الذي بينه سلفنا الصالح ؟ فما وافق الكتاب والسنة مما قلناه فنحن نسعد بقوله ونسعد أيضا أن يقوله غيرنا ويدعو إليه ونمدح فعله هذا .

أما ما خالف النهج الصحيح فإننا أول من يرمي به إلى عرض الطريق وإن ردده وقاله من قاله كائنا من كان .

ونحن قد نختلف مع غيرنا من الجماعات في أشياء هي محل الاجتهاد ونعذرهم في فهمهم ونسعى لتقويم ما نراه عندهم مجانبا للصواب بالحوار الهادئ الذي يسعى لسد الخلة وتصحيح المسير إلى اللّه . وقد نتفق معهم أيضا في أشياء أخرى مما هي محل للاجتهاد نحمد اللّه على ذلك ونسأله أن يزيد من مساحة الاتفاق . والساحة بعد ذلك تتسع لعمل كل المخلصين للدين الساعين لنشره . بقيت مسألة هامة تحتاج أن نضع تحتها خطوطا آثارها في أنفسنا مثل هذا السؤال ، وهو حرص كل جماعة على أن تتمايز عن غيرها من الجماعات ولو أدى ذلك في بعض الأحيان إلى التجاوز عن بعض الباطل أو دفع بعض الحق ، وهي آفة خطيرة تحتاج للفت الأنظار إليها . فليس من المعقول لجماعة تسعى لإقامة الدين وتلتزم شريعة الإسلام أن تسعى لإراقة دماء أبنائها ودماء المسلمين من أجل أن تتميز عن غيرها .. ولا يمكن بالطبع للجماعة الإسلامية أن ترى الحق والخير والصواب في التوقف عن

القتال وحقن الدماء ثم تحجم عن هذا حتى لا تتهم بأنها تردد مقولات غيرها من الجماعات .. فإن العمل - ومنه القتال - لابد لكي يكون مقبولا عند الله أن يكون صوابا موافقا للنهج النبوي الصحيح ، وأن يكون خالصا لله وفي سبيله ، وليس من الشريعة باب يجيز القتال من أجل التمايز عن الآخرين .

ولذلك كان قول القائل : « إذا كنتم توقفتم عن القتال ، فماذا يميزكم عن غيركم ؟ » هو قول يفتقر إلى النهج الشرعي القويم ، فإن قضية التميز هذه لم تكن مطروحة في أذهان أبناء الجماعة لا عند ابتداء القتال ولا عند وقفه - ولله الحمد والمنة - بل إننا يسعدنا أن يوافقنا غيرنا أو نوافقه فيما هو من نهج النبي صلى الله عليه وسلم ويسرنا أن تنتشر الدعوة الصحيحة بين الناس ، ورحم الله الشافعي حين يقول :

« لوددت أن هذا العلم انتشر بين الناس ولم ينسب لي منه شيء » ، وما أعظم مقولة الصديق رضي الله تعالى عنه : « وددت أني شجرة تعضد وتؤكل وأن الناس جميعا قد اهتدوا »[1] .

فنحن ندور مع الإسلام حيث دار ، فإن أصاب الحق غيرنا فنحن أول من يقوله صغيرا كان أو كبيرا قائله ، ولا ننظر إليه من أين يأتينا ، وهو درس تربوي هام

---

(١) أورده الأستاذ / محمد رضا في كتابه : « أبو بكر الصديق » بلفظ : ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل . ورواه ابن أبي شيبة في المصنف [٧ / ١٢٣ / ٣٤٦٨٢] موقوفا على أبي ذر رضي الله تعالى عنه بلفظ : والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ، ولو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ولا تقاررتم على فرشكم ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون ، والله لو أن الله خلقني يوم خلقني شجرة تعضد وتؤكل ثمرتي .

ورواه الإمام أحمد في المسند [٥ / ١٧٣] عن أبي ذر رضى الله تعالى عنه بلفظ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم على أو إلى الصعدات تجأرون إلى الله . قال : فقال أبو ذر رضى الله تعالى عنه : والله لوددت أني شجرة تعضد .

ينبغي أن ينتبه إليه المربون ويعلموه لأبنائهم .. « خذوا أحسن ما عند الآخرين ، واستغفروا الله لهم فيما سوى ذلك » .. فإن من يعمل عملا لمجرد التمايز إنما يقع في آفتين خطيرتين :

مخالفة الشرع وسوء القصد ، وإن كان هذا لا ينبغي ؛ التنافس المشروع في عمل الخير بالنية الصحيحة الصادقة .

بقيت دعوى بعض الشيوعيين من أن الجماعة الإسلامية إنما ستكون مخلب النظام في التصدي للإخوان المسلمين وتحجيم دعوتهم ، وهم إنما يقصدون من ذلك بالطبع بث بذور العداوة بين الجماعات العاملة للدين وإثارة النزاع بينهم .

والذي يعرفه القاصي والداني أن الجماعة التي يكال لها الضربات ، وهي التي يسعى الجميع لتحجيم دورها والتضييق عليها ، والمعروف أيضا أننا لا نضع أيدينا في أيدي غيرنا إلا لتحقيق مصالح الإسلام العليا ومصالح البلاد العليا ، وليس من منهجنا أن يستخدمنا غيرنا كمخلب قط يتصدى به للآخرين أو يسعى لتحجيمهم . كيف ولو كان هذا الآخر هو جماعة تدعو إلى الدين وإن اختلفنا معهم ما اختلفنا حول أساليب الدعوة .

○ ○ ○

السؤال الخامس عشر : هل في المبادرة بنود سرية أو اتفاقات تحتية بين الجماعة والحكومة ؟ أم أن كل ما ظهر منها هو كل ما هنالك ؟

أولا : المبادرة كانت من طرف واحد لرؤية شرعية وواقعية قد ارتأيناها بعد طول بحث ودراسة وبعد تجربة طويلة رأينا أنها الحق الموافق للنهج الإسلامي الصحيح ، فأطلقناها دون أن نعلم بذلك أحدا قبل إطلاقها من مؤسسات الدولة . بل إن أجهزة الدولة توقفت طويلا قبل أن تفكر في التجاوب معها أو تثق فيها أو فيمن أطلقوها .

ثانيا : إن المبادرة قد عانت من مشاكل كثيرة ، كادت تودي بها حتى تم

تفعيلها مؤخرا بعد مرور سنوات خمس على إطلاقها لم يكن فيها شيء ذو بال على صعيد تحريك الأمور إلا من محاولات مد جسور الثقة بين الطرفين بعد سنين طويلة من الاحتراب الذي كان قد مزق تلك الجسور وحفر فجوة عريضة كان من الصعب ردمها .

ثالثا : وهو الأهم ، أنه ليس من أسلوبنا كجماعة أن يكون لنا وجهان وجه نواجه به الناس والإعلام ووجه آخر نتحدث به في الغرفات المغلقة أو نتفق به مع هذا أو ذاك . بل إننا اعتدنا أن نطرح ما لدينا كاملا وبوضوح وصراحة ، ونطلب من الجميع أن يشاركنا الرأي بالحوار والنقاش والتصويب ، وكثيرا ما كان الحوار مضيفا ومقوما ومحفزا للفكرة ولا نخشى من ذلك شيئا خاصة وأننا لا نملك ما نخشى منه أو نخاف من نشره ، ونحن - بحمد اللّٰه وفضله - نملك الشجاعة لتحمل مسئولية ما نقول ونفعل أمام الجميع ونحرص على أن يكون تحركنا على نهج شرعي قويم ، ونثق تماما أن إخواننا سوف يثقون فينا كما نثق فيهم ويخلصون لنا كما نخلص لهم ويسعون معنا لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين .

○ ○ ○

السؤال السادس عشر : ما هو الفارق بين مبادرتكم والتوبة ؟ ! .. ولماذا لا تكون هذه المبادرة توبة جماعية ؟! .. وهل نقول إن مبررات رفضكم لموضوع التوبة سقطت بهذه المبادرة ؟!

التوبة ، هي صيغة كتابية في صورة إقرار كانت أجهزة الأمن تطلبها من المعتقل يثبت فيها التبرؤ من كل ما فعله من أعمال وتجريمها والتعهد بعدم تكرار ذلك مع التعاون مع أجهزة الأمن عند الحاجة إليه فيما يسند إليه من أعمال .

والحق إن إقرارات التوبة هذه فكرة ولدت ميته لم تلق استجابة ولا تجاوبا من الجميع لأنها صورة شكلية للتراجع تظهر صاحبها بمظهر المنهار أو المتخاذل المتخلي عن ثوابته وأصوله ، والفارق بين المبادرة والتوبة يتمثل في أشياء خمسة :

الأول : هو أن التوبة إقرار للحكومة والدولة بكل شيء تدعو إليه حقا كان أو باطلا بل وتعهد بالتعاون معها في ذلك . أما المبادرة فهي رؤية شرعية تصحح مفاهيم لم تكن صحيحة أو واضحة مع تعهد بالتعاون والمشاركة في كل ما وافق الشرع من أعمال ومعارضة ما يناقض الشرع ولكن بالطرق السلمية .

الثاني : التوبة ، هي إقرار بالخطأ في كل ما مضى من أعمال بغض النظر عن صحة أو خطأ هذه الأعمال مع تعهد بترك ما صح منها وما لم يصح . أما المبادرة فهي مسألة شرعية تصحح ما في الأعمال السابقة من صحيح وتقول بخطأ ما كان مخالفا للشرع وتسعى في تقويمه .

الثالث : التوبة ، تحمل الكثير من عدم الوضوح ، بل والخداع ، فليس من المعقول أن يدعي شخص أن كل ما كان يعمله خطأ وأن يقر بذلك ويكون في داخله صادقا ، بل إن كل إنسان لا بد في أعماله من خطأ وصواب ، ومن ادعى غير ذلك فهو مخادع ويظهر بغير ما يعتقد ، وبالتالي فكلامه لا يوثق به ما دام قد اتضح خداعه وتضليله . أما المبادرة ، فواضحة وضوحا تاما ، ما كان من صواب قلنا إن هذا صواب ولم نتبرأ منه ، وما كان محتاجا لتصويب سعينا في تصويبه التزاما بأمر الشارع الحكيم .

الرابع : أن التوبة : توجب على صاحبها أن يخرج إلى المجتمع سلبيا لا يمارس أي دور في الدعوة إلى الله والسعي لهداية الناس وتبصيرهم بالدين . أما المبادرة ، فهي دعوة إلى تصحيح مسار الداعي إلى الله بحيث يدعو على بصيرة من الهدى النبوي الصحيح ، وهي حث على هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

الخامس : التوبة : عمل فردي يرمي به الإنسان لتخليص نفسه من أزمة وجد نفسه متورطا فيها ولو بالتخلي عن كل شيء أو أي شيء ضاربا عرض الحائط بكل شيء . أما المبادرة ، فهي رؤية جماعية اشترك في تجهيزها أهل العلم ، وعرضوا مفرداتها أولا على العلماء ، ثم دعوا إليها الآخرين من إخوانهم لكي يشاركوهم فيها مستندين إلى أدلة واضحة من الكتاب والسنة .

هذا فضلا عن أن المبادرة كانت من طرف واحد دون طلب من أحد أو ضغط لتحقيقها لأنها كانت مراجعة لمسيرة الجميع الغرض منها تقويم وضبط وتبيين أشياء من مسيرتها كانت تحتاج لذلك ، وذلك بغض النظر عن موقف النظام منها وتجاوبه معها أو عدمه ، وهذا خلاف التوبة .

فالأهداف مختلفة ، والوسائل مختلفة ، والطريق مختلف ، وأصحاب كل منهما يختلف عن الآخر .

○ ○ ○

السؤال السابع عشر : هل تم بالفعل حل الجناح العسكري للجماعة الإسلامية ؟ وما هي أسباب ذلك ؟ وكيف ستقيمون دولة الإسلام بدون الجناح العسكري أو بدون قوة ؟

○ نعم ، تم حل الجناح العسكري لأن وجوده يتناقض تناقضا تاما مع التوجه السلمي والدعوة لإنهاء العنف .. فالمبادرة تعني السلام وحسن الظن وإحساس الأطراف جميعا بالأمان ، وهذا شيء يتناقض تماما مع وجود جناح عسكري بما يعنيه ذلك من تربص وتحفز .

ثم إنه لا توجد دولة ذات سيادة تسمح بوجود ما يعد خرقا لقانونها وتجاهلا وتعديا على سيادة الدولة ، وبالتالي فالجناح العسكري خرق لسيادة الدولة واستعداء لها فضلا عما يسببه وجوده من فتنة بين طوائف المجتمع .

لهذه الأسباب ولتحقيق الأمن بالمجتمع وإعطاء الدولة دورها في ممارسة سيادتها على مواطنيها كان طبيعيا أن يحل الجناح العسكري .

أما عن إقامة الدولة ، فيخطئ كثيرا من يعتبر أن إقامة الدولة هدف يسعى الجميع له .. فالأمر الرباني كان بإقامة الدين ، والدولة كانت وسيلة لذلك ، ولكن الأصل هو أن يكون السعي لإقامة الدين ، والفارق هنا أنه عند التعارض بين السعي لإقامة الدولة والسعي لإقامة الدين يكون السعي لإقامة الدين هو المقدم .

ولقد أقام صلى الله عليه وسلم الدين وأقام الدولة ، ولم يستخدم في ذلك سلاحا ولا جناحا عسكريا ، ولم يكن له جنود ولا جيش إلا بعد أن قامت دولته بالمدينة واحتاج الجيش ليرد العادين الخارجين على أمته ، أما في مكة فقد كان يصبر ويأمر أصحابه بالصبر حماية للمجتمع من الفتن وإسالة الدماء دون جدوى .. ونقصد بذلك أن إقامة الدين له طرق أخرى كثيرة غير السلاح والعنف ينبغي عدم تجاهلها ولعلها هي الأقرب للسنة وللهدي الصحيح في أكثر الأحيان .

ooo

السؤال الثامن عشر : أخرجتم لنا هذه الكتب وذكرتم فيها كثيرا من الفتاوى الشرعية والأحكام الفقهية فهل تحققت أهلية الفتوى فيمن كتبوا هذه الكتب ؟ وما هي مواصفات المجتهد الذي يحق له أن يفتي في أمر الدين ويبين أحكامه ؟

الأصل ألا يفتي الناس إلا العالم المجتهد الذي حصل أدوات النظر في الأدلة كما سنفصلها - إن شاء الله - فيما بعد ، فإن لم يوجد فيفتي أعلم المقلدين الحاضرين ولا يحق لمن لم يحصل هذه الدرجة أن يتصدى للفتوى ولذلك كان لزاما علينا أن نحدد ما هو الاجتهاد ومن هو المجتهد الذي يحق له ذلك .

الاجتهاد عند أهل اللغة : هو بذل الجهد في تحقيق أمر فيه مشقة .

أما تعريفه عند أهل الاصطلاح : فهو بذل الطاقة من الفقيه في تحصيل حكم شرعي ظني ، والاجتهاد عند جمهور الأصوليين يتجزأ بمعنى أنه يمكن أن يكون هناك مجتهد في باب من أبواب الفقه دون سواه أو في مسألة دون سواها ، ويظل المجتهد يتدرج في مستويات الاجتهاد بقدر ما يحصل من العلم حتى يصل إلى درجة المجتهد المطلق من أمثال الأئمة العظام الشافعي ومالك والأوزاعي وبين الدرجة الدنيا - مجتهد المسألة - والدرجة العليا - المجتهد المطلق - درجات يدركها المجتهد بقدر علمه الدرجة ولتحصيل الدرجة الدنيا من مراتب الاجتهاد

ينبغي أن تتوافر الشروط الآتية في كل من تصدى للاجتهاد ليكون أهلا لذلك .

أولا : ينبغي أن يكون مسلما عدلا مدركا لمقاصد الشريعة وعلل الأحكام في نظر جيد وبصيرة ثاقبة .

ثانيا : أن يعلم من علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والبديع والمجاز والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد ودلالات الألفاظ والغريب وغيرها بالصورة التي تجعله يتكلم اللغة كأهلها ويدرك مرامي أصحابها ومقاصدهم .

ثالثا : أن يعرف وجوه القياس وشرائطه المعتبرة وعلل الأحكام وطرق استنباطها من النصوص ، ومصالح الناس وغيرها مما يسميه العلماء علم أصول الفقه بإجادة تسمح له باستخدامه في الاستنباط .

رابعا : أن يعرف معاني آيات الأحكام المذكورة في القرآن الكريم لغة وشرعا ولا يشترط حفظها عن ظهر قلب بل ولا حفظ سائر القرآن إنما يكفي أن يكون عالما بمواضعها حتى يرجع إليها وقت الحاجة وقد حدد الغزالي وابن العربي والرازي رحمهم الله عدد هذه الآيات الدالة على الأحكام دلالة أولية بالذات لا بطريق التضمين والالتزام بحوالي خمسمائة آية غير معرفة الأحكام من آيات القصص والأمثال ومعرفة معاني الآيات لغة أي مفرداتها وتراكيبها وخواصها في إفادة المعنى والعلل والمعاني المؤثرة في الأحكام وأوجه دلالة اللفظ على المعنى وغير ذلك .

خامسا : أن يعرف من أحاديث الأحكام كما عرف من الآيات ولا يلزم كذلك حفظهما ولا حفظ جميع أحاديث السنة إنما يكون متمكنا من الرجوع إليها عند الحاجة . وكذا معرفة السند متواتره ومشهوره وآحاده وحال رواته ليعرف صحيحها من ضعيفها ولا يلزم كسابقه حفظ الرجال وإنما يكفي التمكن من معرفة صحيح الحديث من ضعيفه .

سادسا : ينبغي أن يعرف مواضع الإجماع – لا حفظها – بحيث لا يفتي بما يخالف الإجماع .

سابعا : ينبغي أن يكون له إلمام عام بعلوم عصره حتى يفهم الواقع بصورة صحيحة تسمح له بتحقيق مناط الأحكام بصورة صحيحة ولا ينبغي أن يتصدى للفتوى إلا بعد أن يتدرب على تحقيق المناط ـ تنزيل الحكم على الواقع ـ على يد أهل الخبرة في ذلك ولا يفتي إلا بعد أن يكون في تدريبه يصيب أكثر مما يخطئ .

فإن حصل ما أشرنا فإنه يكون في أدنى درجات الاجتهاد .. هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى نوع من الاجتهاد لا يحتاج إلى دراسة اللغة والأصول وغيرها وهو تحقيق المناط إذ أنه اجتهاد يعنى بتحقيق وجود شروط الحكم على الواقعة المراد الحكم عليها .

والاجتهاد بمعناه السابق والذي يسمح لصاحبه بأن يجتهد ويفتي فيما بحثه من مسائل ونظر في أدلته متوفر ببعض أبناء الجماعة وخاصة أولئك الذين أعدوا هذه الدراسات وبذلوا جهدهم من دراسة أدلتها وما قاله السابقون فيها .

ومع هذا فقد تم عرض هذه الدراسات على مجمع البحوث الإسلامية وهو أعلى مجمع علمي في مصر بل قل في العالم الإسلامي كله ـ حيث أقرها ووافق عليها وعلى ما فيها من فتاوى وأصدر بذلك تقاريره المرفقة بالكتاب والتي تنفي الخلل عنها .

وعليه فأهلية الفتوى بحمد الله متوفرة فيمن أعد وكذا فيمن أقر هذه الدراسات .

وإليك نبذة مختصرة من تقرير مجمع البحوث الإسلامية تعقيبا على الكتب الأربعة :

أولا : نبذة من التقرير حول كتاب :

« **الأدلة الشرعية لمبادرة وقف الأعمال القتالية** » يقول التقرير :

هذا الكتاب يعتمد على أفكار علمية ودينية مدعمة بالأدلة القوية من الكتاب والسنة وأدلة أصول الفقه والقياس عليها من أن وقف الأعمال القتالية دفع للضرر لأن القتال يسبب ضررا كبيرا للأمة وليس فيه مصلحة محققة وأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

ثم يضيف قائلا : النتيجة التي ينتهي إليها الكتاب طيبة ولا بأس بها ومرغوب

فيها وهي منع القتال بين الشرطة وبين الجماعات الإسلامية ، وفيها خدمة ومصلحة شرعية للدعوة الإسلامية تحقق الأمن والسلام بين المسلمين وتوحد الأمة أمام أعدائها الحقيقيين ، كما تؤدي هذه النتيجة إلى الصلح بين المسلمين والصلح خير ، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا .

ثم يوجز التقرير في البحث قائلا : وبعد المراجعة الدينية والعلمية والتصحيح لهذا الكتاب نستطيع أن نقول : يمكن أن ينشر هذا الكتاب – بعد التعديل – لأنه يعود على الأمة الإسلامية بالأمن والأمان ، ويصحح المفاهيم الخاطئة عند الكثيرين من الناس وبخاصة الجماعات الإسلامية لتعود إلى الرشد والحق والعدل والصواب بعد معرفة هذه الأدلة القوية ويمتنعوا عن الأعمال القتالية نهائيا ، وبذلك يتم حفظ دماء المسلمين وتطفأ نيران الفتنة .. والله ولي التوفيق .

ثانيا : نبذة من تقرير مجمع البحوث الإسلامية حول كتاب :

« النصح والتبيين في تصحيح مفاهيم المحتسبين » .

يقول التقرير : بين الباحث أن من أهم الأسباب التي تحافظ على كيان المجتمع وتجعله كالبنيان المرصوص هي : نظام الحسبة في الإسلام وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحماية المجتمع من الداخل من أبنائه إذا حادوا عن تعاليمه فيحمي العقيدة والفكر من الابتداع ويحمي الشريعة من التحريف والتزييف ، لذلك كان لتلك الفريضة أثرها العظيم في تربية الفرد والمجتمع وهي فرض كفاية لقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وهي ما تطورت إلى جهاز الشرطة في هذه الأيام .

ويضيف التقرير : وذكر في الباب الثاني وهو النهي عن الظن .. وأن إفلات جريمة من العقاب سترها الله تعالى بحسن الظن خير ألف مرة من ظن سيئ قد يوضع في غير موضعه يوغر الصدور ، ويقضي على الثقة ويمزق وشيجة المحبة بين الأفراد . وذكر في الباب الثالث ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ إن التجسس هو أول ثمرات

الظن المشئوم .. وذكر في الباب الخامس « لا ضرر ولا ضرار »[1] بين الباحث أن الإسلام وقاف عند الحدود لا يتعداها إلى غيرها ، فيقول صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » هذه القاعدة الأصولية الشاملة في الإسلام من أعظم القواعد التي تجعل المجتمع الإسلامي مثاليا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وذكر في الباب السادس أنه لا يصح للمحتسب أن يحمل الناس على مذهبه لأن العلماء اختلفوا في الفروع اختلافا كبيرا ولكل دليله وفهمه ، وهذا لا يؤثر في جوهر الدين وإنما الاختلاف المؤثر هو ما يكون في الأصول والفروض وفي العقائد أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة .. وذكر في الباب السابع أن أهم آداب المحتسب أن يكون متحليا بالرفق والصبر والعلم .. وذكر في الباب الثامن أن المحتسب يجب عليه أن يعامل والديه معاملة طيبة وليس له أن يأخذهما بذنب أو معصية .. وذكر في الباب التاسع أن المحتسب إذا تيقن أنه يعرض نفسه للبلاء أو المهانة أو الإذلال فعليه ألا يعرض نفسه لذلك إنما ينكر بقلبه .. ومن الباب العاشر إذا ظن المحتسب أن المنكر لا يزول بل سيتحول بحسبته إلى منكر أعظم فلا يصح له أن يتعرض وإنما الواجب عليه أن يدعو إلى الله على بصيرة .

ومن الباب الحادي عشر : نهى عن التصدي للانحراف باليد لأن ذلك لا يكون إلا للقاضي لأنه هو الذي من حقه أن يحكم على الجاني بما يراه من العقوبة أو التعزير ..

وذكر في الباب الثاني عشر نماذج سيئة من التجاوز في الحسبة أتت بالعكس من المقصود من دفع المنكر .

وبعد استعراض سريع ومكثف لهذا البحث خلص التقرير إلى النتيجة الآتية :

هذا البحث بحث قيم ، بين آداب المحتسب وسلوكه والطريقة التي يتبعها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجميع شواهد البحث صحيحة من القرآن والسنة

---

(١) رواه ابن ماجه [٢٣٤٠] مرفوعا عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه ، ورواه أيضا [٢٣٤١] ، وأحمد في المسند [١ / ٣١٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وقال الألباني : صحيح .

النبوية وأرى إجازة هذا البحث لأنه لا يمس العقيدة ولا يتعارض مع الثوابت . واللّه من وراء القصد أ.هـ

ثالثا : نبذة مختصرة من تقرير مجمع البحوث الإسلامية عن كتاب :

« حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين » .

يقول التقرير : تحدث الباحث عن سبب نشوء هذه الظاهرة « ظاهرة التكفير » في مصر فنسبها إلى ما حدث من شدة التعذيب الذي كان يلاقيه الإخوان المسلمون في السجون ولم يجدوا أنهم فعلوا ذنبا يستحقون عليه كل هذا التعذيب فقالوا : لا يمكن أن يصدر هذا من مسلمين مثلنا فلابد أنهم كفار ، والحاكم الذي يمثلونه كافر مثلهم والمجتمع الذي يؤيدهم كافر كذلك ، وظهر هذا القول على لسان جماعة عرفت بجماعة « التكفير والهجرة » وكان ذلك في الستينيات في السجن الحربي ثم تكلم عن الغلو في الدين وأسبابه ومظاهره : فالغلو هو تجاوز الحد المطلوب شرعا وسبب تحريمه : أنه لا تحتمله الطبيعة البشرية وأنه قصير العمر فينتج أن ننتقل من الإفراط إلى التفريط .

وأضاف قائلا : ومن مظاهره – أي الغلو – التعصب للرأي وإلزام جمهور الناس بما لم يلزمهم به اللّه ، والتشدد في غير موضعه أي من غير زمانه ومكانه .

ثم يذكر التقرير أنه : من أسباب الغلو في الدين – كما ذكرها الشيخ القرضاوي – ضعف البصيرة بحقيقة الدين ومظاهر الجهل التي نراها في الاتجاه الظاهري في فهم النصوص لأن معرفة علة النص تساعد على فهم مقاصد الشرع .. كذلك منها الاشتغال بالمسائل الجزئية عن القضايا الكلية الكبرى وعدم الرسوخ في العلم يؤدي إلى الإسراف في التحريم .. ومن أسباب الغلو عدم التعلم على أيدي العلماء الذي يتيح المراجعة والمناقشة والأخذ والرد التي توسع المدارك ، ومن الأسباب ضعف البصيرة بالواقع والحياة والتاريخ وسنن الكون .

ويضيف التقرير : وعلى الوجه الآخر من الغلو هناك المفرطون من غلاة العلمانيين

يريدون نقل الناس خارج الشريعة وتحت دعوى أن الدين يسر ، فليس من معاني اليسر التحلل من الدين والوقوع في الفواحش والكبائر أو حتى الوقوع في الشبهات . والخلاصة أن الدين يضيع بين غلو المغالين وتهاون المقصرين .

ثم يذكر التقرير عرض البحث لموضوع تكفير عصاة المسلمين : إن الإسلام دين الوسطية فلا إفراط ولا تفريط وذكر وصية الإمام الغزالي : أن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه غير مناقضين لها ، فإن التكفير فيه خطر ، والسكوت لا خطر فيه .

ثم يمضي قائلا : ووضح المؤلف معنى الإيمان ومعنى الإسلام ومعنى الكفر وخلص في النهاية إلى أن من قال : لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه يعتبر مسلما يحقن دمه دون الحكم على سريرته ، ولفظ الكفر الذي جاء في القرآن أو الحديث عن بعض الناس مثل ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] فينقسم إلى قسمين كفر أكبر وكفر أصغر ، فالأول يخرج صاحبه عن الإيمان وذلك فيما لو أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة أما الأصغر فلا يخرج صاحبه عن الإيمان مثل عصاة المؤمنين .

وقال : الخلاصة أن من يقع في الكفر الأكبر المخرج من الملة سواء كان حاكما أو محكوما لا يصح تكفيره إلا بعد إقامة الحجة عليه والتي بمقتضاها يتم التأكد من ثبوت شروط الكفر وانتفاء موانعه ..

ويضيف : ثم انتقل إلى بدعة تكفير جهال المسلمين ورد على ذلك وقال : إن أهل السنة والجماعة يرون أن من أتى كفرا لا يكفر إلا بعد أن تقام عليه الحجة ، فهناك عوارض تسقط الأهلية للعبد مثل العوارض السماوية وهي : الصغر والجنون والعته والنسيان والنوم والإغماء والرق والحيض والنفاس والمرض والموت ، كما أن هناك عوارض مكتسبة مثل : الجهل والسكر والهزل والسفه والخطأ والإكراه فالعبرة ببلوغ العلم لكل جاهل أولا .. ثم تكلم عن الموالاة الممنوعة وغير الممنوعة فالأولى مثل حب الكفار وحب دينهم ونصرتهم أو التجسس لحسابهم على دولة الإسلام ،

أما غير الممنوعة مثل زيارة مريضهم ومعاملتهم بالإحسان والإهداء إليهم وتقبل هديتهم أو إكرامهم أو التصدق عليهم أو تهنئتهم . فهذا كله مخالفة بالحسنى ومطلوبة لأننا أمرنا ببرهم والبر أمر واسع لكل أفعال الخير .

وفي الختام حذر الباحث من تكفير المسلم ، وذكرنا بقول الإمام الغزالي : « إن الخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في تكفير مسلم وسفك دمه » والوصية أن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها فإن التكفير خطأ والسكوت لا خطر فيه .

ملحوظات : ليس في هذا البحث ما يخالف الدين أو العلم .

وأخيرا يختم التقرير تعليقه على هذا الكتاب بقوله :

لا مانع من نشر هذا البحث وتداوله حيث إن مثله مطلوب . أ.هـ

رابعا : تقرير مجمع البحوث الإسلامية عن كتاب :

« تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء » .

يقول التقرير : إن هداية الخلائق إلى الحق هي الغاية الأسمى للدعاة وهي أعظم غاية وإن الدعاة مهمتهم تحبيب الناس في ربهم وخالقهم وسوقهم إلى صراط الله المستقيم بأسهل وسيلة وأيسر سبيل ، أما الحسبة والجهاد فهما وسيلة لتعبيد الناس لربهم ولذا فإن هداية الخلائق مقدمة على الجهاد ، إذ أن الغاية مقدمة على الوسيلة فإذا تعارضت الغاية مع الوسيلة قدمت الغاية .

إنما شرع الجهاد في سبيل الله كي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فهذا هو الهدف الأسمى للجهاد فإذا أصبح الجهاد نفسه محدثا للفتنة في الدين ومانعا لتعبيد الناس لربهم وصدا للناس عن دعوة الحق وتخويفا للشباب من دعوة طاهرة نقية لم يحقق الجهاد بذلك مقصوده الأسمى ، وبذلك تكون هداية الخلائق وتعبيد الناس لربهم هي الأصل والجهاد فرع عليها .

ثم يضيف التقرير : استدل الكاتب على أن غاية الإسلام العليا هي هداية الخلق

إلى الحق بقوله صلى الله عليه وسلم لقريش : « .. ويخلوا بيني وبين الناس »[1] .
ذكر أن الصحابة رضوان الله عليهم عندما فتحوا البلاد كانوا يفتحونها فتح هداة وليس فتح طغاة ، وفتح رحمة لا فتح نقمة .

قارن بين فتوحات الصحابة وفتوحات الدولة العثمانية فقال : الدولة العثمانية حملت سيف الإسلام ولم تحمل هدايته ، وحملت قوة الإسلام ولم تحمل رحمته وتفهمت معنى الجهاد جزئيا ولم تتفهم معنى الدعوة إلى الله وهداية الخلائق بالمعنى الواسع .

ثم يقول التقرير : ذكر الكاتب أن الإسلام وضع سياجين كبيرين يعصمان أهل الإسلام من الانحراف بفريضة الجهاد عن هدفها ، وهو أن يكون الدين كله لله ، أو عن غايتها وهو أن يكون في سبيل الله وبين أن جهل البعض بالفهم الصحيح للفقه الشرعي للجهاد أوقعهم في إهلاك أنفسهم وضياع قومهم وخوف الناس من دعوتهم وإراقة دمائهم دون غاية فلم يحققوا هدفا ولم يجنوا ثمرة .

وذكر أن الجهاد في سبيل الله رغم فضيلته العظمى إلا أنه فرض من فرائض الإسلام الكثيرة وعلى المسلم أن يضعه في مكانه ويعطيه حقه فقط .. بين أنه من الخطأ أن يجعل الجهاد هو كل الدين وكأن الدين ليس فيه شيء سوى الجهاد أو أن الأمة لو لم تستطع الجهاد لسبب أو لآخر فكأنما ضاع كل شيء وذهب كل شيء .

عاب على الذين فهموا الجهاد فهما خاطئا فارتكبوا من أحداث أدت إلى أضرار خطيرة لسمعة الإسلام في الداخل والخارج .

ثم دافع عن تغيير رأيه في بعض المسائل بأن أئمة الفقهاء رجعوا عن بعض فتواهم في بعض المسائل عندما رأوا الصواب في غيرها وضرب مثلا في ذلك بالإمام الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهما .

ثم يمضي التقرير قائلا : وبعد المقدمة انتقل الكاتب إلى الباب الأول وعنوانه :

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٢٧٣٤] عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه .

« شرعية التغيير في الاجتهادات الفقهية » ويقول ما نصه : إن ديننا يصلح لقيادة العالم منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة لابد لهذا الدين أن يتحلى بقدر عظيم من المرونة ليصلح في جميع الأوطان وفي جميع الأزمان » ثم قال : فلا بأس إذن ولا حرج على الجماعات الإسلامية في مختلف البلدان أن يغيروا قليلا أو كثيرا من أقوالهم واجتهاداتهم السابقة إذا رأوا أن ذلك أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق أو رأوا في ذلك مصلحة عامة للإسلام والمسلمين . ثم ذكر أن القدسية في الإسلام لكلام الله عز وجل ثم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما ما عدا ذلك من اجتهادات وآراء وفتاوى وأفكار فهي قابلة للمراجعة وقابلة لأن يؤخذ منها ويرد .

ثم انتقل الكاتب إلى الباب الثاني وعنوانه : « تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء » وقسمه إلى سبعة فصول وجعل عنوان الفصل الأول « تصحيح مفهوم الجهاد – الجهاد وسيلة وليس غاية » .

وخلاصة هذا الفصل – كما ذكر الكاتب – أن الإصرار على القتال سواء كان في مصر أو غيرها من البلدان ما دام قد جلب من المفاسد العظيمة على الدين والدنيا ولم يحقق أي مصلحة تذكر لا في الدنيا ولا في الدين كان هذا القتال محرما وممنوعا شرعا وعقلا ثم انتقل الكاتب إلى الفصل الثاني من الباب الثاني وعنوانه : « حرمة إلقاء النفس في التهلكة » .

ثم قال : « ونقول لهؤلاء إن الله تعالى قد علم فيكم ضعفا فخفف عنكم ورحمكم فلم تحملون أنفسكم ما لا طاقة لكم به وما لم يفرضه الله عليكم » .

ثم سرد طائفة من أقوال العلماء تؤيد ما قاله وختم الفصل بهذه الخلاصة :

« إن إلقاء النفس في التهلكة نهى عنه شرعا وعقلا .. » .

ثم انتقل إلى الفصل الثالث من الباب الثاني وعنوانه : « حرمة قتل المدنيين من غير أهل المقاتلة والممانعة » .. وقال : لقد وضع الإسلام دستورا حربيا عظيما راعى

فيه المحرمات ألا تنتهك وأمر فيه بالعدل والقسط ثم ذكر مواد الدستور الحربي الإسلامي وهي :

١- لا يجوز قتل النساء والأطفال والشيوخ .

٢- لا يقتل الأعمى والذمي ولا الراهب ولا العبد ولا الفلاحون ولا الصناع .

٣- حرمة قتل المدنيين الذين ليسوا من أهل المقاتلة والممانعة .

٤- لا يجوز التمثيل بجثث القتلى .

٥- لا تهدم منازل المحاربين ولا تحرق محاصيلهم وزروعهم ولا تقتل دوابهم لغير مصلحة .

٦- الرحمة بالأطفال والصبيان .

٧- لا يقتل الرجل أباه ولا ذا رحم محرم .

٨- لا يجوز قتل رسل الأعداء .

٩- لا يقاتل الكفار والمشركون قبل دعوتهم إلى الإسلام .

١٠- لا يجوز نقض العهد

ثم انتقل الكاتب إلى الفصل الرابع من الباب الثاني وعنوانه :

« حرمة قتل المستأمن وقضية السياحة » . وقد ذكر أن من حق كل مسلم إعطاء الأمان شريفا كان أو وضيعا ، رجلا كان أو امرأة ، ثم استشهد على ذلك بالسنة الصحيحة ، ثم ذكر أن الأمان ينعقد بكل لفظ يفهم من معناه سواء كان صريحا أو كناية أو رسالة أو إشارة . ثم ذكر أن هذا ينطبق في عصرنا الحاضر على تأشيرة الدخول وعلى دعوات الآحاد من المسلمين التي توجه إلى أناس من المشركين للزيارة ونحوها وعلى عقود العمل أو استقدام الفنيين ونحوهم ثم قال : « إن السياح الذين يدخلون البلدان الإسلامية سواء بتأشيرة من الدولة للدخول أو بدعوة من الشركات السياحية أو من الأفراد والهيئات الأخرى فإن كل ذلك يعتبر أمانا » .

ثم يقول التقرير نقلا عن الكتاب : وقد أجاز الإسلام مصالحة البغاة والمرتدين

ونقل نصوصا من أمهات كتب الفقه تؤيد ما قال ثم قال : وبعد ! أَفَيَشُكُ شاك بعد ذلك في شرعية المصالحة مع قومنا الذين يتحدثون بألسنتنا ويصلون إلى قبلتنا ويأكلون ذبيحتنا ويتسمون بأسمائنا لوقف قتال المنتصر فيه مهزوم والمصلحة فيه منعدمة والمفسدة فيه غالبة ومتحققة ..

ثم انتهى التقرير إلى الخاتمة وكان مما ذكره فيه من رأى كالآتي : لقد كتبت هذه الرسالة من أجل الذكرى التي تنفع المؤمنين وتنفع الصالحين انطلاقا من قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] ثم قال : إن أحرى المسائل وأولى القضايا بالتدقيق فيها ولزوم الورع في تناولها والتأني في الخوض فيها هي مسائل الجهاد والتي تتعرض للدماء والأموال ، فعلينا أن نكل هذه المسائل لأهل العلم والاجتهاد ، ثم قال : « فالزم أيها الأخ الصالح العلماء الصالحين الصادقين الثقاة وزاحمهم بالركب في مجالسهم وكن مع أهل العلم في محرابهم ومع أهل الدعوة في هداية الخلائق ودعوة الناس إلى الخير » .

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨]

ثم خلص التقرير إلى رأيه في هذا الكتاب فقال : وبعد .. فأرى أنه لا مانع من تداول هذا البحث حيث إنه لم يشتمل على مخالفة عقدية أو شرعية كما أنه تضمن تصحيحا للمفاهيم الخاطئة لدى البعض من الشباب في فهم فقه الجهاد في الإسلام . والله الموفق أ.هـ

○ ○ ○

السؤال التاسع عشر : بعد توقف دائرة العنف والتركيز على أن العمل الدعوى هو أساس دعوتكم وأنه سبيل الجماعة للعمل للدين . فهل نفهم من ذلك أنكم سوف تقولون بجواز دخول المجالس التشريعية كوسيلة من وسائل العمل للدين ، وخاصة أن لكم كتابات سابقة تهاجم هذا الاتجاه ؟

هذه القضية فيها أصول شرعية محسومة تعد من ثوابتها ، وينبغي أن توضع دائما

في الاعتبار ، وفيها مسائل ظنية خاضعة لاجتهاد المجتهدين واختلاف الآراء حولها وتتدخل فيها متغيرات متنوعة عند الإفتاء فيها .

وتستمد هذه القضية أهميتها من تبني كثير من الاتجاهات لها تأييدا ومنعا ، ومن تداولها على ألسنة العلماء والمجتهدين على نطاق واسع ما بين موافق ومعارض ، خاصة وأنها صارت طريقا من الطرق القليلة التي تضفي شرعية قانونية ورسمية في وقت فقدت فيه أكثر الجماعات على الساحة تلك الشرعية ، فصارت متنفسا لهم في وقت عز فيه ذلك المتنفس وكذا صارت وسيلة ناجحة لإدارة حوار مع الآخر بصورة مباشرة مشروعة .

أما أبرز تلك الأصول الثابتة هي :

أولا : أن الحكم الأعلى هو للشرع لا غير وأن من ادعى لنفسه هذا الحق إنما ينازع الحق سبحانه السلطان ، وهذا لا يلغي حق البشر في التشريع ولكن ابتناء على حكم الله لا ابتداء من عندهم . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

ثانيا : أن المجالس النيابية في بلاد المسلمين إنما تستمد مشروعيتها من اعتبار الشريعة المصدر الرئيسي للتشريع ، وأن ما تصدره من قوانين يستمد مشروعيته من الشريعة الإسلامية كذلك ، وما خرج مصادما للشرع من هذه القوانين ساقط الشرعية ، وأن من يدخل هذه المجالس ينبغي أن تكون هذه دعوته فيها .

ثالثا : أن الديموقراطية الغربية فيها ما هو صالح إسلاميا وموافق لمبادئ الإسلام . كحق الشعب في اختيار حكامه ومحاسبتهم والرقابة عليهم ، بل وعزلهم عند الاقتضاء . وجانب آخر يأباه الإسلام أشد الإباء ، وهو إطلاق الحق في التشريع دون قيود ، إذ أن الشريعة لا تجوز للمسلمين أن يشرعوا ما يصادم النهج الرباني دون قيود ، ولا تجوز لهم أن يحلوا حراما أو يحرموا حلالا هكذا دون ضابط وإنما يكون دورهم هو التشريع ابتناء على أحكام الشارع الحكيم تفصيلا وتوضيحا وتفريعا وتقنينا .

رابعا : أن شرعية وجود المسلم في هذه المجالس ابتداء ودواما إنما ترتبط برسالته الأصلية في الدعوة إلى الله وحمل رسالته ودعم ما في هذه المجالس من صواب وإنكار ما يراه فيها من خطأ ، وأنه متى عجز عن ذلك فإن مشروعية وجوده فيها تكون ساقطة .

خامسا : إن الدين أوسع وأشمل من أن تستوعب دعوته هذه الطريق دون غيرها ، أو أن تستغرق العامل لدين الله عن غيرها من أمور الدعوة والطاعات .. وإنما هي مجرد وسيلة مع الكثير من الوسائل الأخرى للدعوة للدين ، فلا ينبغي أن تستغرق الدعوة ولا الدعاة فيجعلوها كل الدين ويتجاهلوا وسائل الدعوة الأخرى منشغلين فقط بهذه الوسيلة .

هذه منطلقات أساسية ينبغي أن توضع في الاعتبار أمام كل من يريد طرح هذه القضية على محك الحوار ، ثم وبعد ذلك تصبح عملية الدخول لهذه المجالس خاضعة لمجموعة من المتغيرات ، كقياس المصالح والمفاسد ، والجدوى من دخولها ووجود الوسائل الأخرى للدعوة ، وغيرها مما يخضع لاجتهادات المجتهدين ، وهي جميعا مسائل ظنية تقديرية تختلف من عالم لآخر قد نتبنى فيها المنع لاجتهاد ارتأيناه ... ولكن لا ينبغي أن يقودنا ذلك إلى أن نجعل من الهجوم على أصحاب الرأي الآخر شغلنا الشاغل ونترك دعوتنا وعملنا للدين للتشريب على الآخرين وتتبع سقطاتهم والتشهير بهم ، بل نقول إن الرأي الآخر له ما يبرره وإن خالفناه وهي مسألة ظنية لا يكون فيها الإنكار باعتبارها منكرا .

○ ○ ○

السؤال العشرون : أكثرتم من الحديث عن المصلحة ، وذكرتم أهمية اعتبار المصالح والمفاسد في التعامل مع النصوص الشرعية ، وقلتم إن المصلحة حاكم على النص . فهل نفهم من ذلك أنكم تقدمون المصلحة على النص ؟ وتنقضون النص إذا تصورتم أنه يصادم المصلحة ؟

○ نقول : حاشا لله أن نقدم المصلحة على النص الصحيح المحكم المنزل في أي مسألة تعن لنا ، وإلا لأهدرنا النصوص بحجة المصالح التي يختلف الناس في تقديرها .. ونحن عندما نقول إن المصلحة حاكم على النص لا نعني أنها تنزل بديلا عنه وإنما نعني أن النصوص إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد ، فإنه لا مصلحة لله عز وجل في أن يلزمنا بأوامر أو ينهانا عن مناهٍ ، وإنما يأمرنا وينهانا ليحقق لنا مصالحنا المختلفة . وقد أفاض العلماء في الحديث عن المصلحة ، واعتبروا أنها مراد الشارع من إنزال الأحكام ، وبين العلماء درجات هذه المصالح ابتداء من أشدها أهمية وهي المصالح الضرورية التي لا تسير الحياة عند غيابها أو تسير بمشقة شديدة ، ثم المصالح الحاجية ، ثم التحسينية .

ثم تحدث العلماء عن علاقة النصوص بالمصالح ، وذكروا أن هناك مصالح شهد لها النص بالاعتبار ، وأخرى شهد لها بالإلغاء ، ثم هناك مصالح لم تتناولها النصوص باعتبار ولا إلغاء وهي المصالح المرسلة .

والمصلحة الشرعية هي غاية النص[1] وبالتالي فهي تحكم ، وكم من النصوص وجدت موانع تمنع تحقيق المصلحة التي هي مقصود النص فتوقف تنفيذه ، ونقصد هنا الموانع الشرعية التي يعتبرها الشرع . فالنصوص تلزم التوارث في كل ميت بين أهله بصيغ بينها ، ولكن إذا قتل أحد الورثة المورث فإن مصلحة ذلك التوارث وهي صلة الأرحام وزيادة التواصل بين الأقارب تنتفي فيتدخل الشارع الحكيم ليمنع ذلك التوارث مع هذا القاتل ، لأن المصلحة الشرعية انتفت فانتفى الحكم ولا يعني ذلك أن المصلحة ألغت النص ، فالشارع الذي أمر بالتوارث لتعميق صلة الأرحام هو الذي منع ذلك التوارث لزجر المجرم القاتل عن فعلته[2] .

---

(١) قال الشاطبي في الموافقات : « تحقيق المصلحة أصل أصول الشريعة » .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس لقاتل ميراث » ورواه ابن ماجه [٢٦٤٦] وقال الألباني : صحيح .

وعلى ذلك فالمصلحة حاكم على النص ، بمعنى أنها مقصد النص ومقصد الحكم يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها .

○ ○ ○

السؤال الحادي والعشرون : تحدث الكثيرون عن ممارسة البعض لدور الدولة في تطبيق القانون وأنهم اعتبروا أن غياب الأحكام الشرعية أو كثير منها عن الحكم مبرر لأخذ زمام الأمر وتطبيق أحكامها بين الناس .. فهل يجوز شرعا أن يقيم الآحاد الحدود على الأفراد ، خاصة ولو غابت أحكامها عن الحكم والقضاء ؟

○ خطاب الشارع الحكيم بالحكم التكليفي ليس موجها بالضرورة لكل الناس في كل الأحكام ، بل كثيرا ما خصت النصوص البعض بأحكام تناسب موقعهم وحالهم ولم تخاطب آخرين بهذا ، فمثلا آيات أحكام الطلاق إنما توجه للرجال المتزوجين الذين يتمتعون بأهلية التصرف في رباط الزوجية ، وآيات الحيض والنفاس إنما تخاطب النساء البالغات اللاتي لم يبلغن سن اليأس دون غيرهن ، وآيات الاجتهاد إنما يخاطب بها أهل العلم العدول الذين اجتمعت فيهم أوصاف المجتهد ، وكذا آيات الجزية إنما يخاطب الحكام حيث لا يجوز للأفراد أخذها لأسباب عدة .

أولها : إن شرط أخذ الجزية أن يتضمن عقدها الدفاع عن أهل الذمة ضد العادية الداخلية والخارجية ، وحماية أنفسهم وأعراضهم وأموالهم واسترداد أسراهم وما سلب من أموالهم وفداءها من العدو تماما مثل المسلمين ، ولا يجوز شرعا أن ينص في العقد على سقوط هذا الحق أو إسقاطه ، وإلا كان العقد باطلا وهذا أمر لا يستطيع الأفراد القيام به وقضاء حق الله فيه .

ثانيها : مَنْ مِن الجماعات الذي سيأخذ الجزية ؟ ويعطي نفسه هذا الحق ؟ وكل يزعم لنفسه ذلك !!

ثالثها : من سيسمح له بذلك ؟ أي هل ستسمح له الدولة بذلك ؟ أم سيتسبب ذلك في صدام مفاسده عظيمة وجمة ؟ .. ومثل الجزية نجد الحدود ، فالمخاطب بها

الدولة ، وليس للأفراد حق إقامتها ، والمانع فيها أشد كثيرا من سابقه لأسباب كثيرة نذكر منها :

أولا : يشترط فيمن يتصدى للحكم بها ويصدر الأمر بإقامتها أن يكون عالما مجتهدا ، بحيث يمكنه تحقيق القضية تحقيقا قضائيا شرعيا دقيقا يحمي صاحب الحق ويضع الحد موضعه الشرعي الدقيق ، وينفذ إلى دقائق القضية ليضع كل شيء في موضعه الصحيح ، وهو شرط لا يكاد يتوفر إلا في القليل ممن درسوا الدراسة الشرعية المناسبة لذلك وحققوها علميا وعمليا .

ثانيا : يشترط أن يكون لذلك الذي يحكم القدرة والسلطة التي يستطيع أن ينفذ بها الحكم بعد ثبوته بقواعده الشرعية الصحيحة ، بحيث يحمي بسلطانه المنفذين ويحقق مصلحة الزجر دون مفاسد تترتب عليه ، وهذا لا يتأتى للأفراد مهما بلغت سطوتهم ، لما يترتب عليه من جور وردود فعل تضر استقرار المجتمع .

ثالثا : ينبغي أن يتوفر للقاضي بالحد القدرة على تحقيق القضية تحقيقا فنيا وشرعيا ، والسلطة على توفير ذلك التحقيق مثل سلطة استدعاء الشهود وسلطة إحالة الأدلة للفنيين للفحص مثل الطب الشرعي والأدلة الجنائية وغيرها ، وهي أشياء يستحيل الحكم بدونها ويستحيل أيضا للأفراد توفيرها ، وتجاهل هذه السلطة يجعل الحكم مشوبا بالقصور في أدلة الإثبات والنفي .

رابعا : ينبغي أن يكون للحاكم من السلطة والقوة ما يحمى به القاضي والشهود من انتقام أطراف القضية ، وإلا فإنه سيصعب على الحاكم تحقيقها مع خوف الانتقام ، وهذا بالطبع لا يقوم به الأفراد .. لذلك كان الخطاب بإقامة الحدود وتوقيع العقوبات ليس موجها للأفراد ، ولا يلزم الأفراد بفعله ، ولا يعاقبون إن قصر الحكام فيه ؛ لأنهم ليسوا مخاطبين به أصلا .. فإذا أضفنا خطر هذه الفكرة - فكرة إقامة الأفراد للحدود والعقوبات - على استقرار المجتمع وإثارة الفتن فيه وتحدي سلطان الدولة بصورة توجد صداما يحقق عظيم المفاسد على الأمة ، يصبح الأمر أشد حرمة ومنعا .. وهذا لا ينبغي أن يلغي دعوتنا الدائمة للعودة

لشريعتنا الغراء بكامل أحكامها ، ورفضنا لكل تقصير وإعراض عن الشريعة الغراء ، إرضاء لله أولا ، ثم سعيا لتحقيق مقصود الله في عباده بإقامة مجتمع رباني يمتثل ما أمر الله به .

○○○

السؤال الثاني والعشرون : لماذا لا تتبنى الجماعة قولا واحدا في المسائل الفقهية تتوحد عليه كلمة أفرادها وهو ما تراه أقرب إلى الحق والذي يسنده الدليل الظاهر ، وتمنع أفرادها من تبني ما تراه ضعيفا من أقوال حتى لا تختلف الآراء وتجتمع الكلمة ؟

لا خلاف في أن الأصول الثابتة بنصوص الكتاب أو السنة القطعية أو إجماع الأمة ، هي – كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – بمثابة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد الخروج عنها أو المنازعة فيها ، ومن خرج أو نازع فيها كان من أهل البدعة والفرقة . أما ما تنازع فيه العلماء ولا يمثل خرقا للإجماع ولم يكن من زلاتهم أو مما شذوا فيه عن الأمة ، فهو يشبه ما تنوعت به الشرائع من حيث إن كل واحد من المجتهدين المختلفين مطالب بالتزام اجتهاده ولا يخالفه ولا يجوز له أن يقلد فيه غيره أو يوجب على غيره طاعته دون غيره .

أما إن تغير اجتهاد المجتهد فيلزمه الرجوع لاجتهاده الجديد ، وعلى من لم يبلغوا درجة الاجتهاد هذه أن يتبعوا من ولي أمرهم من العلماء المجتهدين بضوابطه .

وقد اتفق الصحابة في مسائل وتنازعوا في أخرى مع إقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم في مسائل من العبادات والمواريث وغيرها ، وعليه فإن الله أمر العلماء أن يجتهدوا طاقتهم في الوصول للحق فإن أصابوه وإلا فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، ومن لام من لم يصب الحق أو ذمه على ما لم يؤاخذه به الله فقد تعدى وظلم .

فالخطأ كل الخطأ أن نجعل شيئا من الاجتهاد في الفروع أساسا للولاء والبراء مهما

بلغت درجة اقتناعنا بهذا الرأي وخطأ المخالف ، مع ضرورة التمييز بين مواضع الإجماع والنصوص القطعية وبين مواطن الاجتهاد ، حتى لا يترخص المترخصون في مواضع القطع أو يتشدد المتشددون في مواضع الاجتهاد ، فيحدث من ذلك التهارج ويتكرس التشرذم ويعطى مواضع الاجتهاد أبعادا عقدية يعسر تجاوزها .

وقد كان سادتنا العلماء على مر العصور تتسع صدورهم للمخالف في مسائل الاجتهاد والفروع ، ولا يرون غضاضة في اجتهاداتهم المخالفة متمثلين هدى المصطفى صلى اللّه عليه وسلم الذي لم ينكر على أي من المتخلفين حول صلاة العصر في غزوة بني قريظة .

وليس من المعقول أو المتقبل أن خلافات لم يحسمها العلماء على مر القرون نطالب نحن بحسمها ونلزم أفرادنا بها ، كيف وقد كانت كل هذه الخلافات موجودة على مر الأزمان ولم يحاول أحد من العلماء أو الحكام أن يتخذ منها مثل هذا الموقف ، بل إن الإمام مالك بن أنس رفض هذا الأمر بشدة لما عرضه عليه المنصور ثم الرشيد ، وأرادوا أن يحملوا الناس على التزام موطأ الإمام العظيم ليعلمنا كيف يكون موقفنا ممن يخالف في المسائل الاجتهادية وكيف ينبغي أن يتسع له صدرنا .

نعم ، من حقنا أن يكون لنا فهمنا واجتهادنا في فهم النصوص ، ولكن ينبغي أن ننظر بعين الاحترام لكل اجتهاد اجتهده مجتهد واستفرغ فيه وسعه وله مسوغ من الشرع فإن رأينا – كما يقول الشافعي – صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب .

فإن الإسلام العظيم يحترم التباين في الأفهام والمدارك ، وليس كل خلاف مذموما . بل إن الخلاف – كما يقول الإمام أحمد – : ما يحمل في طياته السعة وإثراء الفقه بالحوار ، وإنما يذم الخلاف إذا أدى إلى التدابر والخصام والفرقة .

واحترام الإسلام للرأي والرأي الآخر هو احترام للآخر ممن يخالفنا لأنه في مخالفته مأجور معذور في خطئه إن كان قد أخطأ . والصواب والخطأ هنا أمر نسبي في المسائل الاجتهادية إذ أن أدلة المسائل الاجتهادية ثبوتها ودلالتها تخضع

للتقدير والبحث وتباين الأفهام ، ومحاولة القطع والجزم فيها لم يقل بها أحد من أهل العلم ، إذ أن الجزم هنا مستحيل .. ولذلك ففي الوقت الذي يتصور فيه الإنسان أن في جمع الناس على أحد الخيارات وحدة لصفهم ، إنما هو يسعى من حيث لا يدري إلى تمزيق الصف ، إذ أن كل من يؤديه اجتهاده إلى ما يخالف صاحب الرأي الواحد إنما يعتبرها متنكبا – من وجهة نظره – للنهج السديد ، وأنه قائم على باطل يجب محاربته وبالتالي فسرعان ما يجد نفسه متدابرا مع كل صاحب رأي آخر ، وهذا عين ما حذر منه الشرع ودعا المسلمين إلى اجتنابه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ [الأنفال : ٤٦] وإنما ينبغي أن تتسع الصدور لكل مخالف في تلك المسائل الاجتهادية .

○ ○ ○

■ **السؤال الثالث والعشرون** : هناك من يردد بأن الشيخ سيد قطب – رحمه الله – تأثر حينما تعرض لبعض الموضوعات مثل الحاكمية والطاغوت وجاهلية المجتمع بالضغوط والمعاملات القاسية التي شهدها في سجنه وأنه لو تناول ذات الموضوعات في أجواء مختلفة لكان حتما سيختلف أسلوب التناول لهذه الموضوعات .. هل ترون هذا الكلام صحيحا ؟

○ بشكل عام ، نحن نتفق جميعا أن المعاملة القاسية ، والظروف غير الطبيعية تهيئ المناخ لنمو الأفكار المتشددة وإصدار الأحكام القاسية خاصة على أولئك الذين صنعوا هذا المناخ .

فلا نتصور أن الإنسان الذي تهدر كرامته وتمتهن آدميته ويتجاوز معه كل شرع ودين وقانون عليه أن يتسامى على آلامه في الحكم على الأشياء كما لو كان جمادا لا مشاعر له وينشأ على حب القانون واحترامه ، بل إن هذا الاضطهاد لا شك في أنه جزء من الحقيقة الموضوعية التي يضعها الإنسان في اعتباره عند الحكم على الأشياء .

ولا شك أن دعوة أفراد المجتمع إلى احترام مؤسساته والالتزام بما ارتضاه من قواعد وأسس تستلزم من الداعي أن يبدأ بنفسه ليكون كلامه مقبولا لدى الناس ، وأن تجاهل القوانين في التعامل مع الناس لا ينشئ في نفوسهم احتراما لتلك القوانين والتزاما بها وإنما يخلف عداء لها ونفورا منها وعدم احترام .

أما بالنسبة للشيخ سيد قطب - رحمه اللَّه - بشكل خاص فهو بلا شك أحد كبار المفكرين الإسلاميين في هذا العصر ، وأن كتاباته تلقاها الجميع بالقبول والاحترام سواء من عامة الناس أو من علمائهم ومن فقهائهم ولا أظن أن للسجن أثرا كبيرا على كتاباته خاصة وأن أكثر كتاباته المتداولة في السوق قد كتبها قبل دخول السجن ، وأن فترة السجن كانت قليلة في زمنها - قرابة السنوات التسع من عمر زاد على الستين - وقليلة في إنتاجها الفكري أيضا لصعوبة ذلك في السجن ، ويعرف ذلك كل من ذاق تفتيشات السجون ومطاردتها لكل ما له علاقة بالفكر .

ونحسب أيضا أن كل ما طرحه الشيخ سيد قطب - رحمه اللَّه - من مفاهيم مجردة حول تلك القضايا لا مشكلة فيه إذ أنه يتكلم بمنطق المفكر الأديب الذي يتعامل مع كليات القضايا ويطرحها كمعان مجردة لا بمنطق الفقيه أو الأصولي الذي يعنى بضبط الأشياء ضبطا فقهيا دقيقا وبدلالات الألفاظ المعبرة عن المعاني بدقة فقهية وأصولية .

ومن هنا تتضح المشكلة ، والتي تكمن في خطأ التعامل مع كتابات الشيخ الفاضل سيد قطب - رحمه اللَّه - من البعض كما يتعامل مع كتب الفقهاء وأحكام القضاء ، فيحاول تنزيل هذه المعاني المجردة على الواقع وتطبيق تلك الإطلاقات - كالجاهلية والحاكمية وغيرها - دون الانتباه إلى أن المسألة تحتاج لتحقيق مناط يعنى بالضوابط والشروط المقررة شرعا في التطبيق .

ولذا لا ينصح القارئ غير الملم بقواعد العقيدة والشرع أن يتعجل في محاولة

تنزيل كتابات الشيخ سيد قطب – رحمه الله – على الواقع حتى لا يقع في الخطأ ، وإنما ينبغي أن يدرس أولا كتابات العلماء الثقات في العقائد والأحكام ليحتمي بها من سوء فهم يمكن أن يكون نتيجة قراءة غير واعية لكتابات الشيخ سيد قطب – رحمه الله – والتي تحتاج لنوع فقه في تنزيلها على الواقع والبحث عن شروط ومواصفات ما تحدث عنه من تعبيرات .

فكتابات الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ كتابات مفكر عظيم وأديب كبير تحقق قراءتها متعة أدبية واسعة ، واتساع أفق وإدراكا جيدا للواقع ، مع فهم جميل وعميق لمعاني القرآن والسنة ومقاصد الشرع ، ولكنها ليست كتابات فقيه أو أصولي أو عقائدي تعامل ألفاظه واصطلاحاته معاملة ألفاظهم ومصطلحاتهم وكذا القارئ المبتدئ الذي يقرأ فيها دون رصيد من دراسات الفقهاء وعلماء التوحيد والأصوليين الدقيقة ، ودون توجيه من أهل العلم يخشى عليه أن يقع في خلل عقائدي قد يصل به إلى تكفير المجتمع نتيجة فهم خاطئ لكتاباته أو تنزيلها في غير موضعها .

○ ○ ○

السؤال الرابع والعشرون : يثور كلام كثير اختلطت فيه الآراء حول دار الإسلام ودار الكفر ، فما هي مواصفات كل منهما وماذا عن تحول دار الإسلام إلى دار الكفر ، أو دار حرب ، وماذا عن بلاد المسلمين هذه الأيام وقد غيبت الشريعة أو أكثرها عن حكم هذه البلاد ، نرجو إفادتنا حول رأي الجماعة المستمد من أقوال الفقهاء في هذه المسألة .

الفقهاء يعتبرون الديار ديار إسلام إذا ظهرت فيها أحكام الإسلام وأمن المسلمون مطلقا لوجود الأحكام والسلطة المسلمة بينما يعتبرون الديار ديار كفر إذا حرم المسلمون من ذلك الأمان المطلق ، ونسوق بعضا من كلامهم في ذلك :

○ « تعتبر الدار دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها وإن كان جل أهلها من الكفار ، وتعتبر دار كفر لظهور أحكام الكفر فيها وإن كان جل أهلها من المسلمين » . [المبسوط عن أبي يوسف]

○ « لا خلاف بين أصحابنا من أن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها » . [الكاساني في بدائع الصنائع]

○ « ليس من شرط دار الإسلام أن يكون فيها مسلمون بل يكفي كونها في يد الإمام وإسلامه » . [الرافعي في فتح العزيز]

○ « لأن الدار إنما تنسب للغالب عليها والحاكم بينها والمالك لها » . [ابن حزم]

○ « دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام وما لم يجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام » . [ابن القيم في أحكام أهل الذمة]

○ « دار الإسلام ما ظهرت فيها الشهادتان والصلاة ولم تظهر فيها خصلة كفرية ولو تأويلا إلا بجوار أو بالذمة والأمان من المسلمين ودار الحرب هي الدار التي شوكتها لأهل الكفر ولا ذمة من المسلمين عليهم » .

[ابن يحيى المرتضى الزيدي في عيون الأزهار]

○ « إن المقصود من إضافة الإسلام للدار وكذا الكفر ليس هو عين الإسلام والكفر إنما هو الأمن والخوف » . [الكاساني نقلا عن أبي حنيفة]

ولا يخفى من خلال النصوص السابقة أن الحديث فيها عن مواصفات الديار إنشاء ، فتحول الديار من ديار كفر إلى دار إسلام يكون بجريان الأحكام ووجود السلطة واللتان تكونان مصدرا لتحقيق الأمان المطلق للمسلمين لإظهار شعائرهم بينما لا يكون الأمان في دار كفر .. ولكن الحديث يختلف عند الكلام عن تحول الديار التي جرت عليها أحكام الإسلام متى تصير دار كفر وهل مجرد تغيير الأحكام كاف لاعتبارها دار كفر وهنا نجد الفقهاء قد ذكروا أقوالا أربعة :

القول الأول : أن الدار التي قررت بأنها دار إسلام لن تصير بعد ذلك دار حرب أو كفر . وهو ما ذهب إليه بعض الشافعية وظاهر كلام الإمامية .

[تحفة المحتاج لابن حجر – نهاية المحتاج للرملي – روضة الطالبين للنووي]

القول الثاني : أن دار الإسلام تصير دار حرب بمجرد ظهور الكفر فيها أو بمجرد

استيلاء الكفار عليها . وهو قول أبي يوسف ومحمد والحنابلة وبعض الزيدية والمعتزلة .

[بدائع الصنائع - المغني - المبسوط]

القول الثالث : أن دار الإسلام لا تصير دار حرب بمجرد ظهور أحكام الكفر ما دام سكانها المسلمون يستطيعون البقاء فيها يدافعون عن دينهم ويقيمون بعض شعائر الإسلام فيها كالأذان والجمع والجماعات والعيد .. وهو قول المالكية وبعض المتأخرين من الشافعية والإباضية .

[حاشية الدسوقي - الأنوار لأعمال الأبرار - نهاية المحتاج]

ولا يفوتنا قبل أن نغادر هذا الرأي أن نذكر فتوى الإمام الرملي الشافعي - رحمه اللَّه - حول أهل « أراغون » بالأندلس والذين أرسلوا إليه يستفتونه عقب سقوط بلدتهم في يد الفرنج .

سئل الإمام الرمليُّ الشافعيُّ عن المسلمين الساكنين في وطن من الأوطان الأندلسية يسمى « أراغوان » وهم تحت ذمة السلطان النصراني الذي سلط عليهم فيأخذ منهم خراج الأرض بقدر ما يصيبون منها ولم يتعد عليهم بظلم لا في أموالهم ولا في الأنفس ولهم جوامع يصلون فيها ويظهرون شعائر الإسلام عيانا ويقيمون شريعة اللَّه جهرا فهل تجب عليهم الهجرة أم لا ؟ أفتونا مأجورين ..

أجاب الرملي بأنه لا تجب الهجرة على هؤلاء المسلمين من وطنهم لقدرتهم على إظهار دينهم به ولأنه صلى اللَّه عليه وسلم بعث عثمان يوم الحديبية إلى مكة لقدرته على إظهار دينه بها .. بل لا تجوز الهجرة منه لأنه يرجى بإقامتهم إسلام غيرهم ولأنه دار إسلام فلو هاجروا منه لصارت دار حرب .

[فتاوى العلامة الإمام الرملي بهامش الفتاوى الكبرى الفقهية لابن حجر]

القول الرابع : أن دار الإسلام لا تصبح دار حرب إلا بثلاثة شروط :

الأول : ظهور أحكام الكفر فيها .

الثاني : أن تكون متصلة بدار الحرب بحيث لا يكون بينهما بلد من بلاد الإسلام .

الثالث : ألا يبقى فيها مسلم ولا ذمي آمنا بالأمان الأول الذي مكن رعية

المسلمين من الإقامة بها . وهذا رأي أبي حنيفة وبعض الزيدية

والظاهر من هذا كما أشار صاحب حاشية ابن عابدين أنه لو أجريت أحكام الإسلام وأحكام الكفر معا لا تكون دار حرب ، ويلاحظ أن المتاخمة وسقوط الأمان هما دلالة المنعة في هذا الرأي .

ومما سبق يتضح أن كثيرا من الفقهاء لا يحكمون بتحول دار الإسلام إلى دار كفر بمجرد تنحية الشريعة عن الحكم .

كيف وإظهار الشعائر من توحيد وصلاة وصيام وأعياد موجود ؟

وأحكام الإسلام موجودة في كثير من القوانين والبلد كله من المسلمين المعتزين بدينهم والذين يقيمون شعائره .

كل هذا يجعل من القول بأن بلادنا ديار كفر قول ضعيف ، وأن القول الأرجح والأقوى والذي تدعمه النصوص وأقوال الفقهاء أنها ديار إسلام أو على الأقل ديار بين بين وهي التي يسميها ابن تيمية « الديار المركبة » التي يعامل فيها المسلمون بإسلامهم والكفار بكفرهم ولا يحكم بأنها ديار كفر أو ديار حرب (١) .

○ ○ ○

■ **السؤال الخامس والعشرون** : يتحدث البعض عن الاحتكام للقانون الوضعي في مسائل مثل قضايا التعويض أو استرداد الحقوق وما شابه ذلك لقوله تعالى : ﴿ .. فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

○ أترون هذا التفسير لهذه الآية صحيحا في حالنا هذه ؟!

أجرت الحكومة تعديلا دستوريا في مطلع الثمانينات نص على أن مبادئ الشريعة

(١) قسم جمهور فقهاء المسلمين الدنيا إلى دارين : دار إسلام ، ودار حرب . فدار الإسلام : هي كل ما دخل من البلاد في محيط سلطان الإسلام ، ونفذت فيها أحكامه ، وأقيمت شعائره .
ودار الحرب : هي الدار التي لا تطبق فيها أحكام الإسلام الدينية ، والسياسية ، لوجودها خارج نطاق السيادة الإسلامية . والساكنون فيها هم الحربيون . أهـ آثار الحرب . نقلا عن كتاب : الدرر المباحة في الحظر والإباحة ، لخليل بن عبد القادر الشيباني ، الشهير بالنحلاوي .

الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع .. بمعنى أنها ليست هي المصدر الوحيد للتقنين الوضعي لذا فإن القوانين الوضعية احتوت على مزيج غير متجانس من القوانين منها ما هو موافق للشرع ومنها ما استخرجوه من غيرها من المصادر فجاء مخالفا لها .

وعليه فيكون الموقف الشرعي من الاحتكام كالآتي :

أولا : بالنسبة للقوانين المستمدة من الشريعة والتي استمدت من أقوال الفقهاء المستمدة من الكتاب والسنة وذلك مثل أحكام الأسرة من زواج وطلاق وميراث وغيره ومثل كثير من أحكام القانون المدني كالبيوع والإجارة والشفعة وغيرها . فإنه لا حرج في الاحتكام إلى القضاء في الدعاوى التي تستند لهذه المواد ، فإن القاضي الذي يحكم مسلم ، وهو يحكم بمواد شرعية وقوانين موافقة للشرع .

ثانيا : بخصوص المواد التي لا تصطدم بنصوص الشريعة ولم يأت في الشرع ما يناقضها أو يصادمها وقد تصلح كتعازير مثلا أو تصلح في دعاوى الحقوق فهذه كسابقتها يجوز فيها هذا الاحتكام ، إذ أن القاضي مسلم ، والمشرع يجوز له أن يجتهد فيها بما يناسب المصلحة ولا يخالف أصول الشريعة وللناس أن يقضوا منها ما يحقق مصالحهم الدنيوية ، وقد ترك الشارع الشريف للناس فيها ذلك .

ثالثا : أما ما كان من هذه القوانين مصادما للشرع وجاءت النصوص الربانية بخلافه مثل الربويات والحدود وكثير من أحكام باب الجنايات فهذه يجوز الاحتكام فيها للقضاء في حال الضرورة كالخوف من ضياع الحقوق أو تثبيت الباطل أو إفلات المجرم المعتدي من العقوبة أو غير ذلك من الضرورات التي أجاز الشارع فيها مثل هذه المخالفة .

ومن المفيد أن نقول : إن هذا الاحتكام في الحالة الأخيرة حتى لو لم يكن لضرورة وكذا الحكم لا يدخل في باب الكفر دائما هو معصية يأثم مقتحمها ويزداد ذنبه فيها بقدر ما يوقع من مظالم أو يضيع من حقوق ، وإنما لا يوصف صاحبه بالكفر إلا أن يرضى قلبه رادا حكم اللّه عز وجل مفضلا أحكام البشر عليها مع قدرته على إنفاذ حكم اللّه وذلك بعد توافر الشروط وانتفاء الموانع وإقامة الحجة .

فالكفر في هذه المسألة ليس مجرد عدم الحكم بالشريعة والحكم بغيرها ، ولكن الكفر يكون في رد الحكم الشرعي حتى ولو لم يحكم بغيره والفارق بين الاثنين في أن الأول عمل سلبي يقع فيه كل مخالف للشرع بمعصيته ، أما الثاني فعمل إيجابي فيه عدم القبول للحكم ورفض الاستسلام له أو الالتزام به كدين يُتَعَبَّد به وكحكم واجب الاتباع في موارد النزاع وكان هذا الرد هو كفر إبليس : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤]

فهو لم يكفر تكذيبا وجحودا وإنما كفر ردا للأمر الرباني وتفضيلا لرأيه وهواه عليه . ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] .

وفي هذا المعنى يقول الجصاص في أحكام القرآن : « في هذه الآية ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ .. ﴾ [النساء : ٦٥] دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم فهو خارج عن الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم »[1] .

فالرد هو رفض الحكم وعدم قبوله تحت أي دعوى من الدعاوى كالقول مثلا إنه لا يناسب العصر ، أو إن أحكامه وحشية ، أو إن هناك من الأحكام ما هو خير منه أو مساو له أو غير ذلك من الدعاوى ؛ لأن نسبة النقص إلى الشريعة هو إنقاص لمن شرعها ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

ولا يخفى كيف فرق العلماء بين مانعي الزكاة الذين اقتصر فعلهم على مجرد المنع فقالوا بمعاملتهم معاملة البغاة وقتالهم قتال المسلمين الذين خرجوا على الإمام العدل وجريان أحكام ذلك عليهم ، وبين أولئك الذين ردوا الحكم وقالوا : إنما الزكاة قرين الجزية ، ورفضوا أداءها ، فاقترن الامتناع السلبي بالرد الإيجابي[2] ، فقاتلهم الصديق قتال المرتدين الذين كفروا بالله وتمالأوا وتجمعوا على قتال خليفة رسول الله

---

(١) راجع أحكام القرآن للجصاص . وبمثله قال ابن تيمية في فتاويه [٧ / ٦٣٩] وغيره .

(٢) صحيح مسلم [١ / ٢٠٢] ، وفتح الباري [١٢ / ٢٧٧] ، وغيرها . ومن المحدثين عبد القادر عودة .

صلى اللّٰه عليه وسلم فهما وإن كانا من الناحية الظاهرية لم يلتزموا حكم اللّٰه تعالى في الزكاة واجتمعوا على حرب خليفة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إلا أنهما من ناحية الحكم اختلفا اختلاف السبب الذي جعلهم يمتنعون عن تنفيذ الحكم .

والخلاصة :

أن هناك بعض صور من الاحتكام لغير الشرعية يمكن إدراجها في باب الكفر بحسب ما يكتنفها من قرائن كالرد والجحود بينما يندرج ماعدا ذلك في باب المعاصي غير المكفرة .

ولذا يجب التنبه إلى عدم إطلاق القول بتكفير فاعله وإنما يعهد بذلك إلى أهل العلم والاجتهاد ليتحققوا من توافر تلك الشروط والقرائن ، وانتفاء موانع الحكم .

○ ○ ○

السؤال السادس والعشرون : هل تعتقدون أن عقوبات مثل قطع يد السارق ورجم الزاني تلائم هذا العصر ؟ .. بمعنى أن لا تستدعي التغيرات التي طرأت على المجتمع إعادة النظر في هذه العقوبات ، خاصة وأن عندنا مثالا واضحا في سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عندما أوقف حد السرقة في عام الرمادة .. ومنع سهم المؤلفة قلوبهم ؟

○ هذه حدود شرعية نص عليها الكتاب والسنة المشرفة ، لا يستطيع أحد أن يقول بتعطيلها ، ولا يجوز إنكارها ، وإلا أنكر مجمعا عليه بين المسلمين معلوما من الدين بالضرورة .. فاللّٰه سبحانه خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحهم ويناسبهم على مر العصور ، وهو الذي أمر بتلك العقوبات ، ولم يخص أمره بزمان دون زمان أو مكان دون مكان ، بل هو أمر عام يعم الأزمنة والأماكن .

وقد أجمع العلماء على مر العصور على وجوب إقامة هذه الحدود إذا توافرت شروطها ، وإن من يردها دون عذر شرعي إنما يرد أمر اللّٰه المنصوص عليه في الكتاب والسنة .

وهنا يجئ السؤال ، وماذا عن تعطيل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لحد السرقة في عام المجاعة ، ورفضه إقامته على غلام حاطب بن أبي بلتعة لما ضبط وقد سرق من سيده ليسد جوعته ؟

والحق أن ما فعله عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه لم يكن تعطيلا للحد والشرع ، وإنما كان إعمالا للشرع .. فالحد ككل أمر شرعي لا يقام إلا بعد توافر شروطه وانتفاء موانعه . وشروط الحد في هذه الحالة متوافرة من إثبات ونصاب وغيرها ، ولكن هناك مانع يمنع من إقامته وهو الضرورة وخوف الهلكة ، وهو مبرر شرعي يجيز السرقة من مال الغير لسد الجوع الذي يخشى منه الهلكة . فالضرورات الشرعية والتي شرعت الحدود لحمايتها تقدم أولوية حفظ النفس من الهلكة على حفظ المال – مال الغير – فالحدود ليست غاية في ذاتها ، وإنما شرعها الله سبحانه لحماية المجتمع من جرائم خطيرة لها أثرها المدمر على المجتمع . فإذا قامت الضرورة التي تجعل صاحبها معذورا في الوقوع في موجب الحد ، فإن الشارع يعفيه من إقامة الحد ، وهي مسألة موضع اتفاق الأصوليين من استقرائهم لنصوص الشريعة . ومثل سابقه يأتي موضوع سهم المؤلفة قلوبهم ، إذ أن الشارع الحكيم جعل لهذا المصرف من مصارف الزكاة علة ، وهي تأليف قلوب ضعاف الإيمان من ذوي المكانة والجاه والسلطان لتقوى بهم شوكة الإسلام في مواجهة خصومه ، خاصة إذا كان بالإسلام والمسلمين ضعف عن هذه المواجهة . والعلة كما يقول الأصوليون تدور مع المعلول وجودا وعدما ، فإذا انتفت علة الضعف التي تجعل من تأليف قلوب هؤلاء داعيا لإعطائهم من مال الزكاة ، فإن هذا المصرف ينتفي تماما . كما إذا كان الأمر الرباني بإخراج الزكاة لمن ملك النصاب ، فإذا انتفى وجود النصاب فلا تخرج الزكاة ، ولا يكون ذلك تعطيلا لحكم الزكاة .

هكذا اجتهد عمر رضي الله تعالى عنه معتبرا أن علة هذا المصرف هي ضعف المسلمين ، وأن ذهاب هذا الضعف منع الصرف على المؤلفة قلوبهم ، وإذا عاد

الضعف واحتاج المسلمون لهم عاد الحكم ، ولا يكون ذلك إلغاء أو تعطيلا للحكم .. هكذا اجتهد عمر رضي اللّٰه عنه وافقه في اجتهاده من وافقه وخالفه من خالفه ، ولكن اجتهاده مبني على أصول شرعية منضبطة وليس تعطيلا للشرع .

ومن هنا ندرك أن تعطيل إقامة أي حد من حدود اللّٰه لا يجوز إلا لضرورة ، ويكون بقدر هذه الضرورة ، ويذهب بذهابها دون إنكار لمشروعيته أو الإقلال من مكانته .

ونحن إذ نقول بحرمة تعطيل الحدود والأحكام ، لا نحكم ابتداء بكفر من يقصر في تطبيق أحكام اللّٰه ، إلا أن يردها معتقدا أنها لا تناسب العصر أو أن هناك من الشرائع ما يفضلها أو حتى يساويها ؛ لأنه هنا إنما يصف بذلك أمر اللّٰه وحكمه في عباده .

بمعنى أن من غلبه هواه أو ضعفه فقصر في تطبيق الشرع معتقدا أن حكم اللّٰه هو الأولى بالتطبيق ، فإنه يكون عاصيا ولا يوصف بالكفر المخرج من الملة ، إلا أن يرد أمر اللّٰه أو يجحده . أما من لم يطبقه لضرورة شرعية منضبطة معتقدا بوجوب التطبيق عازما على العودة إليه بمجرد زوال هذه الضرورة مدركا أن شرع اللّٰه هو واجب التطبيق لا ما نطبقه من أحكام ، فهذا معذور إلى أن تزول هذه الضرورة .

○ ○ ○

■ **السؤال السابع والعشرون** : إذا كان البلد فقيرا ويضيع كثير من دخلها القومي من العملة الصعبة على الحج والعمرة ، لأن كثيرا من الأفراد يذهبون للحج مرة ومرتين . هل ترون أن فقه الواقع يعطي الحاكم الحق أن يقول إنه نظرا لظروف البلد وتعرض موارد النقد الأجنبي للعجز ينبغي للإنسان ألا يذهب للحج والعمرة إلا مرة واحدة؟

○ لا أدري ، لماذا يفكر البعض أول ما يفكر عند احتياج البلاد إلى موارد مالية في السعي إلى تقييد الحج والعمرة ، وكأنما لا تنفق موارد البلاد إلا فيها .. ولماذا

يتجاهلون أثرهما الهام على المجتمع في تربية أفراده ونشر التدين بين الناس ، وتربية المجتمع على نشر فضائل الدين بين أفراده بما يعود على المجتمع بالزيادة والإقبال على العمل .. هناك مصارف كثيرة تضيع فيها العملة الصعبة دون أن تحقق أي عائد ذا قيمة على المجتمع تحتاج من الحاكم تقييدا حفظا لموارد المجتمع أن تضيع فيما لا طائل من ورائه .

وهناك فساد كبير تضيع فيه موارد المجتمع على اللصوص والنصابين ورجال الأعمال الذين يفرون بأموال البنوك ويضيعون موارد المجتمع .

وهناك مصارف أقل أهمية تصرف فيها الأموال ، بينما هي في سلم الأولويات تأتي في الآخر أو لا تأتي بالمرة .

وهناك أموال معطلة عن العمل مخزونة في البنوك أو على شكل أجهزة ومعدات لا تمارس دورها في المجتمع لبنائه .

وهناك جيش هائل من البطالة المقنعة تأخذ الرواتب دون أن تقدم مقابله عملا ، فتضيع حصيلة أموال الدولة بلا مقابل .. وهناك الطاقات المعطلة والثروات المدفونة التي لا تستخدم الاستخدام الأمثل .

وهناك الجهاز الإداري المتضخم الذي يمتص أكثر عائد البلاد دون فائدة تساوي هذا العائد .

وهناك الكثير من الأموال الضائعة والأموال غير المستغلة الموجودة في البلاد .. فإذا عولج كل ذلك ولا زال الناس يفتقرون إلى مقومات معيشتهم وأقوات أبنائهم ، فإنه يجوز في هذه الحالة تقييد حج وعمرة النافلة تقييدا مؤقتا بقدر الحاجة إليه ، ثم يزال بزوال هذه الحاجة .. وقد شرع الدين سلما للأولويات يبدأ بالضرورات وينتهي بالتحسينات ، بحيث تكون المصلحة الضرورية مقدمة فيه على الحاجية ثم على التحسينية . فلو كانت ضرورة إطعام الناس وحاجتهم لنفقاتهم الضرورية موجودة ، فإن النافلة تتأخر هاهنا عنها .

وقد تكلم الفقهاء في هذا الأمر ، وضربوا له مثالا طريفا إذ أجازوا للشاب الذي تتوق نفسه للزواج أن يقدم الزواج على حج الفريضة ، إن كان ماله لا يكفي إلا واحدا منهما ، للمصلحة الراجحة المتحققة في الزواج حماية له من الوقوع في العنت ، وحماية للمجتمع من مفسدة عدم زواجه . فكيف لو كانت الضرورة هاهنا هي الجوع والعري ، فإن تقديمها على الحج يكون أولى حفاظا على الفرد والمجتمع ، ولا يكون ذلك تعطيلا لفريضة من فرائض الدين ، بل يكون إعمالا لأحكام الدين التي ترتب مصالح الضرورة على غيرها .

على أنه ينبغي أن يكون واضحا :

أولا : أن ذلك يكون بعد سد كل أبواب الاستعمال المختل للمال العام ووضع ذلك المال في مواضعه .

ثانيا : ألا يكون هذا التقييد في الفريضة .

ثالثا : أن تكون هناك حالة ضرورة حقيقية في أقوات الناس ومعايشهم .

رابعا : أن يكون التقييد بقدر الضرورة فقط ، وأن يزول هذا التقييد بمجرد زوال هذه الضرورة .

○ ○ ○

السؤال الثامن والعشرون : ذكرتم في كتابكم « النصح والتبيين في تصحيح مفاهيم المحتسبين » أنه ينبغي استدعاء الشرطة للتصدي للمنكرات في المجتمع . فكيف لو كانت الشرطة هي التي تقوم على حماية بعض هذه المنكرات ؟ هل المطلوب مني أن أكون سلبيا في مواجهة هذه المنكرات ولا أسعى للتصدي لها ؟

○ الإسلام هو الدين الوحيد الذي دعا أفراده أن يتفاعلوا مع مجتمعهم بإيجابية في مقاومة الانحراف والتصدي له ، وأن يكون لهم دور فعال في مشاركة مؤسسات الدولة في حماية المجتمع من الجرائم والمنكرات بل وكثر حثه على ذلك والحكم باللعن على من يكون سلبيا تجاه المعاصي والانحرافات ، وإبراز الحسبة كفريضة ربانية يثاب فاعلها ويأثم تاركها إن أمكنه الحسبة ولم يفعل .

ولقد عانى مجتمعنا كثيرا من تجاهل الناس لهذه الفريضة ، والتعامل بسلبية تجاه الانحراف حتى فشت المعاصي والجرائم ، وأصبح المجتمع يعاني تآكلا داخليا على الصعيد الأخلاقي والديني .. ولكن ينبغي أن ندرك أن الشارع الحكيم كما تعبدنا بالغايات ، فإنه أيضا تعبدنا بالوسائل التي تحفظ المصلحة المتوخاة من الأمر الرباني وتنفي المفاسد التي قد تنتج عن التطبيق الخاطئ له ، والتي قد توقع المجتمع في الفتن والفوضى . فكما ينبغي أن تكون الغاية موافقة للشرع ينبغي ألا تصطدم الوسيلة به .

والمجتمع في بلادنا مجتمع مسلم تتفاوت درجات التزام أفراده بتعاليم دينه زيادة ونقصا ، ولكن أصل الإسلام في قلوبهم موجود ، وحب أكثر الناس للدين موجود ، وكراهيتهم للانحراف والمعاصي موجودة .. كذلك كثيرا ما تتحول تلك الكراهية الموجودة في قلوبهم للانحراف والمعاصي رغبة في منعها والتصدي لها ، وهو الأمر الذي ينبغي تشجيعه في الناس وحثهم عليه ، إذ يستحيل أن تستطيع أجهزة دولة كائنة ما كانت أن تتصدى وحدها للانحراف دون معونة من أبناء شعبها ، سواء في ضبطها أو إثباتها .

وقد ذكرنا في الكتاب أن المنكرات قسمان :

○ قسم حاربه المجتمع واتفق على رفضه فسن من القوانين ما يتصدى له ، وأنشأ مؤسسات متنوعة لتطبيق تلك القوانين فهذه المنكرات إذا وجدت وأمكن استدعاء تلك المؤسسات التي ستتصدى للمنكر وقبل أن يزول ، فإن استدعاء تلك المؤسسات يكون كفيلا بإزالة هذا المنكر دون حدوث أي مفاسد ، ويلزم كل مسلم أن يساعد هذه المؤسسات على أداء عملها ، وذلك مثل جرائم القتل والاغتصاب والغش والرشوة ، والتي تتصدى لها مؤسسات كالشرطة والرقابة الإدارية ومباحث التموين ، أما إذا خشي من زوال هذا المنكر قبل حضور تلك الأجهزة ، كسارق يخشى أن يفر بسرقته أو قاتل يخشى أن يرتكب جريمته أو مغتصب يخشى أن ينجو بفعلته ، فهنا ينبغي على كل قادر

على التصدي له أن يفعل ، فسيكون بمشيئة الله مثابا من الله تعالى وكذا سيمدح له الجميع فعله .

○ أما المنكرات التي ألفها المجتمع وسن من القوانين ما يحميها ، ومن المؤسسات ما ينفذ هذه الحماية ، فإن التصدي لهذه المنكرات بالقوة سيوجد تصادما مع المجتمع ومع المؤسسات المكلفة بحماية هذه المنكرات ، مما قد يؤدي إلى مفاسد عظيمة وفتن وفوضى أكبر من أثر المنكر المراد إزالته ، ولذلك فإن إزالته تحرم للمفاسد المترتبة عليه .

ولا يخفى أننا ونحن نقول إنه يمتنع التصدي لمثل هذه المنكرات ، ينبغي أن ندعو الناس لاجتنابها ، وندعو تلك المؤسسات لمنعها حماية للمجتمع من هذه المعاصي ، وحفظا لدين الأمة وإعلاء لكلمة الله .

○ ○ ○

السؤال التاسع والعشرون : يقول البعض : إن نصارى مصر محاربون ، وذلك أنهم لا يدفعون الجزية ، وبالتالي ولأن عهد الذمة تكون الجزية ركنا هاما فيه فإن العقد يكون منتقضا ، والنصارى هنا يكونون ناقضي العهد . فما هو رأيكم ؟

○ عقد الذمة تكون الجزية ركنا أساسيا فيه في بعض الأحوال ، وإلا فإن نصارى تغلب قد عقد لهم الفاروق عمر عقدا أضعف عليهم فيه الصدقة ولم يذكر جزية ، بل إن الفقهاء يذكرون جواز أن يخلو العقد من الجزية أو تكون الجزية عكسية في حالات ضعف المسلمين ، هذه واحدة ..

أما نصارى مصر فإنهم لم يمتنعوا عن دفع الجزية ، بل إنهم ظلوا يدفعونها إلى أن أسقطها سعيد والي مصر عنهم لما قرر إدخالهم الجيش ومشاركتهم في الدفاع عن البلاد ، واستند في فعله إلى فتوى لبعض المتأخرين بأن أهل الكتاب إذا اشتركوا في الدفاع عن بلاد الإسلام سقطت عنهم الجزية ؛ لأن الجزية إنما أخذت منهم نظير دفاع المسلمين عنهم ، وأن أبا عبيدة قد رد الجزية لبعض نصارى الشام لما

اضطر إلى الانسحاب من مدينتهم ولم يدافع عنهم ، وهو وجه مقبول في فتوى لبعض المتأخرين .

إذن هم لم يمتنعوا عن أدائها بغض النظر عن صحة هذه الفتوى أو عدم صحتها حتى يوصفوا بأنهم نقضوا العهد ، وإنما الذي ألغاها هو حاكم البلاد ورفض أخذها منهم ، وإنهم إلى هذا العهد كانوا يدفعونها .

فالعهد قائم لم ينتقض ، وحقوقهم كأهل ذمة قائمة ، وهم لم يطالبوا بالجزية حتى نقول إنهم امتنعوا .. وفارق كبير بين إنشاء عهد نقول إن الجزية من هذا العهد ، وبين دعوى نقض عهد تستلزم لإثباتها امتناعا ومنعا لم يحدث .. وعليه فهم باقون على عهدهم وذمتهم ، وحقوق الذمة لا زالت سارية في حقهم .

○ ○ ○

السؤال الثلاثون : لي جار نصراني أجد نفسي مضطربا في معاملته .. هل أتجهم له وأسيء معاملته باعتباره كافرا لا تجوز مودته حذرا من الوقوع في النهي الرباني ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ؟ أم أعامله بالحسنى تطبيقا للآية : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة : ٨] ؟ .. وما هي الحدود الفاصلة بين تلك المودة المذمومة وبين البر والإقساط والمخالقة المشروعة ؟

○ الحق أن ما يعانيه المسلمون من هجوم شرس - خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر - والذي كثيرا ما تستغل فيه قضية أهل الكتاب من النصارى كذريعة ترتفع أصوات الأبواق المشبوهة لتحرض القاصي والداني على الإسلام وأهله كلما قيل - إن صدقا أو كذبا - إن أحدا من النصارى قد تعرض لمظلمة في نفسه أو ماله على يد مسلم ، أو منع حقا يراه لنفسه أو يرى له في تقلد وظيفة ، بينما تخرس تلك الأبواق عن المذابح التي يلقاها المسلمون في الشيشان وفلسطين

وكشمير .. بل وتكتمل خيوط تلك المؤامرة بالقانون المشبوه ، الذي صدر من وراء البحار يقنن التدخل لصالح تلك الأقليات ، وقد استخدم هذا القانون في اقتطاع تيمور الشرقية من اندونسيا ، ويهدد باستخدامه في غيرها من البلدان وخاصة مصر .

فإن الإجابة عن هذا السؤال بالذات تحتاج لقدر كبير من الحياد يلزم كاتبه منطق الشرع متجردا عن عاطفته الشخصية ، فلا يسعى لمجاملتهم بإعطائهم فوق ما يستحقون من معاملة حذرا من اتهامه مع من اتهموا ، أو يأخذه الانفعال والغيظ فيلصق بالشرع تحاملا عليهم كرد فعل لما يرتكبونه من جرائم أو يرتكبه بعضهم بحق المسلمين بل الحق الذي لا زيادة فيه ولا نقصان خاصة وأن حالة الهدوء التي نعمت بها البلاد في المرحلة السابقة والتي توقف فيها الاحتراب بين الجماعة والحكومة أثارت سخطهم وحولت تلك الحملان الوديعة التي كانت تكيل المديح للحكومة لموقفها الحاسم من الإرهابيين أعداء الوطن إلى ذئاب ضارية تفتعل الأحداث لتصرخ مولولة من الاضطهاد المزعوم والتمييز الطائفي لا من الجماعات الإسلامية وحدها - على حد زعمهم - بل من الحكومة أيضا التي طالما أسبغت عليها ثياب المديح .

نعم نقف على حدود الشرع في معاملتهم فنعطيهم ما أعطاهم الشرع ونخالفهم بما أمرنا من مخالفتهم . فالعدل واجب في التعامل معهم فلا يجوز ظلمهم أو تضييع حقوقهم ، وقد عوتب النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن لما هم باتهام بعضهم بغير حق دون أن يعلم فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥] ، والمخالقة بالخلق الحسن ، والبر والإقساط إليهم بعض من حقوقهم علينا كجيران ومساكنين لنا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعود مرضاهم ويحسن لهم القول والتعامل ويدعوهم بالموعظة الحسنة ما داموا لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم[١] .

(١) روى البخاري [١٣٥٦] ، وأبو داود [٣٠٩٥] ، وأحمد في المسند [٣ / ١٧٥] عن أنس =

والمعاملات معهم من بيع وشراء وإجارة وغيرها مشروعة ، وقد مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي . وحماية ممتلكاتهم وأرواحهم من التعدي عليها لمجرد كونهم من أهل الكتاب حق لهم في بلادنا المسلمة ينبغي أن نحفظها أفرادا وحكومات[1] .. ومشاركتهم في مناسباتهم من أفراح وأحزان وغيرها من المناسبات الاجتماعية مشروعة ولا حرج فيها .. وتركهم وما يدينون به دون تعد أو منع أو تضييق ما داموا محصورين في إطار العبادة دون تجاوز حق لهم لا يجوز حرمانهم منه أو التضييق عليهم فيه[2] ..

إذن بقي السؤال ، وماذا عن تلك المودة المذمومة في الآية ؟ وما هي تلك الموالاة المنهي عنها بالآية الكريمة ﴿ .. وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٥١] ؟ وماذا عن محبتهم المذمومة ؟ .. نقول : إن تلك المودة المذمومة والمولاة المنهي عنها إنما هي المودة على الدين والموالاة فيه ، بمعنى أننا كمسلمين نؤمن بما جاء به القرآن من أن الدين عند الله هو الإسلام ، وأن أهل الكتاب إنما ضلوا لما قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وإن عزيرا ابن الله . ومن هذا المنطلق فإن مودتهم لأنهم قائمون على هذا الدين إنما هي إقرار بصحة ما يؤمنون به من إثبات الابن لله وهذا اصطدام مباشر بعقيدتنا ، أما المودة الدنيوية التي تقوم على المشاكلة وموافقة الطباع وحسن العشرة والجوار فلا حرج فيها . وأما الموالاة ، ونعني بها النصرة ، فإن النصرة على الدين بمعنى مناصرتهم على دينهم القائم على التثليث ضد أصحاب دين الحق من المسلمين هي المذمومة في النصوص ، أما موالاتهم في أمور الدنيا لإقرار حق أو دفع

= رضي الله تعالى عنه أن غلاما يهوديا كان يخدم الرسول صلى الله عليه وسلم فمرض فعاده النبي صلى الله عليه وسلم ودعاه إلى الإسلام فنظر الغلام إلى أبيه فقال : أطع أبا القاسم ، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحمد لله الذي أنقذ بي نفسا من النار » .

(١) قال علي بن أبي طالب : « إنما دخلوا في الذمة لتكون دماؤهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا » .

(٢) قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

الباب الثالث

١١ سبتمبر في الميزان

بين يدي الأحداث

لقد كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ « علامة فارقة » في التاريخ المعاصر ، وكانت بمثابة ميلاد جديد لعالم متغير جاء من رحم الأحداث ..

لقد بدا هذا الحادث الجلل وكأن « كائنات فضائية » هي التي ارتطمت ـ ليس ببرجي مركز التجارة العالمي ـ بل بكوكب الأرض كله فزلزلته وهزته هزًّا عنيفاً .. لقد بدا الحادث وكأنه خارج سياق التاريخ إلا إنه في الواقع حادث « فارق » في التاريخ .

وحادث الحادي عشر من سبتمبر لم يكتسب هذا الوصف لبشاعته أو لكثرة عدد ضحاياه ـ ففي جروزني وحدها قتل الجيش الروسي عشرين ألف شيشاني مسلم ، كما قتل سبعة آلاف وفقد خمسة آلاف من المسلمين في سربرنتشيا على يد ميلوسوفيتش .. والحوادث كثيرة وضخمة في عدد ضحاياها وبشاعتها . ولكن يبقى تميز حادث الحادي عشر من سبتمبر أنه أصاب القوة العظمى الأولى والوحيدة في العالم ، وأكبر قوة عسكرية في التاريخ وأنه أصابها ليس في أبراجها ، ولكن أصابها في كبريائها وكرامتها ..

وكأن هذا الحادث قد أطلق قذيفة على « عقال » هذه القوة العظمى فأفلت هذا « الثور » الهائج يميناً ويساراً ..

لم يصدم هذا الحادث الأمريكيين وحدهم بل صدمنا نحن أيضاً وانهار « برجان عاليان » عندنا في أفغانستان هما طالبان والقاعدة ، واللذان ظن البعض أنهما بعيدا المنال .

لقد دهمنا الحادث أكثر من ذلك بتداعيات خطيرة حيث وضع العالم العربي والإسلامي في مأزق المواجهة وجهاً لوجه مع المارد الأمريكي بجبروته وسلاحه . لقد وجدت الدول الإسلامية والعربية نفسها ـ وكذلك الحركات الإسلامية ـ في

ساحة معركة لم ترد دخولها ولم تحسب لها ولم تستعد ، بل هي أضعف من أن تفكر في الدخول فيها .

لقد وجدت الدول الإسلامية التي تميل أنظمتها إلى العلمانية في نظمها السياسية والاقتصادية - وكذلك الإسلامية السلمية - وجدت نفسها في نفس المأزق الذي وضعت فيه الدول الإسلامية الأخرى : فإما أن تقتل أبناءها بيدها وتخلع أنيابها وأظافرها طواعية ، وإما أن تواجه خطر الآلة العسكرية الأمريكية .

لقد تجاوز العالم مرحلة الحدث الذي تم تعظيمه وتضخيمه وتجاوز مرحلة الاتهام والتحقيق والمحاكمة ، فقد أدين المتهم وهو الشيخ أسامة بن لادن ومن ورائه القاعدة ومن ورائهم الحركات الإسلامية ومن ورائهم الدول العربية والإسلامية ومن وراء كل هؤلاء وأمامهم في الوقت نفسه المتهم الرئيسي في القضية وهو « الإسلام » .

وعلى المدان الآن أن يتلقى جزاءه وعقابه من أمريكا وحلفائها وأن ينفذ فيه الحكم « الحرب » بلا هوادة .. وباستمرار ..

لم يكن عام ٢٠٠١ عاماً عاديًا - لا عربيًا ولا إسلاميًا ولا عالميًا - وما ذاك إلا بسبب تلك اللحظات « الفارقة » صبيحة يوم الحادي عشر من سبتمبر من ذلك العام والتي قسمت تاريخ الولايات المتحدة والنظام الدولي بأسره إلى عالم « ما قبل » وعالم « ما بعد » تلك الدقائق الفاصلة التي ميزت بين مرحلة ذهبت إلى حالها ومرحلة جديدة من مراحل المواجهة التاريخية في طور جديد ومختلف بما أثارته تلك الدقائق من إشكاليات فكرية وسياسية وتاريخية ودينية وحضارية وثقافية على نحو واسع .

فإن التغيير الذي أصاب النظام الدولي بعد الحادي عشر من سبتمبر أصاب في العمق نظام التفاعلات الدولي وكذلك قائمة الأولويات الدولية حيث صعد مفهوم « الحرب على الإرهاب الدولي » .. أو قل « الحرب على الإسلام » إلى قمة القائمة

على العديد من الأولويات التي هيمنت على النظام الدولي قبل الحادي عشر من سبتمبر ولعل أبرز ما يعنينا في هذه الأولويات هو تدني مرتبة « القضية الفلسطينية » والأمر الثابت من تأمل مجريات الأحداث عقب الحادي عشر من سبتمبر هو أن العالم الإسلامي والعربي أضحى هو الهدف الأول والأكبر . بل هو الهدف الوحيد للسياسة الأمريكية الجديدة والمدعومة بالشرعية الدولية « القسرية » ، والتي تهدف - في مرماها البعيد - إلى التأثير على التنشئة الدينية والاجتماعية بتشكيل بيئة ثقافية جديدة في المجتمعات العربية والإسلامية حتى لا تمثل منبع خطر على أمريكا .

وفي السطور التالية سوف نحاول - بإيجاز - إلقاء الضوء على بعض الجوانب التي تعنينا في هذا الحادث الجلل وتداعياته وآثاره .

وكذلك موقفنا - المنضبط بالشرع - منه وذلك من خلال العناوين التالية :

○ **إرهاصات الحادي عشر من سبتمبر :**

أ - تأسيس الجبهة - نيروبي ودار السلام .

المدمرة كول وسيناريو الأحداث .

ب - الجماعة والجبهة .

ج - هل تكفي جنسية المرء مسوغاً لقتله ؟

ء - حكم قتل المدنيين شرعاً .

○ **موقفنا من الأحداث :**

أ - مقدمات لابد منها .

ب - بيان الجماعة حول الأحداث .

ج - طالبان : الدور المفتقد والخصوم .

ء - بين خوارزم شاه والملا عمر .

و - هيروشيما / نجازاكي : دروس لم يقرأها ابن لادن والملا عمر جيدا .

ز - سنن الإسلام في ديار غيرهم .

« دروس من هجرة الحبشة »

هـ - نظرية المؤامرة .. تحليل ونقد .

○ **أثر الأحداث على الإسلام والمسلمين :**

أ – فلسطين .. الضحية .

ب – الإسلام في منظور الغرب : رسميًا – ثقافيًا – إعلاميًا .

ج – الأحداث .. والتدخل السياسي والثقافي في الدول الإسلامية .

ء – عوامل ساعدت على الاستثمار الأمريكي السيئ للحدث .

○ **طالبان .. وسياساتها الغربية .**

○ **الملا عمر : فقيه لا قائد .**

○ **بين إمارة الجماعات .. وقيادة الدول .**

○ ○ ○

الفصل الأول

إرهاصات
الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١

شأن كل حادث جلل يفرض نفسه على التاريخ كان لابد لحادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ من إرهاصات تنبئ به ومقدمات تمهد له .

والمتأمل لمجريات الأحداث خلال العقد الأخير من القرن الماضي يمكنه أن يلمس بوضوح بعض « الأمارات » الصغرى والكبرى لمثل هذا الحدث ..

ففي مطلع التسعينات انهارت المنظومة الدولية « الثنائية » بسقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي ، وزوال أحد القطبين لينفرد القطب الآخر بزعامة العالم ليصبح القطب الأوحد .

ولا يخفي على أحد أن أكثر معاول هدم الاتحاد السوفيتي تأثيرا كانت هزيمته النكراء على أرض أفغانستان وعلى أيدي « المجاهدين » الذين سرعان ما تنافروا وتناحروا على السلطة والنفوذ بما مهد الطريق إلى ظهور طالبان على الساحة الأفغانية والإقليمية والدولية بسيطرتها في فترة وجيزة على ٩٠ % من أراضي أفغانستان وتأسيس دولتها الناشئة بدعم متبادل بينها وبين الشيخ أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة ، وهكذا برز طرفا الحدث « أمريكا من ناحية والقاعدة من ناحية أخرى » .. وتوالت بعدها الأحداث .. مرورا بحرب الخليج الثانية والوجود الأمريكي في الجزيرة والقواعد العسكرية بها .

○ الصومال ١٩٩٤ .. البداية :

على الرغم من أن حركة طالبان لم تكن في ذلك التاريخ قد وصلت إلى سدة الحكم بل كانت ما تزال في أول طريقها إلا أن حليفها المقرب الشيخ أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة كان موضع اتهام من قبل الولايات المتحدة بقتل ثمانية عشر ضابطاً أمريكيًا من القوات الخاصة في الصومال في كمين نصبته المقاومة الصومالية بدعم من أفراد القاعدة ..

« وتجدر الإشارة إلى أن هذه القوات الأمريكية كانت ضمن القوات الدولية تحت إشراف الأمم المتحدة فيما عرف باسم « إعادة الأمل » Re-Hope » .

وقد انسحبت القوات الأمريكية « ثم الدولية » من الصومال إثر هذا الحادث « مقتل ثمانية عشر ضابطاً » إلا إنها كانت بداية مبكرة للصدام ..

في غضون السنوات اللاحقة نجحت طالبان في بسط نفوذها على معظم أفغانستان وأعلنت دولتها وتوطدت علاقتها بالقاعدة .

○ تأسيس الجبهة .. والخصومة العلنية :

في عام ١٩٩٨ وتحديدا في فبراير تم الإعلان عن تأسيس « الجبهة العالمية الإسلامية لقتال الأمريكيين واليهود » .. وكان أبرز مؤسسي هذه الجبهة : تنظيم القاعدة بزعامة الشيخ أسامة بن لادن ، وجماعة الجهاد المصرية بزعامة الشيخ د . أيمن الظواهري ، بالإضافة إلى بعض الجماعات الأخرى من ماليزيا وأندونيسيا وكشمير والفلبين .. وغيرها ..

وقد كان إعلان تأسيس الجبهة بهذا الاسم « الصريح » إعلاماً وإعلاناً عن حرب سافرة تشنها الجبهة على كل الأمريكيين في كل زمان ومكان « وذلك وفق تكييف غريب سوف يرد ذكره لاحقاً في موضعه من هذه الدراسة » .

وبالفعل بدأت الجبهة في استهداف الأمريكيين لمجرد كونهم يحملون الجنسية الأمريكية .. وكان حادث تفجير السفارات الأمريكية .

○ حادثة سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام ١٩٩٨ :

كانت هذه العملية ترجمة للهدف الذي أعلنته الجبهة في ميثاقها واسمها وبإيجاز فإن هذه العملية الجريئة تمثلت في قيام منفذيها « بتفجير » سفارتي الولايات المتحدة في كل من تنزانيا « دار السلام » ، وكينيا « نيروبي » في توقيت متزامن وبذات الأسلوب مما أسفر عن مصرع مائتين وأربعة وعشرين شخصاً « منهم اثنا عشر أمريكيًا » وإصابة أربعة آلاف وخمسمائة شخص وقد أثارت هذه العملية المزدوجة قلق وحفيظة الإدارة الأمريكية بقوة لأنها كانت إعلاناً عن عدم الأمان للأمريكيين والمصالح الأمريكية في كل مكان بما يمثل إهدارا صريحا للهيبة

الأمريكية في العالم بأسره ، خاصة وأن الخصم مجهول الهوية والهدف والمسلك مما يُصَعِّب من مهمة أمريكا في الحفاظ على رعاياها ومصالحها وهيبتها فلم يكن يخطر ببالها أن يصيبها ما أصابها هناك في أفريقيا إذن فأين ومتى وكيف تكون اللطمة التالية ؟

وكان رد فعل أمريكا عنيفاً حيث قصفت بالصواريخ ما اعتبرته « معسكرات للإرهابيين » في مناطق مختلفة من أفغانستان كما دمرت مصنعاً للأدوية بالسودان بزعم أنه مصنع للأسلحة الكيماوية » يعمل لحساب ابن لادن الذي اعتبرته المخابرات الأمريكية واحدا من أخطر عشرة إرهابيين في العالم واتهمته « وسبعة عشر آخرين » بالضلوع في تفجير السفارتين ورصدت مكافأة مالية ضخمة « خمسة ملايين دولار » لمن يدلي بمعلومات تساعد في إدانته أو الوصول إليه .

○ **المدمرة « يو إس إس كول » : أكتوبر ٢٠٠٠ .**

قبالة ساحل « عدن » باليمن وأثناء عودتها من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر . توقفت للتزود بالوقود فهجم زورق سريع ملغوم به راكبان أو ثلاثة ليرتطم بالمدمرة محدثا انفجارا مدويا أسفر عن مقتل سبعة عشر من قوات البحرية الأمريكية إضافة إلى إصابة سبعة وثلاثين آخرين .

ورغم عدم إعلان أحد مسئوليته عن الحادث إلا أن أصابع الاتهام وجهت إلى الإسلاميين وتحديدا إلى تنظيم القاعدة والشيخ أسامة بن لادن .

○ **سيناريو الأحداث**

في سيناريو أشبه بأفلام الخيال العلمي فوجئ العالم أجمع بما لم يخطر على البال من وقائع حقيقية فاقت الخيال .. وفي السطور التالية نعيش لحظة بلحظة مع هذه الأحداث .

١ = الساعة ٢٦ : ٤٦ : ٨ صباحاً :

اصطدمت الطائرة بوينج ٧٦٧ التابعة لشركة أمريكان اير لاينز بالبرج الشمالي

من مركز التجارة العالمي وتحديداً بالطابق ٩٤ : ٩٨ وكانت تحمل عشرة آلاف جالون من الوقود سريع الاشتعال وكانت سرعة الطائرة عند اقتحام المبنى ٤٧٠ ميلاً / ساعة .

٢ = الساعة ٥٤ : ٢ : ٩ صباحاً :

اقتحمت مقدمة الطائرة الثانية « من ذات الطراز ومملوكة لذات الشركة » الطابق ٨١ من البرج الجنوبي لتدمر الطوابق من ٧٨ : ٨٤ من المبنى وتندلع كتلة رهيبة من النيران في الثلث الأعلى منه في مشهد يشيب له الولدان .

٣ = الساعة ٤٣ : ٩ صباحاً :

طائرة ثالثة ترتطم بدقة متناهية بمبنى البنتاجون الحصين فتدمر أحد أضلاعه الخمسة من ذلك الصرح الذي يعد مفخرة العسكرية الأمريكية ورمز قوتها العسكرية القابع في عاصمتها واشنطن .

٤ = الساعة ٠٥ : ١٠

وعلى غير ما كان متوقعاً هندسيًا وتكنولوجيًا انهار البرج الجنوبي بطوابقه الـ ١١٠ ليستوي بالأرض مخلفاً هرماً ضخماً من الركام والأنقاض .

٥ = الساعة ١٦ : ١٠

أنباء عن سقوط طائرة رابعة مختطفة أيضاً في ولاية بنسلفانيا وتضاربت الأقوال حول هدفها ووجهتها . هل البيت الأبيض أم منتجع كامب ديفيد أو طائرة الرئاسة ؟! وذكر أن سبب سقوطها هو مشاجرة عنيفة بين خاطيفها وركابها وطاقمها .

٦ = الساعة ٢٨ : ١٠

انهار البرج الشمالي لتكتمل فصول الرواية .

كان هذا سيناريو يوم من الأحداث التي لا يكاد يصدقها عقل ولا في الأفلام ففي غضون أقل من ساعتين « ٨,٤٦ : ١٠,٢٨ » تغير كل شيء أكثر من ثلاثة آلاف قتيل / تدمير رمز الهيمنة الاقتصادية على العالم / إصابة وتدمير رموز القوة

العسكرية والتفوق الاستراتيجي ولكن الأهم من ذلك هو الاصطدام بكبرياء الأمريكيين أنفسهم وتفجير مشاعر الخوف والرعب والقلق التي لم يألفوها طيلة حياتهم أبدا فلم يسبق أن تعرضت بلادهم لغزو أو ضربات في عمقها « حتى بيرل هاربر لم تقع داخل أراضيها وإنما في إحدى قواعدها بجزيرة بالمحيط الهادى » .. ولذا تفاقمت لديهم رغبة عارمة في الانتقام والثأر والكراهية لكل ما هو مسلم وعربي خاصة بعد إعلان أسماء وجنسيات وتوجهات منفذي الهجوم لتبدأ الحلقة الثانية من الأحداث في ٧ / ١٠ / ٢٠٠١ .

○ **يوم الثاني عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .**

وقبل مرور ٢٤ ساعة على الحدث أصدر مجلس الأمن قراره رقم ١٣٦٨ للتأكيد على الحق الأصيل الفردي والجماعي للأعضاء في الدفاع عن النفس .. وحث القرار جميع الدول الأعضاء على التعاون من أجل الوصول إلى مرتكبي الهجمات ، وكذا تنفيذ جميع الاتفاقيات الدولية الخاصة بمكافحة الإرهاب .

ويلاحظ أن هذا القرار لم يتضمن أي برنامج عمل أو تحرك عملي رغم إقرار القرار بأن الأحداث تمثل تهديدا للسلم والأمن الدوليين ولكن دون أي إشارة إلى أحكام الفصل السابع من الميثاق .

○ **يوم الثامن عشر سبتمبر ٢٠٠١ .**

ولأهداف ومآرب مشتركة ومصالح متبادلة أعلنت جورجيا ـ إحدى الجمهوريات السوفيتية السابقة ـ أعلنت وضع أراضيها ومجالها الجوي تحت تصرف الولايات المتحدة .. وتبعتها جمهورية طاجيكستان ـ وهي إحدى دول الجوار الحدودي لأفغانستان شمالاً ـ فأعلنت هي بدورها عن استعدادها للتعاون التام مع الولايات المتحدة ..

وتجدر الإشارة هنا إلى « العامل العرقي » للطاجيك الأفغان امتدادهم الأصولي إلى دولة طاجيكستان وضعف موقفهم أثناء حكومة طالبان .

كما تجدر الإشارة هنا إلى سعي الولايات المتحدة الحثيث ومنذ عقود إلى إيجاد موضع قدم راسخة لها في منطقة القوقاز وأواسط آسيا ليس فقط من أجل بترول بحر قزوين ولكن أيضاً لمد حزام تطويق روسيا الوريث للاتحاد السوفيتي ..

هذا فضلاً عن رغبتها في توفير دعم لوجستي وعسكري قريب من قوات التحالف الشمالي لضمان دعمهم .

○ **يوم الحادي والعشرون من سبتمبر ٢٠٠١ .**

وفي إطار المبدأ الأمريكي الغريب : « من ليس معنا فهو علينا » أصدرت كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي « إعلاناً مشتركاً » تعهد فيه الجانبان بالعمل ضمن ائتلاف واسع لمحاربة الإرهاب ، وقد شمل هذا الإعلان المشترك عدة جوانب :

- إرسال طائرات أواكس تابعة لحلف الناتو .
- تكثيف تبادل المعلومات .
- تنظيم حملة أوروبية مكثفة ضد تنظيمات وأفراد من دول إسلامية وعربية يشك أن لها علاقة بالتنظيمات الأصولية وكان هذا الإعلان هو إحدى الخطوات العملية من أجل توحيد الجهود الدولية ضد الإرهاب تمهيدا للحملة الشاملة من الولايات المتحدة ضد خصومها السياسيين ولتصفية رصيد خصوماتها السابقة .

○ **يوم السابع وعشرون سبتمبر ٢٠٠١ .**

وكحلقة من سلسلة التصريحات المتلاحقة الموجهة صرح رامسفيلد لصحيفة « نيويورك تايمز » بالتصريح التالي :

« إن هذه الحرب لن تشن بواسطة تحالف كبير متحد خلف هدف واحد ، وإنما ستقوم على تحالفات عديدة قد تتغير وتتطور حسب الظروف ، وهذه التحالفات سوف تقوم الدول فيها بأدوار مختلفة ومساهمات متباينة ، وسيكون دعم بعض هذه الدول علنيا ، والبعض الآخر - لظروف - سيكون سريًا » .

وهذا التصريح صدر ليلة صدور قرار مجلس الأمن ذي الدلالة الخاصة .. ولا

يخفى على ذي لب ما آلت إليه هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن من سقوطها تحت النفوذ والسيطرة الأمريكية ، وهذه ليست نتاج أحداث سبتمبر وإن كانت قد تجسدت وتبلورت وطغت في أعقابها بجلاء ، وهذا النفوذ الأمريكي هو الذي حدا بعض المعلقين والمراقبين إلى تسميتها : الأمم المتحدة الأمريكية .

○ **يوم الثامن والعشرين من سبتمبر ٢٠٠١ .**

صدر قرار مجلس الأمن رقم ١٣٧٣ الذي نص على الانتقال إلى العمل وفق أحكام الفصل السابع من الميثاق ..

وقد اتخذ هذا القرار اتجاهاً جديدا في الإجراءات الدولية لمواجهة هجمات سبتمبر ، وقد تضمنت هذه الإجراءات ثلاثة مجموعات من الالتزامات :

الأولى : إلزام كافة الدول بوقف ومنع تمويل الأعمال الإرهابية والالتزام بتجريم كافة أشكال توفير جمع الأموال التي تستخدم في تمويل الإرهاب .

الثانية : الامتناع عن تقديم أي شكل من أشكال الدعم الصريح أو الضمني للكيانات أو الأشخاص المتورطين في الإرهاب .

الثالثة : إلزام الدول الأعضاء بتبادل المعلومات الخاصة بأعمال وتحركات الإرهابيين والتعاون في مجال منع الأعمال الإرهابية .

○ **يوم ٧ / ١٠ / ٢٠٠١ .**

كانت ساعة الصفر لبدء العمليات العسكرية في أفغانستان حيث كثفت الولايات المتحدة من قصفها الجوي والمدفعي بعيد المدى على وسائل الدفاع الجوي ومخازن الذخيرة والعربات المصفحة ومعسكرات التدريب ووحدات السيطرة والتحكم بهدف تدمير القدرات العسكرية الموجودة لدى طالبان كمرحلة أولى للهجوم .

وتجدر الإشارة إلى أن حلف الناتو قد دفع « مع بدء هذه العمليات وفي ذات التاريخ » بطائرات أواكس « وعددها خمس طائرات تابعة للحلف » لحماية الأراضي الأمريكية ذاتها .

كما وافقت جميع دول الحلف على جميع الرغبات الأمريكية مثل : استخدام المجال الجوي والفضائي / استخدام القواعد الجوية والموانئ / تسهيلات التزود بالوقود .

كما تولت قوات الحلف تأمين القوات الأمريكية وكذلك البعثات الدبلوماسية على أراضيها .

وقد أبدت كل من فرنسا وألمانيا رغبتها في المشاركة في الحرب وتبعتهما أسبانيا وإيطاليا .

○ **يوم التاسع عشر من أكتوبر ٢٠٠١ .**

أول عملية برية في أفغانستان بإدخال ١٠٠ جندي من القوات الخاصة الأمريكية حيث هاجمت هدفاً بالقرب من قندهار .

○ **يوم الحادي والعشرين من أكتوبر ٢٠٠١ .**

تصعيد الهجمات الجوية على امتداد الجبهة الفاصلة شمال كابول بين قوات تحالف الشمال وطالبان .

وخلال الأسبوع الأخير من أكتوبر ٢٠٠١ تحققت السيطرة الجوية الشاملة للقوات الأمريكية ولجأت طالبان إلى إخفاء معداتها " أو ما تبقى منها " في الجبال وأيضاً داخل المدن .

○ **يوم واحد نوفمبر ٢٠٠١ .**

بدأت قوات التحالف في الاستعداد للحرب البرية وقد عمدت الولايات المتحدة إلى الاعتماد التام على قوات التحالف حماية لأفراد قواتها من الصدام المباشر مع طالبان .

○ **يوم ستة نوفمبر ٢٠٠١ .**

وبعد مضي شهر كامل من القصف الجوي والمدفعي بدأت المرحلة الثانية للهجوم حيث تقدمت قوات تحالف الشمال مدعومة بغطاء جوي كثيف داخل المناطق

الجبلية في اتجاه « مزار شريف » ودار القتال بقيادة عبد الرشيد دوستم قائد الأوزبك الشماليين بينما قاد طالبان الملا عبد الرزاق .. وسقطت مزار شريف في يد قوات التحالف .

○ **الثالث عشر والرابع عشر من نوفمبر ٢٠٠١ .**

سقوط كابول في أيدي قوات التحالف بعد مقاومة بسيطة من قوات طالبان حيث دخل محمد فهيم قائد الطاجيك ومعه رباني إلى وسط العاصمة ودوستم والهزارة في الجنوب .

وإثر سقوط كابول ظهر جليًا حرص كافة القوى الإقليمية واتفاقها على عدم قيام أي نظام أصولي على شاكلة نظام طالبان وضرورة شمولية التمثيل لكافة عناصر المجتمع الأفغاني .

○ **السابع والعشرون من نوفمبر : الرابع من ديسمبر ٢٠٠١ .**

عقد مؤتمر « بون » للمصالحة الأفغانية تحت شعار « لا مكان للفشل » حيث مارست الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وكافة الدول المانحة ضغوطاً شديدة على الأطراف الأفغانية للقبول بالحلول الوسط .

وقد انتهى المؤتمر إلى تشكيل حكومة انتقالية مكونة من ثلاثين عضوا برئاسة حميد قرضاي وبجانبه خمسة نواب لرئيس الحكومة .

وقد هيمن تحالف الشمال على ثمانية عشر مقعدا بينما سيطر الطاجيك على عدة حقائب أبرزها الوزارات السيادية كالداخلية والخارجية والدفاع من جملة ثمانية مقاعد خصصت لهم ، بينما حصل الهزارة على خمسة مقاعد من بينها نائب رئيس الحكومة ، والأوزبك والأعراق الأخرى على ثلاثة مقاعد ، بينما وصل إجمالي ما خصص للباشتون إحدى عشرة حقيبة .

○ **الجماعة والجبهة :**

في فبراير ١٩٩٨ تداولت وكالات الأنباء نبأ « إعلان تأسيس الجبهة الإسلامية

العالمية لقتال الأمريكيين واليهود » وفوجئنا – نحن مجلس شورى الجماعة بالداخل – أن « الجماعة » هي إحدى الفصائل المؤسسة لهذه الجبهة العالمية بتوقيعها على « وثيقة » إعلان الجبهة .. تعجبنا وتحيرنا .

ولم نلبث قليلاً حتى تبين لنا أن الشيخ رفاعى أحمد طه قد بادر « من تلقاء نفسه ودون الرجوع إلى مجلس شورى الجماعة سواء بالداخل أو الخارج أو حتى استشارة ذوي الخبرة والنهي من قيادات أو أفراد الجماعة » بادر بإعلان موافقته « باسم الجماعة » على الانضمام للجبهة فكان هذا قرارا فرديا بحتا يخالف – جملة وتفصيلا – أبجديات اتخاذ القرارات داخل الجماعة .

وبمجرد علمنا بذلك أرسلنا إلى الشيخ رفاعي بموقفنا الواضح بالرفض التام للانضمام إلى « الجبهة العالمية » ، وتداركاً منا لقراره الفردي الغريب أرسلنا إليه بضرورة إعلان « انسحاب » الجماعة الإسلامية من الجبهة العالمية فورا وإلا سيتم إبعاده تماماً عن الجماعة .

وقد كان .. فقد أعلن الشيخ رفاعي انسحاب الجماعة من الجبهة وعدم وجود أي رابطة تنظيمية بها بالمرة وكان ذلك قبل حادث تفجير سفارتي الولايات المتحدة في دار السلام ونيروبي ببضعة أيام .

فكان هذا القرار توفيقاً من الله تعالى واستشرافاً واعياً للمستقبل برهنت على صحته الأيام والأحداث التالية له .

وهنا قد يتساءل البعض ..

لماذا حرصت الجماعة – وبقوة – على عدم الانضمام إلى « الجبهة الإسلامية العالمية لقتال الأمريكيين واليهود » .. وهذا ما سنجيب عليه في الصفحات التالية بعنوان : « هل تعتبر جنسية المرء مسوغاً لقتله » و « حكم قتل المدنيين » .

○ ○ ○

هل تعتبر جنسية المرء مسوغاً لقتله ؟!

نقول بإيجاز – إن هذا الحرص إنما ينبع من اعتراضنا « الشرعي » على ذلك « الهدف » الغامض الذي يعكسه بوضوح اسم : « الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والأمريكيين » والذي تتناوله « وثيقة » إعلان الجبهة وتحديدا « استهداف الأمريكي » لمجرد كونه يحمل هذه الجنسية بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة ، مدنيا أو عسكريا ، مسالما أو محاربا ..

وأما عن التكييف « الشرعي » لهذه الرؤية ـ وفق تحليل الوثيقة ـ فيعتمد على الآتي :

– بما أن الولايات المتحدة « تحتل » أراضي المسلمين في الجزيرة العربية « المقصود بذلك هو التواجد العسكري المكثف منذ عاصفة الصحراء » .

– وبما أن كل « أمريكي » – من خلال عمله بمؤسسات دولته وكذلك سداده للضرائب لحكومته – يدعم هذا الاحتلال إذن : فهو « محارب » للإسلام والمسلمين يجوز قتله وقتاله في كل زمان ومكان .

ونحن نختلف مع أصحاب هذه الرؤية لأننا نؤمن بأنه لا يجوز قتل المدنيين ولا النساء ولا الأطفال ، ولا التجار ولا الفلاحين ولا حتى الرهبان المنقطعين في أديرتهم حتى مع اعتقادنا بكفرهم . فالإسلام يحرم قتل الكفار إلا إذا انتصبوا لقتالنا .

وفي هذا المعنى هناك العديد من النقول الصحيحة سنوردها في موضعها لاحقاً إن شاء الله تعالى .

وفي ضوء هذه الرؤية وهذا الضابط الشرعي الجلي كان حرصنا على عدم الانضمام لهذه الجبهة .

أضف إلى ذلك أن طبيعة العلاقات الدولية وآليات الصراع في المجتمع الدولي المعاصر تفرض وجوب دراسة متعمقة متأنية لكافة أبعاد ومعطيات الموقف وحساب دقيق ومحكم لكافة تداعيات وآثار كل خطوة من هذا القبيل قبل الشروع فيها ، ولهذا كان الانسحاب ضرورة شرعية وواقعية .

حكم قتل المدنيين

وهذا مبحث فقهي مبسوط في مواضعه ومظانه من كتب الفقه ولكن لا مانع من أن نسوق نتفاً من نقول الأئمة الأجلاء حول هذا الأمر الجوهري في اعتراضنا على هجمات الحادي عشر من سبتمبر .

فالإسلام يحرم قتل المدنيين ، والسيوف الإسلامية لها أخلاق والجيوش الإسلامية لها قيم والدستور الإسلامي في القتال ليس فيه ظلم ولا طغيان ، وتاريخ الإسلام حافل بالفتوحات العظيمة في مشارق الأرض ومغاربها فما سمعنا يوماً أن جيشاً قتل شعباً ، فالجيوش الإسلامية – وفق دستورها الحنيف – لا تقاتل إلا من ينتصب لقتالها ويشهر السيف في وجهها .

فالإسلام دين الرحمة . والقتل محرم أصلاً في ديننا الحنيف ، وإنما أبيح لمصلحة كبرى هي الدفاع عن هذا الدين ورد العدوان وكذلك فما أن يتحقق النصر حتى تغمد السيوف وتبدأ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ..

ولعل أبرز قيم دستور الإسلام في القتال هو : تحريم قتل النساء والأطفال والشيوخ والفلاحين والتجار والرهبان والعميان والزمني وسائر من لم ينتصب لقتال المسلمين **وفي ذلك أحاديث جمة نورد بعضها :**

○ عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي اللّٰه تعالى عنهما قال : كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه من خاصتة بتقوى اللّٰه ، ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : « اغزوا باسم اللّٰه ، وفي سبيل اللّٰه ، قاتلوا من كفر باللّٰه ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا »(١) .

○ وعن ابن عمر رضي اللّٰه تعالى عنهما أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي

---

(١) رواه مسلم [١٧٣١ / ٣] ، وأبو داود [٢٦١٣] ، والترمذي [١٤٠٨] ، وابن ماجه [٢٨٥٧] ، والنسائي في الكبرى [٥ / ١٧٢ / ٨٥٨٦] ، وأحمد في المسند [٥ / ٣٥٨] .

صلى اللّه عليه وسلم مقتولة فأنكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قتل النساء والصبيان[1] .

○ وعن رباح بن الربيع رضي اللّه تعالى عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم عندما وقف على المرأة المقتولة قال : « ما كانت هذه لتقاتل » فقال لأحدهم : « الحق خالدا فقل له : لا تقتلوا ذرية ولا عسيفاً »[2] .

○ وعن أبي بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه أنه أوصى يزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام فقال : « لا تقتل امرأة ولا صبية ولا هرماً » وروى مثل هذه الوصية عن الفاروق عمر بن الخطاب إلى سلمة بن قيس .

○ وعن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

قال : « ولا تعتدوا » أي لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير ولا قتل زَمِن[3] ولا أعمى ولا راهب ولا يقتل العبد .

○ وروى عن عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه قال : « اتقوا اللّه في الفلاحين الذين لا يناصبونكم الحرب » .

○ وقال الشوكاني : « لا يجوز قتل مثل من كان متخلياً للعبادة من الكفار كالرهبان لإعراضهم عن ضرر المسلمين » .

○ وقال صاحب كتاب « الهداية » الحنفي : « لا تقتلوا امرأة ولا صبيا ولا شيخا فانيا ولا مقعدا ولا أعمى لأن المبيح للقتل عندنا هو « الحرب » ولا يتحقق منهم » .

---

(١) رواه البخاري [٣٠١٤] ، ومسلم [١٧٤٤ / ٢٤] ، وأبو داود [٢٦٦٨] ، والترمذي [١٥٦٩] ، وابن ماجه [٢٨٤١] ، وأحمد في المسند [٢ / ٢٢] .

(٢) رواه أحمد في المسند [٣ / ٤٨٨] وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره ، وهذا إسناد حسن ، والنسائي في الكبرى [٥ / ١٨٧ / ٨٦٢٧] .

(٣) وهو صاحب المرض العضال المزمن مثل الشلل والفشل الكلوي أو الكبدي أو الاستسقاء ونحوه .

ومن أقوال العلماء من ذات المعنى :

- ما نقله الإمام النووي من « إجماع » العلماء على تحريم قتل النساء والصبيان ما لم يقاتلوا ..[1] .
- ونقل ابن بطال وغيره « اتفاق » الجميع على عدم جواز القصد إلى قتل النساء والصبيان للنهي عن ذلك .
- وذهب مالك والأوزاعي إلى أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان بحال وحتى إذا تترس أهل الحرب بهم أو تحصنوا بحصن أو سفينة وهما فيهما معهم لم يجز قتلهم ولا تحريقهم[2] .
- وقال ابن قدامة المقدسي : « .. ويقاتل من سواهم من الكفار حتى يسلموا « في ظاهر مذهب الإمام أحمد » ولا يجوز قتل نسائهم ولا صبيانهم لما روى ابن عمر رضي اللّٰه تعالى عنهما عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أنه نهى عن قتل النساء والصبيان » متفق عليه .

وغيرها الكثير من الأدلة والأقوال التي تحرم قتل المدنيين ما لم يقاتلوا المسلمين أو ينتصبوا لقتالهم أو يشهروا سيوفهم في وجوههم فإن فعلوا جاز قتلهم وقتالهم بلا خلاف .

ومعلوم أن برجي مركز التجارة فضلاً عن الطائرات المدنية المختطفة كان فيها من النساء والأطفال والتجار والمدنيين والمرضى و.. و .. بل والمسلمين أيضاً الكثير .

○ ○ ○

(١) مسلم بشرح النووي ، كتاب الجهاد والسير .

(٢) سبل السلام [٢/ ٤٧١] .

الفصل الثاني

موقفنا من الأحداث ...

الغاية .. لا تبرر الوسيلة

١- مقدمات .. ولكن

قبل أن نعرض موقفنا من أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما لها وما عليها ، نجد لزاماً علينا أن نطرح بعض المقدمات التي لابد منها ، وأهم هذه المقدمات :

١ - أننا نكن كل تقدير واحترام للشيخ أسامة بن لادن والملا عمر ولكل من يعمل للإسلام ونقدر لهم بذلهم وعطاءهم وتضحياتهم ولا نشك في نياتهم المحبة للإسلام والراغبة في نصرة هذا الدين الحنيف .

٢- إننا نقدر - تمام التقدير - مشاعر المسلمين الكارهة لسياسات أمريكا التي تكيل بمكيالين - بل بمائة مكيال - في سياستها الخارجية خاصة فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية .

٣- ومع تقديرنا أن كثيرا من عوام المسلمين بل وخواصهم قد فرحوا بالأحداث - ليس لشرعيتها - ولكن نكاية في أمريكا وحليفتها إسرائيل .

ومع كل هذه المقدمات وغيرها إلا أن أحكام الشرع شيء والعواطف شيء .. فليس كل ما يسعد المسلمين ويشفي غليلهم ممن يغيظهم ويحاربهم تكون « سعادتهم » آية وبرهاناً على « مشروعية » الصنيع .. بل لابد أولا وأخيرا من انضباط الأمور بضابط الشرع الحنيف ، فما وافق الشرع أسعدنا وإن لم يوافقه فلا نقره أبدا مهما أحدث من نكاية في أعداء الإسلام . وهذا ما نعبر عنه دوماً وننهجه أبدا ، وهذه ليست مقدمة فحسب بل إنها ترتقي عندنا إلى مرتبة « المسلمات » فإن « شرعية الغاية لا تغني عن شرعية الوسيلة » وذلك لأننا نؤمن بأن الله تعالى قد تعبدنا بالوسائل كما تعبدنا بالغايات ، فلسنا من أتباع ميكافللي الذي يرى أن « الغاية تبرر الوسيلة » بل نحن من أتباع الحكيم الرحيم محمد صلى الله عليه وسلم الذي ما نصب لنا هدفاً سامياً ولا غاية نبيلة مشروعة إلا اشترط أن يكون سبيلنا إلى تحقيقها مشروعاً كذلك .

وفي ظل هذه المقدمات والمسلمات كانت رؤيتنا للأحداث ، وكان موقفنا منها . منضبطاً بالشرع الحنيف ..

○ **موقفنا من الأحداث** : لا مراء أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر بجسامتها وضخامتها وبراعة تنفيذها ودقة أدائها ومفاجآتها قد أدهشتنا - كما أدهشت سائر العالم - وتساءلنا - كما تساءل الجميع - عن كل شيء حولها .. إلا إن أهم ما أثار اهتمامنا من هذه التساؤلات :

- ما مدى مشروعية هذه الأحداث ، وتحديداً تفجير برجي مركز التجارة العالمي بكل من فيهما من رجال ونساء وأطفال بل ومسلمين أيضاً ؟
- إلى أي مدى ستمتد آثار ونتائج وتداعيات هذه الأحداث على الإسلام والمسلمين ؟

○ ○ ○

٢- بيان الجماعة حول الأحداث :

وبعد تأمل عميق للحدث واستشراف أعمق للمستقبل بادرت الجماعة – في غضون بضعة أيام فقط – إلى إصدار بيان – دقيق محدد يتناول موقف الجماعة من الحدث في ضوء النقاط الهامة التالية :

١- عدم مسئولية الجماعة عن الأحداث لا من قريب ولا من بعيد « وتلك حقيقة كان لابد من إبرازها » .

٢- تقييمنا للحدث من زاوية عدم مشروعية قتل المدنيين « سواء من العاملين بمركز التجارة العالمي أو ركاب الطائرات » بالإضافة إلى مخاوفنا ـ والتي تحققت فيما بعد ـ من آثار وتداعيات الأحداث على الإسلام والمسلمين وحكوماتهم ودولهم وثرواتهم ومقدراتهم ولقد كان هذا البيان الواضح في هذا الوقت الحرج استشرافاً واعياً من الجماعة لمستقبل الأمور ، ولعل من أهم ثماره أنه جنب الجماعة ووقاها من غضبة خصم غشوم لا يرعى للمسلمين حرمة ولا يرقب فيهم إلاًّ ولا ذمة .

وعلى الرغم من أن السياسة الأمريكية الظالمة تجاه المسلمين في كل بقاع العالم قد رسبت ورسخت عداوة عميقة متأصلة في نفوس كافة المسلمين تجاهها إلا أن ميزان الشرع للأمور هو مقياسنا ومعيارنا في الحكم على الأحداث .

ومما لا يُختلف عليه أن تلك الموجة « العاطفية » العارمة التي سرت وطغت وظهرت جلية في ربوع العالم الإسلامي تعبيرا عن

« السعادة » بالأحداث و « شماتة » في تلك القوى المتعجرفة الغاشمة « الولايات المتحدة » ما هي إلا نتاج طبيعي وثمرة حتمية لمسلك الولايات المتحدة الغريب في تعاملاتها وسياستها الخارجية إزاء كافة القضايا التي يكون المسلمون أحد أطرافها .. كالقضية الفلسطينية والصومال والفلبين والشيشان وداغستان والعراق و .. و ..

فالكيل بمكيالين هو الأساس في تعاملاتها مع المسلمين ، وتسلطها على هيئة الأمم

المتحدة لإضفاء الشرعية الدولية على ممارساتها العدوانية جعلها بمثابة الخصم والحكم والجلاد في آن واحد حتى تهكم البعض على هذه المنظمة الدولية فأسموها « الأمم المتحدة الأمريكية » .. هذا فضلاً عن حق الفيتو . « الأعرج » لإحقاق الباطل وإبطال الحق وكذا قانون حماية الأقليات الذي يسوغ لها بالباطل تجاوز كل حدود المنطق والقواعد الدولية وخصوصية وسيادة الدول بدعوى وزعم باطل تحت ستار حماية الأقليات .

كل هذه وغيرها ساهمت في إيجاد رصيد ضخم جدًّا من العداوة والكراهية للنظام الأمريكي ظهر جليًّا في التعاطف الجارف والسعادة البالغة بتلك « اللطمة » المهينة لأمريكا على يد إسلامي مجاهد وكوكبة من الشباب المسلم ، وليس هناك أكثر دلالة على حجم هذا التعاطف من أن ٤٠ % من المواليد الذكور في دولة كنيجيريا سماهم ذووهم باسم أسامة « وربما أسامة بن لادن » .

○ وقبل أن ننتقل من هذه الجزئية إلى غيرها نود الإشارة إلى بعض المنظمات والجماعات والتنظيمات الإسلامية التي سلكت مسلكنا إزاء أحداث سبتمبر :

○ **منظمة الجهاد الإسلامي** « **فلسطين** » :

أعلنت معارضتها لاستهداف المدنيين وأكدت على أن ميدان كفاحها هو أرض فلسطين فقط .

○ **حزب الله** « **لبنان** » :

أعلن عن أسفه لقتل أبرياء في أي مكان في العالم وعدم مسئوليته عن الحادث .

○ **عصبة الأنصار** « **جنوب لبنان** » :

نفى أية علاقة له بالأحداث ونفى أي علاقة تنظيمية له بتنظيم القاعدة .

○ **عسكر طيبة** « **كشمير** » :

نفى أي علاقة له بتنظيم القاعدة .

وغيرها العديد من الجماعات والمنظمات التي بادرت إلى إبداء موقفها من الأحداث بنفي أي مسئولية لها عنها وكذا اعتراضها عليها لما تحتويه في ذاتها من قتل للمدنيين يحرمه الإسلام وفي آثارها من تداعيات وآثار لا قبل للمسلمين عامة وللحركات الإسلامية خاصة بها .

○ **ومن الهيئات والمؤسسات الرسمية التي أدانت الهجمات :**

- رابطة العالم الإسلامي .
- مجمع الفقه الإسلامي « منظمة المؤتمر الإسلامي » .
- الأزهر الشريف .
- هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف .
- مفتي السعودية .

والقاسم المشترك بينها جميعاً : إدانة قتل المدنيين ..

○ **ومن الشخصيات الإسلامية المستقلة التي أبدت مواقفها من الأحداث :**

- الدكتور يوسف القرضاوي .
- الاستاذ فهمي هويدي .
- الدكتور محمد سليم العوا .
- الدكتور أحمد كمال أبو المجد .
- الدكتور مصطفى محمود .

○ **شهادة موضوعية وتقييم مجرد للحدث :**

ورغم أننا لسنا بصدد تقييم أحداث الحادي عشر من سبتمبر من الناحية السياسية أو العسكرية ولكن لا بأس من الاستئناس ببعض الشهادات الموضوعية التي أوردها بعض المحللين والمراقبين للأحداث :

فمثلاً يقول محمد حسنين هيكل :

« .. وفي كل ما عرفه العالم في مجالات ما يسمى « بالإرهاب » فقد كان ما بدا من هدف العمليات في كل المرات « السابقة » هو إحداث أكبر كمية من التأثير السياسي تزيح من الطريق عقبات أو تفتح على الطريق مخرجاً .

أما ما جرى في نيويورك وواشنطن فلم تكن فيه سياسة ولم يكن فيه « قبل » و « بعد » . وإنما تبدي العمل مكتفيا بذاته : مقدمة ونتيجة وكل شيء .. ضربة انتقام أو ضربة عقاب يحركها انضباط صارم من اللحظة الأولى وحتى المشهد الختامي »[1] .

○ ○ ○

(١) مجلة وجهات نظر . عدد ديسمبر ٢٠٠١ .

٣- طالبان .. الدور المفتقد .. والخصوم المتربصة :

كان على حكومة طالبان - وقد قيض الله لها السيطرة على ٩٠ ٪ من أرض أفغانستان ونجحت في تأسيس دولة إسلامية سنية فريدة - كان عليها - كنموذج فريد في منظومة المجتمع الدولي - أن تستوعب ما سبقها من تجربة إيران وموقف المجتمع الدولي منها ، وكان عليها أن تفطن إلى أهميتها كـ « دولة محورية » في المنطقة وجسر ممتد بين الجمهوريات الإسلامية المنسلخة من الاتحاد السوفيتي سابقاً وبين الدول الإسلامية جنوبها مثل باكستان وإيران وتركيا .

كان بإمكانها - بشيء من الفطنة وبعد النظر وحسن السياسة - أن تستثمر :

١- الروابط العقيدية مع دول الجوار .

٢- المصالح المشتركة بين كل دول المنطقة في إقامة تكتل اقتصادي فعال وكيان متحد ذى تأثير في المنطقة .

كان على طالبان أن تفطن إلى خصومها الكُثر وأبرزهم :

- الولايات المتحدة الأمريكية .
- روسيا الاتحادية .
- الاتحاد الأوروبي .
- الهند .
- الأنظمة القائمة في الجمهوريات بآسيا الوسطى .
- العلمانيون في كل مكان .
- معظم الأنظمة القائمة في البلدان العربية والإسلامية .

ولكل من هؤلاء الخصوم دواعيه وأسبابه التي لا تخفى على مراقب فضلاً عن أن تخفى على طالبان ذاتها .

والمؤلم أيضاً أن طالبان لم تفطن إلى « رفض » المجتمع الدولي لها كنموذج للدولة الأصولية فلم يعترف بها سوى ثلاث دول : باكستان - السعودية - الإمارات فقط رغم سيطرتها على ٩٠ ٪ من البلاد . فإذا بها بدلاً من أن تسعى إلى توثيق صلاتها وتوطيد علاقاتها بهذه الثلاث إذا بها تسمح بممارسة بعض الأعمال التي من شأنها إحراج هذه الدول وإجبارها على قطع علاقتها بها بل وسحب اعترافها

بها « مثل تفجيرات الخبر والرياض » .

ثم كانت قاصمة الظهر بأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التي كانت مسوغا ومبررا ليس فقط لإسقاط حكومة طالبان بل لاجتياح البلاد ودكها وتدميرها وقتل مواطنيها في هجوم وحشي بربري يشبه زحف التتار .

وإنا لله وإنا إليه راجعون .

○ **الهدف المستحيل** : ورغم تقديرنا للشيخ أسامة بن لادن ولبذله وعطائه وجهاده إلا أننا نأخذ على مسلكه في مواجهة كل خصومه في آن واحد وفتح عدة جبهات في آن واحد متحدياً بذلك سنن اللّه الكونية وأيضاً مخالفاً بذلك سنة الحبيب المصطفى صلى اللّه عليه وسلم الذي لم يحارب على جبهتين معاً في آن واحد ..

فالشيخ أسامة كان يخطط لما يمكن تسميته « الهدف المستحيل » فهو كان يسعى إلى دعم المجاهدين الشيشان للاستقلال عن روسيا ، وكذلك دعم مجاهدي داغستان لذات الهدف ، وكذا دعم مجاهدي طاجيكستان لإقامة نظام حكم إسلامي وأيضاً كان يسعى إلى طرد الأمريكيين من جزيرة العرب وإخراج الهند من كشمير وضرب أنظمة الجزائر وليبيا وتونس .. كل هذا وغيره في ذات الوقت بما يشبه المستحيل .. فكان ما كان .

فمن اصطدم بسنن الكون فإن هذه السنن الكونية لا تتحطم ولا تتغير ولا تتبدل ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] .

ولكن الذي سيتحطم هو الذي يصطدم بهذه السنن الكونية .. وسنن اللّه لا تحابي أحدا ولا تجامل أحدا .. لن تجامل هذا لكونه مسلماً أو طائعاً .. ولن تحابي جماعة لأنها جماعة إسلامية .. ولن تحابي دولة أو أمة لأنها دولة أو أمة مسلمة . فمن غرس في البحر ومن زرع في الأرض البور فلم يخرج له ثمر فلا يلومن ربه . ولكن عليه أن يلوم نفسه .

٤- التاريخ مخزن العبر .. « من خوارزم شاه إلى الملا عمر »

ما أعظم التاريخ معلماً وهادياً ومرشداً .. فالتاريخ كله عبر ودروس وعظات ، وصدق الله العظيم إذ ساق لنا في كتابه المجيد من سير الأمم الخوالى ما نعتبر به . فالتاريخ مخزن حافل بكل ما يحتاجه القائد في مسيرته وجهاده من دروس ومواقف لا غنى له عنها ليستبصر بها طريقه .

وكنا نتمنى من رموز طالبان وقادة القاعدة – وهم من هم من طلاب العلم والمعرفة – أن يعتبروا بما حدث للسابقين .. دول وممالك وإمارات خاضت صراعات مريرة لأنها لم تقدر للقدم قبل الخطو موضعها .. فكانت نهايتها وزوالها أو تعثرها ودمارها .

وليس ببعيد عنا وعنهم أن الحرب العالمية الأولى « ١٩١٤ – ١٩١٨ » اندلعت وتأججت واستعرت والتهمت قرابة عشرين مليوناً من البشر وأصاب لهيبها عشرات الدول والإمبراطوريات والممالك وزال بعضها من على خريطة الكون وتفتتت أخرى وويلات وثبور وهلاك ودمار و .. و .. ولم تكن الشرارة الأولى لتلك الحرب العاتية سوى حادث بسيط تمثل في قيام اثنين من « الصرب » باغتيال ولي عهد النمسا في مدينة سراييفو فكان ما كان .

ولعل المثال الأقرب لحالتنا نحن « كمسلمين » هو ذلك الزحف المغولي البربري الوحشي الذي اجتاح دولة الإسلام من أقصى بلاد ما وراء النهر حتى مشارف مصر والشام في عين جالوت قتلا وتدميرا وتحريقا وتخريبا وكل ما لا يخطر على البال من أبشع وأشنع صور الخراب حتى إن أحد المؤرخين يصف ذلك الحدث الجلل بقوله :

« هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، وعمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً . فإن التاريخ لم يتضمن ما

يقاربها ولا يدانيها .. ولعل الخلائق لا يرون مثلها إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج .. »[1] .

ولن نسهب في ذكر تفاصيل هذه الطامة الكبرى التي قوضت دولة الخلافة الإسلامية ودمرتها إلى أن قيض الله لها من ضمد جراحها وجبر كسرها برحمته ومنته ، ولكن الذي يعنينا هنا هو « لماذا ؟ » .. نعم .. لماذا تدفقت جيوش التتار على ديار الإسلام كالسيل المنهمر أو كالرياح العاتية ؟

السبب لا يختلف في جوهره عما حدث بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر من زحف « تتاري » همجي على أفغانستان ولا ندري أين عين جالوته ؟ ولا من قطز ؟

تروي كتب التاريخ عن سبب اجتياحهم لديار الإسلام فتقول : إن جنكيز خان – ملك التتار – بعث تجاراً له ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يتضعون ثياباً للكسوة ، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه « وكان عمه » يذكر له ما معهم من الأموال الوفيرة ويرغبه في الاستيلاء عليها ويقال إن خوارزم شاه قد نهاه عن ذلك ولكنه قتلهم واستولى على أموالهم زاعماً أنهم عيون وجواسيس ، فلما بلغ ذلك الأمر جنكيز خان ساءه فأرسل إلى خوارزم شاه يلومه أن يحدث هذا لتجاره المستأمنين في ظل سلطانه الإسلامي ويطالبه بتسليم قتلة التجار وأموالهم قصاصاً منهم فأبى ذلك خوارزم شاه وامتنع عن تسليمهم فأرسل إليه جنكيز خان يتوعده باجتياح بلاده إن لم يسلمهم له فزاد امتناعه « بل ويروى أنه قتل الرسل مخالفاً بذلك أعراف الدين والمجتمع » .

وأعد عدته واستعد للقاء جنكيز خان واستنصر من حوله من الممالك والإمارات فلم يستجيبوا لنصرته فما كان منه « خوارزم شاه » إلا أن هاجم ممالكهم وإماراتهم وغنم أموالهم ووترهم في ذراريهم ، ثم إنه اغتنم فرصة كان التتار فيها في شغل في بقاع الصين شرقاً فأغار على حدودهم واغتنم أموالهم وسبي ذراريهم ونساءهم فما

(١) البداية والنهاية .

أن شعر التتار بذلك حتى انهمروا كالسيل الجارف وكانت البداية التي يشيب الولدان بتأمل أحداثها البشعة الشنيعة .. ومن عجيب الأقدار أن بداية ذلك الزحف الهمجي كانت من ذات البقعة التي تشغلها حالياً أفغانستان في بلاد ما وراء النهر وما أشبه الليلة بالبارحة .

وبقليل من التأمل يمكن القول بأن تلك الطغمة المتجبرة من التتار ما كانت تفكر في اجتياح وتدمير دولة الإسلام لولا تلك الحادثة الغريبة .. ولولا عناد خوارزم شاه ونظرته المحدودة للأمور ما كان لدولته أن تزول .. ولولا سوء تدبيره للأمر بقطع وشائجه وصلاته مع بني جلدته من أمراء وحكام البلدان المجاورة بعدوانه عليهم لكان من الممكن أن يجد له سندا وعونا عند كربته ولولا .. ولولا .. ولكنها أقدار الله تجري في خلقه .

وكل ما أردنا الإشارة إليه هو أن التاريخ يعيد نفسه وإن تغيرت الشخوص . وما أكثر أوجه الشبه بين ما حدث بالأمس وما يحدث الآن .. وإنا لنرجوه - العلي القدير - أن يقيض لنا قطزا يذود عن البلاد والعباد .

○ ○ ○

٥- هيروشيما ونجازاكي
دروس لم يقرأها الشيخ أسامة بن لادن والملا عمر جيدا .

ما عاد في قلب أمتنا مكان لجرح جديد .. فلقد نزل بها من المصائب ما يكفينا أعواماً قادمة ويزيد .. ومع أننا نجيد فن القراءة والكتابة ونكثر من الخطابة ، لكن يبدو أننا لا نستفيد .. فما جدوى قراءة التاريخ إذا كنا نكرر أخطاءه بلا مبالاة إلا إذا كان ما حدث تكريساً لمبدأ الجهاد من أجل الجهاد وليكن ما يكون .. رغم أن هدف الجهاد في الإسلام هو إعزاز الدين والمسلمين ورد العدوان .

لماذا نترك التاريخ يعيد نفسه بدلاً من أن نعيد نحن كتابته من جديد .. ربما لا نستطيع أن نفعل شيئا جديدا لكنا نستطيع أن نستفيد من تاريخ طويل للتجارب الفاشلة والأخطاء القاتلة .

فهذه تجربة اليابان تقفز إلى الذاكرة عقب سقوط البرجين يوم الثلاثاء الأسود الذي استدعى أياماً أخرى سوداء عاشتها الولايات المتحدة .

يقفز إلى الذاكرة ذلك النصب التذكاري المقام لتخليد ذكرى ضحايا قنبلة هيروشيما والذي يحمل أسماء أكثر من مائتين وعشرين ألف شخص هم الذين إما لقوا مصرعهم أو تعرضوا للإشعاع .. ما كان أغنى اليابان عن مثل هذا النصب الحجري .. ذهب ما ذهب وبقى هذا الحجر لمن يرى ويعتبر .

حدث أنه في يوم السابع من ديسمبر ١٩٤١ قامت ثلاثمائة وخمسون طائرة يابانية بضرب مواقع الأسطول البحري الأمريكي في ميناء « بيرل هاربر » في مدينة هونولولو - جزر هاواي بالمحيط الهادي - وكانت الخسائر عظيمة حيث قتل ألفان وثلاثمائة وخمسة وثلاثون من العسكريين وثمانية وستون من المدنيين وجرح ألف ومائة وثلاثة وأربعون من العسكريين و خمسة وثلاثون من المدنيين وغرق الأسطول الأمريكي في قاع بيرل هاربر « ثماني عشرة سفينة حربية منها أربعة بوارج » .. فضلاً عن مائة وخمسين طائرة تحطمت أو أصيبت بأضرار فادحة .

زاد على ذلك أن الأثر النفسي للحادث كان عظيماً ، فقد سقطت الكرامة والهيبة وأحس الشعب الأمريكي بالمهانة والذل ..

حدث الهجوم والحرب العالمية الثانية يشتد أورها بين إنجلترا وألمانيا بينما تجري مباحثات بين أمريكا واليابان لحل خلافاتهما المشتركة سلميا حتى قال روزفلت هذا هو بالضبط ما يفعله اليابانيون يتحدثون عن السلام وهم يدبرون للحرب سرًا .. ولم تكن اليابان تريد حرباً طويلة مع الولايات المتحدة .. كانت تهدف إلى توجيه ضربة قاضية للقلعة الأمريكية العائمة في المحيط الهادي حتى تجبر أمريكا على الانسحاب من جنوب شرق آسيا وتكف عن مساعدة الصين ، كانت اليابان تظن أن أمريكا لن تحارب في جبهتين .. وقد أثبتت الحرب خطأ اليابانيين بلا شك حيث ردت الولايات المتحدة بدخولها الحرب العالمية الثانية وضربت اليابان بما هو أشد : .. بالقنبلة الذرية .. ففي يوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥ انطلقت قاذفة القنابل « ب - ٢٩ » لتلقي أول قنبلة ذرية على هيروشيما وكان اسم القنبلة الولد الصغير وتسبب هذا الولد الصغير في قتل ثمانين ألف مواطن وجرح سبعين ألفا ، فضلاً عن الخراب والدمار والحرائق .. وبعد يومين أي في يوم الثامن من أغسطس ألقيت قنبلة أخرى على نجازاكي وكان اسم القنبلة الرجل المسن قتلت خمسة وأربعين ألف شخص وجرحت خمسة وثلاثين ألفا .

كانت قوة قنبلة هيروشيما عشرين كيلو طن أي ما يعادل ٢٠ مليون كيلو جرام من المفرقعات المعروفة باسم « تي . إن . تي » أما قنبلة نجازاكي فكانت قوتها أقل أربعة عشر كيلو طن . ويطلق على قنبلة هيروشيما القنبلة القياسية وقد أصبحت قنبلة صغيرة جدًا إذا قورنت بالقنابل الحديثة والتي تقدر بالميجا طن « والميجا = ١٠٠٠ كيلو طن ، أي ما يعادل قوة ٥٠ قنبلة قياسية » .

والتاريخ لا يقف عند هذا الحدث ، ولكن الحدث هو الذي يقف ليفسح المجال أمام حدث جديد . وإذا كان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين فهو أيضاً لا يلدغ من جحر لدغ منه غيره خاصة إذا كانت الخسائر كبيرة وليس لدينا رصيد .

ولنعط للتاريخ فرصة كي يتحدث ، فلا شك أن التاريخ يريد أن يقول لنا الكثير والكثير ، ولا شك أننا أحوج ما نكون لدروس التاريخ وقد ألم بالأمة ما ألم بها مما لا يخفى على أحد .

نقولها صريحة : كفى أمتنا جراحاً تنزف ، فلا أقل من أن نتركها تنزف بدلاً من أن نجهز عليها بعملية جراحية فاشلة .

لقد عانت أمريكا قدرا من المهانة والألم وسقط كبرياؤها وضاعت هيبتها من جراء الهجوم الياباني على قاعدة « بيرل هاربر » رغم أن ذلك تم خارج الأرض الأمريكية ، وما كان من الولايات المتحدة إلا أن اتخذت أخطر قرار في تاريخ البشرية في رد فعل غير عقلاني بالمرة وضربت هيروشيما ونجازاكي بسكانها المدنيين بالقنابل الذرية وأعلنت الحرب على اليابان .

فما الظن وما الحدس وقد سقطت هيبتها وكرامتها مع أبراجها القوية داخل الأرض الأمريكية وفي وقت عرسها وارتدائها ثوب الإمبراطورية والقطب الأوحد والزمن الأمريكي ؟

لاشك أنه بحجم الإهانة والأثر النفسي على المواطن الأمريكي المغرور ستلجأ الولايات المتحدة إلى رد فعل غير عقلاني أيضاً ، فهذا هو الأقرب إلى العقلية الأمريكية خاصة في ظل عداء الغرب للإسلام ، ووجود من ينمي هذا العداء داخل الإدارة الأمريكية من يهود ويمين مسيحي متطرف . وهذا ما يحدث الآن وما تزال أمريكا تبحث عن مزيد .

وما أشبه الليلة بالبارحة .. فهل تساءل الشيوخ وقد عركتهم التجربة إذا تشابهت المقدمات فهل يمكن أن تتشابه النتائج ؟

لم تكن اليابان تريد حرباً طويلة ولكن أمريكا جعلتها كذلك .. فهل نكرر المشهد ؟ لم تصمد اليابان أمام قنبلة ذرية صغيرة .. فهل تصمد الحركات الإسلامية الضعيفة ودولها أمام الترسانة الأمريكية الحالية ؟

لقد أخطأت اليابان عندما ظنت أنها تستطيع بضربة خاطفة أن تجبر أمريكا على

سياسة معينة .. فهل يمكن أن نخطئ نحن كذلك ؟

هل حول الهجوم الياباني الولايات المتحدة من عملاق إلى قزم ومن دولة عظمى إلى دولة تبكي على الأطلال .. حتى نكرر المحاولة مرة أخرى ؟

هل تحملت اليابان رد الفعل الأمريكي أم أنها أعلنت الاستسلام الذي لن نعلنه ؟ إنها أسئلة .

والتاريخ كفانا مؤنة الإجابة عليها .

○ ○ ○

٦- سُنن الإسلام في ديار غيرهم « دروس من هجرة الحبشة »

إن المرء ليأسف أشد الأسف حين يغفل المسلمون عن سيرة الصحب الكرام ونهجهم القويم في سياسة أمورهم لخدمة دينهم بفطنة وحصافة ، وهجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة وإقامتهم بين ظهراني قوم يخالفونهم في دينهم وعقيدتهم وقيمهم وعاداتهم ، وفي ظل حكومة لا تنتمي إلى دينهم - آنذاك - ولا تحكم شريعتهم هذه الهجرة الميمونة كانت « مدرسة » حافلة بالعظات والعبر لمن يعتبر .

ولما كانت هذه الأحداث الجسام من صنع « كوكبة » من طلائع شباب الإسلام - على حد تعبير الشيخ أسامة بن لادن في بيانه الأول عقب الأحداث - ..

ولما كانت هذه « الكوكبة » هم شباب مسلم عربي يقيم معظمهم في أمريكا وأوربا بينما يتردد الباقون عليها بصفة دائمة ؛ فإن هذا يحدونا إلى أن نستعرض سنن الإسلام الحنيف في ضبط العلاقة بين :

« المسلمين » المهاجرين « الضيوف / الغرباء » وبين قيم ونظم وقواعد وقوانين ومناهج تلك المجتمعات التي يأوون إليها ، وذلك في ضوء النمط الراقي والسلوك الحضاري العظيم لمهاجري الحبشة نحو مليكها « النجاشي » وحاشيته « البطارقة » والمجتمع الحبشي بأسره .

ولئن كان المقام - في هذه الدراسة الموجزة - لا يتسع لذكر دقائق وتفاصيل هذه الرحلة المباركة ، فلا أقل من أن نغتنم هذه السطور في عرض « ومضات » براقة منها مع إبراز أهم دروسها وحكمها ..

إذ تروي كتب السيرة[١] :

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق .. فكان عدة من خرجوا - في الهجرة الثانية - ثلاثة وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة » .

---

(١) سيرة ابن هشام .

وفي ذلك دلالة على جواز أن يأوي المسلم إلى أي مكان يجد فيه أمنه وحريته في العبادة والعقيدة .

ولكن .. كيف يصنع إزاء تلك المجتمعات المختلفة عنه قلباً وقالباً ؟

○ لم يقم المسلمون بتكسير صلبان نصارى الحبشة ولا هدم كنائسهم وإحراق حانات خمورهم ، وإنما قاموا متمسكين بتوحيدهم لله ملتزمين بشرائع إسلامهم محافظين على طاعاتهم وعباداتهم .. كل ذلك في إطار « علاقة حميدة » من حسن الجوار وفي ذلك تقول السيدة أم سلمة رضي الله تعالى عنها :

« لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار « النجاشي » أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه ..»[1] .

○ وقد أثمر « حسن الجوار » هذا ثماره الطيبة المرجوة منعة « وحماية » نطق بها النجاشي ذاته عندما جاءه رسل قريش يطلبون منه أن يسلمهم هؤلاء المهاجرين إذ يقول : « لا والله لا أسلمهم إذن ، قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي » وما كان للنجاشي أن يقول هذا إلا لما رآه منهم من حسن عشرة وطيب مقام .

وتعرض لنا كتب السيرة موقفاً عظيماً ومنهجاً قويماً في فن التفاوض ومهارة كسب الأصدقاء والحلفاء والأنصار مهما خالفونا حتى في عقائدهم ، وذلك حفاظاً على وجودهم هناك .

فها هو جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يناظر ويحاجّ عمرو بن العاص في مجلس النجاشي مفنداً حججه بأسلوب ذكي يخاطب عقل وقلب النجاشي معاً .. فيقول بعد أن وصف حالهم في جاهليتهم ثم ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهداية والهدى .. يقول :

« .. فعدا علينا قومنا وعذبونا .. فلما قهرونا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٥ / ٢٩٠] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق ، وابن خزيمة في صحيحه [٢٢٦٠] .

سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك » .
ففي هذه العبارات البليغة من الدروس والحكم ما يجدر بنا أن نتأمله مليًا وننهجه جليا .. فها هو جعفر يفند بالحجة الصائبة حقيقة دعوى عمرو وهاهو جعفر يدغدغ بالقول الرقيق مشاعر النجاشي مخاطباً قلبه ومستثيراً نخوته .. مختتماً مقالته بثناء حصيف لطيف متزن لا يحمل المبالغة الكاذبة ولا التجاهل المهين وبأسلوب راق رقيق ليس فيه تزلف رقيع ولا تملق وضيع .. كل هذا في سبيل حفاظه على الوجود الإسلامي في الحبشة .
إلا أن حرص جعفر رضي اللّٰه تعالى عنه ورفاقه المهاجرين على الحفاظ على وجودهم الإسلامي في الحبشة ما كان لينال هذا الحرص شيئاً من قواعد هذا الدين وثوابته وأصول عقيدته .. وقد تجلت قوة إيمان جعفر رضي اللّٰه تعالى عنه مع حصافته وحسن تدبيره للأمور عندما واجه اختبارا عصيبا أمام النجاشي بإيعاز من موفد قريش – عمرو بن العاص – حين أثار حفيظة النجاشي قائلاً محرضاً : إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً .
وهنا تظهر فطنة صاحب العقيدة الحصيف الذي كان يتحاشى دائما إبراز مواطن الخلاف ومواضع الاختلاف مع أهل البلد الذي آواهم ، فلما احتدم الأمر صدع بالحق الذي جاء به صاحب الرسالة مؤثرا ثباته على ذلك الحق على ميزة أخرى .
تروي كتب السيرة هذا الأمر فتقول :
« .. فأرسل إليهم النجاشي ليسألهم عن عيسى ابن مريم عليه السلام قالت أم سلمة رضي اللّٰه تعالى عنها : ولم ينزل بنا مثله قط . فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول واللّٰه فيه ما قال اللّٰه وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن .
فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم : هو عبد اللّٰه ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، قالت فضرب النجاشي يده إلى

الأرض فأخذ منها عودا . ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود »[1]

فكانت حصافته وفطنته رضي اللّٰه تعالى عنه هي أن يصدع بالحق في أسلوب رقيق صريح ولم يفته أن يعزو هذا الحق إلى مصدره السماوي ليكون ذلك أبلغ في الإقناع وأجدى في التأثير .. فكان ما أراد وتحقق ما تمنى وازداد جعفر والمهاجرون منزلة ومكانة ومنعة « وحماية » عند النجاشي .. وتتمة القصة تقول :

« فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال لهم : وإن نخرتم واللّٰه . اذهبوا فأنتم شيوم « آمنون طلقاء » في أرضي . من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دَبْرا من ذهب وأني آذيت رجلا منكم .. » .

فما كان لهؤلاء النفر الغرباء المهاجرين أن يحظوا بهذه المنزلة والحماية والرعاية إلا بسياستهم الحكيمة المتزنة الهادئة ودبلوماسيتهم الواعية الراقية في تعاملاتهم مع الجميع حكاماً وحاشية ورعية .

بل بلغ الأمر ما هو أكثر من ذلك من النصرة له كما تحدثنا عن ذلك السيدة أم سلمة رضي اللّٰه تعالى عنها فتقول :

« .. وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار ، فواللّٰه إنا على ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ، فواللّٰه ما علمنا حزنا حزناه قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي فيأتي رجلا لا يعرف من حقنا ما كان يعرف النجاشي منه » .

ولم تقتصر هذه النصرة على مجرد الأماني بالنصر أو الحزن على الأمر بل تخطته إلى المجازفة والمخاطرة بإيفاد الزبير بن العوام «مراقباً » لسير المعركة بين النجاشي وخصمه ، تقول :

« .. وسار إليه النجاشي وكان بينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول اللّٰه

(١) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٥ / ٢٩٠] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق .

صلى اللّٰه عليه وسلم : من رجلٍ يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا ، وكان من أحدث الناس سناً ، فنفخوا له قربة فجعلها على صدره ثم سبح بها حتى خرج من ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت أم سلمة رضي اللّٰه تعالى عنها : فدعونا اللّٰه للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده .. حتى جاءنا الزبير بالبشرى قائلاً : ألا ابشروا فقد ظفر النجاشي ، وأهلك اللّٰه عدوه ومكن له في بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة ، وكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وهو بمكة » .

ومن هذه السيرة العطرة لهؤلاء المهاجرين الأوائل في رحلتهم وتجربتهم العظيمة يمكننا استخلاص الدروس الآتية :

- لا بأس بانتقال المسلم من بلده إلى مكان آخر أكثر أمناً وحرية للعقيدة والعبادة والدعوة .
- لا مانع شرعاً من الاستفادة بقوانين وقيم ونظم المجتمعات غير المسلمة ما دام ذلك في مصلحة الإسلام وما لم يمس عقيدته وثوابته .
- استثمار قيم النخوة والرجولة والشهامة خاصة لدى الرموز والرؤوس لصالح الإسلام . « الأمير تشارلز وموقفه من قضية الحجاب للطالبات المسلمات » .
- إن بعض غير المسلمين قد يقيضهم اللّٰه لحماية الإسلام والدفاع عنه ، وبعضهم قد يلزم الحياد ، كما أن منهم من لا يحب هذا الدين ويسعى لاستئصاله ، فمن الإنصاف معاملة كل منهم بما يستحقه ، ومن الخطأ بل من التخبط معاملتهم سواء .
- على المسلم الحصيف ـ سياسيًا ودبلوماسيًا ـ أن يتناول « نقاط الالتقاء » بين الإسلام وقيم ونظم تلك المجتمعات وأن يتحاشى « نقاط الخلاف » معها ما وسعه ذلك .

○ لا مساومة على العقيدة وثوابت الإسلام .. فالمسلم صاحب مبدأ وليس تاجر سياسة .. فلتذهب المكاسب مهما عظمت ولتبق العقيدة ..

هذه بعض دروس هذه التجربة الخالدة .

والمتأمل - بإنصاف - لواقعنا المعاصر لا يسعه إلا أن يقر ويشهد بأن :

أ - جل دول الغرب كانت تمنح الأفراد « مواطنين / لاجئين / مقيمين ... » من الحماية والرعاية الكثير والكثير .

ب- كان للأفراد هناك من الحريات والحقوق السياسية والمدنية أضعاف ما هو متاح لأمثالهم في أماكن كثيرة أخرى .

ج - حتى الديمقراطية - وهي تحمل بعض القيم الغير إسلامية - إلا أنها خير للحركة الإسلامية من تلك « الدكتاتورية » المستبدة ، فالديمقراطية مناخ دائم للدعوة وانتشار الدين بلا خوف وذلك لما تنص عليه من حرية العقيدة وحرية التعبير عن الرأي .

ء - الأنظمة الحاكمة في دول الغرب تحترم قوانينها ودساتيرها وأحكام قضائها وتلتزم قيمها وتقاليدها مما يكفل للمسلمين المقيمين بها مناخا مستقرا مناسبا .

○ **والشاهد من هذا :**

أنه لو أن شبابا مسلما غيورا ساقته أقداره ـ طواعية أو قسرا ـ للإقامة بأحد المجتمعات غير المسلمة فإن عليه أن يتأسى بهؤلاء المهاجرين الأوائل إلى الحبشة في سياستهم الحكيمة إزاء حكومات وحكام وقوانين وقيم تلك المجتمعات غير المسلمة باحترامها والالتزام بها ما لم تمس ثوابت عقيدتهم ..

فإن أبوا إلا الخروج على تلك النظم ومخالفة تلك القوانين فليرحلوا عنها إلى غيرها فإن بادرت تلك الدول إلى ترحيلهم عنها لمخالفتهم فلا عتاب عليها ولا لوم .

بل إن الأمور ـ كانت قبيل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ كانت أكثر ملاءمة ومواءمة لإقامة هؤلاء الشباب المسلم هناك دعاة إلى الإسلام ومدافعين عن

قضايا بلادهم ودينهم في تلك البلاد والمجتمعات .. فالمناخ السياسي « الديمقراطي » يتيح لهم حرية الدعوة والتعبير عن الرأي والتقدم الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي يؤهل أبناء تلك المجتمعات لقبول وتلقي الرؤى والمعتقدات والأطروحات الجديدة عليهم ، والبيئة الثقافية الخصبة أورثت لديهم « شغفاً » بالمعرفة والدراسة والبحث والتحري بموضوعية وتجرد خاصة إزاء عقائد وثقافات الآخرين .

وأهم من هذا كله تلك الوفرة بل الغزارة المتطورة الكثيفة « لوسائل الإعلام » والدعوة والنشر من صحافة / إذاعة / تلفاز / إنترنت / فضائيات / كتب / لقاءات وندوات / .. وغيرها من الوسائل الدعوية البالغة الأهمية والتأثير في الذيوع والانتشار وفق أحدث النظم التكنولوجية المتطورة .

فلو أن هؤلاء الشباب استثمروا تلك البيئة الخصبة وذلك المناخ الملائم سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا وإعلاميًا وتكنولوجيًا لحققوا للإسلام مكانة رفيعة ولدافعوا عن قضايا بلادهم أبلغ دفاع ولنصروا إخوانهم المستضعفين أيما نصرة .

ولكن .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

○ ○ ○

تضاربت الآراء حول من قام بالحدث ؟ أهو أسامة بن لادن أم غيره ؟

وتوالت النظريات التي تفسر الحادث ودواعيه وفاعليه و .. و .. وكان أظهرها نظرية « المؤامرة » .. ووفق هذه النظرية وأصحابها فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر دبرها الأمريكيون أنفسهم واتخذوا منها ذريعة للدخول إلى أفغانستان واحتلالها .

أو أن الأحداث دبرها ونفذها الموساد لكي يورط العرب والمسلمين في حرب غير متكافئة مع أمريكا والغرب .. ويستدل أصحاب هذه النظرية باستدلالات واهية لا يقبلها كل ذي عقل سديد ، فيستدلون بأشياء قدرية وقعت يوم الحادث ويغفلون عن آلاف الأدلة والقرائن الأخرى التي تدل على أن تنظيم القاعدة هو الذي خطط ونفذ هذه العملية ولعل أبرزها ما صرح به قادة وشيوخ هذا التنظيم صراحة ..

ومن أشهر من تبنى « نظرية المؤامرة » تلك : الكاتب الفرنسي « ميسان » في كتابيه : الخديعة ، بنتاجيت .. حيث ادعى أن الأمريكيين أنفسهم هم الذين صنعوا الحدث وإن كان هذا الكاتب « الغربي » لا يهمنا في شيء .

ولكن ما يحزن حقا هو أن كثيرا من العرب والمسلمين ممن كتبوا عن الحادث أخذوا بنظرية المؤامرة بشكل أو بآخر في تفسير الحدث .. فبعضهم نسب الحدث إلى المتطرفين الأمريكيين - كما حدث في تفجيرات أوكلاهوما - وبعضهم قال فعلته المخابرات الأمريكية وبعضهم قال فعله الموساد .. و .. و .. إلى آخر هذه التفسيرات السقيمة .

وللأسف فإن أكثر المقتنعين بنظرية المؤامرة تجدهم في الوطن العربي والإسلامي . ومما يدعو للدهشة أن بعض المفكرين الإسلاميين والعرب يعتنقون هذه الفكرة ويجعلونها محوراً دائماً لتفسير الأحداث التي تمر بنا ، بل ويعلمونها للناشئة الصغار ويربونهم عليها وهذا هو الأدهى والأمر .

إن نظرية المؤامرة هي أسوأ نظرية تعوق العقل العربي والإسلامي عن الانطلاق ، وتحد من قدرته على حل المشكلات لأنها لن تجعله يحلل المشكلات تحليلاً سليماً وبالتالي فلن يعرف حدودها وأسبابها بدقة .

فمثلاً : اجتياح العراق للكويت عام ١٩٩٠ مؤامرة أمريكية دبرتها أمريكا للعراق !! مع أن الجميع يعلم غير ذلك ، وقتل الشيخ الذهبي على يد جماعة التكفير مؤامرة دبرتها الحكومة ونفذتها للتخلص منهما معاً !! مع أن القاصي والداني يعلم غير ذلك ، وحرب أكتوبر « تمثيلية » بين السادات وإسرائيل وأمريكا لتحريك الموقف !! مع أن كل ذي عقل سديد يعلم أنها من أعظم حروب المسلمين في العصر الحديث والتي رفعت رأس العرب والمسلمين عالياً .

وكذا أحداث الحادي عشر من سبتمبر دبرها الموساد لكي يسلط أمريكا على العالم الإسلامي ، والحقيقة طبعاً غير ذلك .. وقتل السادات بتدبير المخابرات الأمريكية وبمؤامرة أمريكية !! وهذا أيضاً مخالف لأبسط الحقائق في هذا الحادث ..

وما دام بعض العرب والإسلاميين يتبنون « نظرية المؤامرة » وأننا مبرؤون من كل خطأ وأن كل ما يدور حولنا هو نتيجة مؤامرة إمبريالية صهيونية غربية وما دمنا كذلك فلن نتقدم أبدا .

إن المعنى الحقيقي « لنظرية المؤامرة » هو إلغاء إرادتنا وإرادة كل أحد سوى أعداء الإسلام ، وتعليق كل أخطائنا وسلبياتنا على شماعة المؤامرة الأمريكية الصهيونية ، وكأننا لا دور لنا في أي حدث يحدث في العالم .

وأنصار نظرية المؤامرة يرون في العلاقات الدولية مجرد تآمر وليس تلاق وتعارض مصالح تتطلب التخطيط لتحقيقها ، ويعولون على العامل الخارجي « الأمريكي » في تفسير كل مآسينا ، وتجاهل أخطائنا الاستراتيجية ..

ومن أبرز وأسوأ الكتب التي شكلت العقل العربي المهيأ أساسا لنظرية المؤامرة وجعله يتقبل ويُعجب بهذه النظرية هو كتاب انتشر بين شباب الحركة الإسلامية

في الستينات والسبعينات وهو كتاب « أحجار على رقعة الشطرنج » .. وقد أتى هذا الكتاب بسلبيات كثيرة شوهت العقل العربي والإسلامي وشوشت فكره وكانت سلبياته أكثر من إيجابياته .

ذلك كله فضلاً عن إشعار المسلمين أنهم لا إرادة لهم ولا فائدة من أن تكون لهم إرادة للتغيير الإيجابي .

وهذه النظرية عموماً منافية لسنة كونية معروفة وهي سنة « التغيير » التي تنقسم إلى قسمين :

الأول : سنة التغيير السلبي .. والتي نص عليها القرآن في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣]

الثاني : سنة التغيير الإيجابي .. والتي نص عليها القرآن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾ [الرعد : ١١] .

وختاماً نقول : حقًّا إن الأعداء من الدول والأمم والجماعات يتآمر بعضها على بعض ، ولكن هذا التآمر لا يمثل الإرادة الوحيدة التي تسير الكون وتحول مجرى الأحداث وتفسر كل ما يحدث في التاريخ .

وأول من اخترع نظرية المؤامرة هو فرعون حينما قال لسحرته حينما آمنوا بسيدنا موسى إيماناً وحبًّا واقتناعاً قال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] . وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦] .

○ ○ ○

الفصل الثالث

أثر أحداث سبتمبر على الإسلام والمسلمين

لم يرد ذكر تفاصيل الحملة العسكرية البربرية على أفغانستان في هذه الوريقات فلا حاجة لنا الآن بتجديد الآلام ونكأ الجراح خاصة وأننا جميعا قد عانينا أبشع صور الإجرام وقتل النساء والأطفال ودك المدن وتدمير المساجد وقتل الأسرى في جانجي وقندوز وكابول وقندهار بالقنابل الذكية والغبية التي تجاوزت الواحدة منها سبعة أطنان ..

وإنما نشير إلى التداعيات البعيدة المدى الممتدة الأثر ..

○ ○ ○

فلسطين .. وهجمات الحادي عشر من سبتمبر

من اللافت للنظر أن البيان الأول الذي أذاعته قناة الجزيرة للشيخ أسامة بن لادن ، وذلك عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة تضمن هذا البيان ما يشبه التبرير لتلك الأحداث بفلسطين « والعراق » إذ يقول فيه : « إن ما حدث في نيويورك وواشنطن كان من أجل فلسطين والعراق » .

وفي موضع آخر يقول :

« .. وكل ذلك بسبب التأييد المطلق لإسرائيل في عدوانها على المسلمين في فلسطين » .

وغير ذلك من العبارات والكلمات حول فلسطين .

والحق أن نقيض ذلك هو ما حدث واقعيا .

١- فالقضية الفلسطينية وجدت نفسها محشورة قسرا وعنوة في الهجمات .

٢- وحكومة شارون العدوانية وجدت في ذلك دعما لسياستها في المزيد من الفتك والاجتياح والتصفية الجسدية والإبعاد والطرد و.. و.. تحت ستار مكافحة الإرهاب الدولي .

٣- والحركات الجهادية التحريرية الإسلامية « حماس والجهاد » وجدت نفسها على رأس قائمة « الإرهاب » الدولي مما أفقدها الكثير من الدعم المادي والإعلامي والسياسي .

٤- والعديد من المنظمات الخيرية الإسلامية للإغاثة والعون حيل بينها وبين أداء مهامها الإنسانية الضرورية إما بتجميد أرصدتها أو الحد من أنشطتها أو إغلاقها بالكلية « كما حدث مع « مؤسسة الأرض المقدسة » أكبر الجمعيات الخيرية الداعمة للفلسطينيين » .

٥- العديد من الأنظمة الداعمة للقضية الفلسطينية اضطرت اضطرارا إلى تقليص دعمها خشية تصنيفها ضمن الدول الداعمة للإرهاب .

٦- الخلط المتعمد من وسائل الإعلام الغربية بين مفهوم الإرهاب وبين مفهوم المقاومة الشرعية أضفى على جهود الحركات التحريرية الوطنية الإسلامية بظلال كثيفة من الريبة وعدم الاطمئنان إليها .

٧- ولعل القرار الغاشم الذي أصدره الكونجرس الأمريكي أوائل أكتوبر ٢٠٠٢ باعتبار القدس عاصمة إسرائيل ونقل السفارة الأمريكية إليها من تل أبيب : يعد هذا القرار بدرجة أو بأخرى أحد تداعيات هجمات الحادي عشر من سبتمبر .

٨- هذا فضلا عن تأخر موقع القضية الفلسطينية على جدول اهتمامات المجتمع الدولي رسميا وشعبيا في ظل الزخم الإعلامي المكثف حول مكافحة الإرهاب وتداعيات الأحداث .

○ ○ ○

الإسلام في منظور الغرب
« رسميا – ثقافيا – إعلاميا »

نسوق هنا بعض المقولات التي وردت على لسان الساسة والرموز الرسمية الغربية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر دون الحاجة إلى تعليق منا :

○ **الرئيس الأمريكي بوش :**

لم يجد حرجا أن يصف حربه على الإرهاب بـ « الحملات الصليبية » لإضفاء الصبغة الدينية على الصراع .

○ **رئيس الوزراء الإيطالي « بيرلسكوني » :**

في صلف واستعلاء وجهل وصف الحضارة الغربية المسيحية بأنها أرقى من حضارة الإسلام المتخلفة ، ودعا إلى استنقاذ العالم الإسلامي من تخلف وجهل ألف وأربعمائة عام بسبب انتمائهم للإسلام .

○ **رئيسة الوزراء البريطانية السابقة « مارجريت تاتشر » :**

إن الغرب معرض لخطر الإرهاب الإسلامي ، وهذا الخطر هو « البولشوفية » الجديدة ، وعلى الغرب أن يجمع أمره على محاربة هذا الخطر في كل مكان .

○ **وزير العدل الأمريكي « جون أشكروفت » :**

– « كل مسلم متهم وعليه إثبات براءته » .

– « الإسلام دين عنيف يطلب فيه اللّه منك أن ترسل ابنك كي يموت من أجله أما في المسيحية فإن اللّه يرسل ابنه كي يموت من أجلك » .

○ **مستشارة الأمن القومي الأمريكي « كونداليزارايس » :**

« إن أمريكا بعد الانتهاء من الملف العراقي ستقوم بتحرير العالم الإسلامي من أجل إحلال الديموقراطية ومسيرة الحرية في المنطقة ، وإن الإدارة الأمريكية تملك التفوق العسكري الذي لم تملكه أي دولة في التاريخ وهو ما يمكنها من استثمار هذا التفوق لتوفير محيط تزدهر فيه القيم الأمريكية » .

متفرقات من أقوال أبرز الكتاب الأمريكيين ..
« عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر »

○ العدو الحقيقي هو الأصوليون الإسلاميون .

○ زمن حروب المسلمين .

○ أسامة بن لادن أعلنها حربا على الحضارة الغربية .

○ هجمات الحادي عشر من سبتمبر تمثل حركة ارتجاعية عنيفة يائسة ضد العالم الحديث .

○ الفاشية الإسلامية غير المتسامحة .

○ الإسلام هو أقل الديانات السماوية تسامحا .

○ ضرورة قبول روسيا كدولة محورية أرثوذكسية في مواجهة المد الأصولي الإسلامي .

○ الإسلاميون هدفهم العالم المعاصر .

○ على الغرب المحافظة على تفوقه الحضاري ، وكبح تطوير القوة العسكرية للدول الإسلامية .

ومثل هذه الأقوال المحملة بعداء محكم للإسلام تحمل الكثير من الموروث الثقافي السلبي لصورة الإسلام مما يسهل مهمة الإعلام الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين من خلال عملية منهجية منظمة .

○ ○ ○

هجمات الحادي عشر من سبتمبر
والعلاقات الدولية في ثوبها الجديد

كان لهذه الهجمات تداعياتها التي تجاوزت حدود ردود الأفعال القريبة إلى أنماط وعلاقات دولية مستجدة وتأثيرات تجاوز الأطراف المنخرطة فيها مباشرة .. ولعل من أبرزها :

١- التقارب بين كل من روسيا والولايات المتحدة تحت شعار مكافحة الإرهاب الدولي .. « ولا يخفى على حصيف ما في هذا التقارب من مصالح متبادلة بأن تغض كل منهما الطرف عن ممارسات الآخر الوحشية : روسيا في الشيشان وأمريكا في أفغانستان .. » .

٢- رأب الصدع في العلاقات الأوروبية / الأمريكية والتي قد كانت قد وصلت إلى مستوى متدن قبيل الأحداث .

٣- بروز دور الهند في الجهود الدولية ضد الإرهاب « كقوة معتبرة في مقابلة باكستان في آسيا وكذا للفوز بدعم المجتمع الدولي لها في سياستها في كشمير تحت ستار مكافحة الإرهاب » .

٤- فرصة ذهبية لإعادة ترتيب جدول الأولويات العالمي بوضع قضية مكافحة الإرهاب على رأس الجدول وتنحية قضايا حيوية ذات أهمية استراتيجية كقضية فلسطين .

○ ○ ○

الأحداث
والتدخل السياسي والثقافي في الدول الإسلامية

من الآثار المريرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر على مجتمعات العالم الإسلامي أن « الحق » المزيف الذي فرضته الولايات المتحدة على المجتمع الدولي بأحقيتها في ملاحقة « الإرهاب » لم يقتصر على العمل العسكري فحسب بل تعداه إلى التدخل السياسي والثقافي .

الأول : بفرض نظم سياسية موالية لها تعمل على تحقيق أهدافها وحماية مصالحها في تلك البلدان .

والثاني : وهو الأبعد مدى والأعمق أثرا - وهو التدخلات الثقافية والتعليمية التي تهدف إلى تغيير وتشكيل العقلية الجماعية للأجيال القادمة من أبناء العرب والمسلمين ، وحتى لا يكون كلامنا جزافا نسوق مثالا بما حدث في باكستان حيث طالبت الإدارة الأمريكية السلطات في باكستان بمطالب من هذا النوع منها مثلا :

١- تغيير مناهج الدين الإسلامي المقررة على الطلاب بمختلف المراحل بالتركيز على مبادئ معينة مع تجاهل مفهوم الجهاد .

٢- التركيز على شق العبادات مع التغاضي عن الجوانب الأخرى ذات الطابع السياسي والإنساني العام .

٣- تخفيض عدد ساعات تدريس المقررات الدينية ٢٠ ٪ .

٤- وفي مادة التاريخ تنحية قضية كشمير من المنهج الدراسي .

هذا بعض ما تم الكشف عنه وما خفي أعظم .

ومما لا شك فيه أن هذه المطالب الأمريكية قد وجهت للعديد من الدول العربية

والإسلامية الأخرى بدرجات متفاوتة كل حسب طبيعته ونوعية علاقته بأمريكا ومدى تأثيرها عليه . وهذه التدخلات يمكن وصفها بأنها إعادة تصميم التعليم الديني الإسلامي بما يتوافق مع الحاجات الأمريكية .

ومكمن الخطورة في هذا التشويه الثقافي والمسخ المعرفي أنه يهدف إلى التأثير على نمط التنشئة الدينية والاجتماعية في المجتمعات العربية والإسلامية من خلال عملية هندسية اجتماعية وسياسية وثقافية تقوم بها القوى الكبرى في عالم اليوم للمجتمعات العربية والإسلامية بحيث تثمر في النهاية إعادة ترتيب العقلية الجماعية لهذه المجتمعات حتى لا تمثل منبع خطر أو تهديد لنمط الحياة الأمريكية والغربية .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن هذه السياسات وتلك الغايات كانت مطروحة من قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ولكنها بعدها كانت أقوى طرحا وأكثر تفعيلا وما ذاك إلا نتيجة طبيعية لسعي الأنظمة القائمة في تلك البلدان لكسب رضا الولايات المتحدة عنها وتحاشي الصدام أو حتى مجرد إبداء الاستياء من سياستها إزاءها خشية إدراجها ضمن قائمة « الدول الراعية للإرهاب » . ذلك المفهوم الفضفاض المرن الذي يتسع لما يحقق كل غايات السياسة الأمريكية في كل اتجاه .

ورغم عدم الاتفاق الدولي على مفهوم « الإرهاب » تحديدا إلا أن الولايات المتحدة سعت بالترغيب والترهيب جاهرة إلى إبهام أبعاد ودلالات هذا المفهوم لتطال بذلك كل خصومها القدامى والجدد ولتسوية حساباتها القديمة والحديثة على حد سواء . فكل فعل يتضمن عنفا ضد المدنيين بدوافع سياسية هو « الإرهاب » وفي ظل هذا المفهوم الرحب المترهل أضفت أمريكا على المقاومة المشروعة للاحتلال صفة الإرهاب في خلط متعمد واضح يخدم مصالح حليفتها الاستراتيجية إسرائيل ، ولذا جاءت الحركات التحريرية الإسلامية على رأس « لائحة الإرهاب الأمريكية » الجهاد .. حماس .. حزب الله .

وقد شملت اللائحة :

○ تجريم خمس وعشرين منظمة « منها ثماني عشرة إسلامية وعربية » .

○ تجميد أموال اثنين وستين منظمة وفرد « معظمها خيرية وإنسانية وإغاثة إسلامية » . يضاف إليها ما بادرت حكومات الدول العربية والإسلامية بتجميده ومصادرته .

○ هذا فضلا عن الاعتداءات والتحرشات العنصرية ضد الأقليات المسلمة في الغرب « ألف وأربعمائة واثنان وخمسون حالة خلال شهرين من الأحداث » .

○ بالإضافة إلى « القوانين والتشريعات » التي صدرت في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا بل والسويد أيضا .

○ ○ ○

عوامل ساعدت على الاستثمار الأمريكي السيئ للأحداث

العامل الأول : ويعد أهمها وهو صعود الجمهوريين على قمة السلطة في أمريكا بتحالف قوي مع اليمين المسيحي والذي كان يمثل ٢٥ ٪ من حجم أصوات الناخبين والذي أعطاه لبوش الابن مع دعم يهودي واضح ، وكان لذلك تأثير شديد على أفكار بوش الابن بسبب تبني اليمين المسيحي الأمريكي لفكرة « الياهو مسيحية » والتي تؤمن بأن المسيح سيعود للأرض بعد معركة فاصلة مع الكفار « المسلمين » تسمى « هرمجدون » وسيكون ذلك بعد سيطرة اليهود على بيت المقدس وهدمه وبناء هيكلهم مكانه ، وبعدها يتبع اليهود المسيح . هذا هو مجمل اعتقاد اليمين المسيحي المتحالف مع بوش .

العامل الثاني : هو صناعة السلاح ، فهذه الصناعة الجبارة التي أصابها الكساد بعد انتهاء الحرب الباردة ومناداة البعض في أمريكا بتصفيتها وتحويلها لأغراض مدنية رغم أنها كانت الأربح في أمريكا قبل ذلك ، كل ذلك كان له تأثير قوي حيث ظهرت نظرية تقول إنه إذا لم تقم حرب في خلال أعوام ستنهار صناعة السلاح وهذه النظرية ظهرت عام ٢٠٠١ ، وظهر إلى جانب هذه النظرية مؤشرات الكساد في الاقتصاد الأمريكي ، وظهور نظرية تآكل القوى والتي تقضي بأن عدم استخدام القوة العسكرية الضخمة ستؤدي إلى تآكلها .

العامل الثالث : ظهور عامل البترول على الذهنية الأمريكية بقوة وذلك منذ حرب الخليج الثانية ، وهذا العامل يفترض التواجد الأمريكي حيث يتواجد البترول ، وعزز هذا العامل أن الكثيرين من إدارة بوش كانوا يعملون في مجال البترول قبل دخولهم البيت الأبيض ، ومنهم ديك تشيني ، ورايس وغيرهما .

○ ○ ○

الفصل الرابع

طالبان وسياستها الغريبة

حكومة طالبان .. وسياسات غربية

رغم أننا لسنا بصدد تقييم حكومة طالبان ، ولا فترة حكمها للبلاد لا سياسيا ولا دوليا ولا اجتماعيا .. ولكن فقط نتناول بعض الممارسات التي كانت إيذانا جليا بعدم استمرار حكومة طالبان في سدة الحكم طويلا :

○ **داخليا :**

كثرت الانتقادات التي وجهت إلى حكومة طالبان إزاء سياستها الداخلية إزاء أفراد شعبها خاصة في مجال : الإعلام والتلفزيون – التعليم والمرأة – الأعراق وفصائل المعارضة .

ولنبدأ بالأهم .. فقد كانت أولى الغايات التي ينبغي على الملا عمر أن يسعى لتحقيقها هي توحيد الجبهة الداخلية تحت ريادته .. نجد أنه لم يول هذا الأمر الرعاية الكافية ؛ بل على العكس من ذلك سار في الاتجاه المعاكس .. فالتركيبة الديموغرافية والتباين العرقي والعنصري للمجتمع الأفغاني بين باشتون وأوزبك وهزارة وطاجيك و... و.. بل والتباين المذهبي أيضا بين شيعة وسنة ، كل ذلك كان يملي على طالبان والملا عمر إدراج توحيد الجبهة الداخلية على رأس أولويات أهدافه وغاياته .

كان من الممكن بشيء من الفطنة احتواء واستيعاب كافة الفصائل – خاصة الشمالية المعارضة – تحت لوائه سواء بمنحهم بعض الحقائب الوزارية أو مميزات الحكم الإقليمي أو حكم الولايات أو بأي صورة من صور الترضية لضمان ولائهم وانتمائهم ، إلا أنه لم يفعل شيئا من ذلك بل ناصبهم العداوة وشن ضدهم حربا مستعرة أنهكت قواه الاقتصادية وشعبت اهتماماته ومزقت جهوده ..

وفي المقابل لم يجد قادة هذه الفصائل مفرا من الارتباط بمن يدعمونهم عسكريا ولوجستيا في حربهم ضد حكومة طالبان .. الشيعة إلى إيران ، والطاجيك إلى

طاجيكستان ، والأوزبك إلى أوزبكستان ؛ بل ولجأ بعضهم إلى التعاون مع الروس « دوستم » لإلحاق الضرر بحكومة طالبان ، ولم يجد الروس أدنى غضاضة في دعمهم بكل قوة ثأرا لما لحقهم من هزيمة نكراء على أرض أفغانستان ..

وقد رأينا جميعا كيف كانت المعارضة الشمالية هي أداة الولايات المتحدة في إسقاط حكومة طالبان في غضون أيام قلائل .. فوا أسفاه .

وأما عن المرأة وتعليمها وعملها وحقوقها .. فلم يكن من الحصافة أن تستثير حكومة طالبان العالم بأسره ضدها بإثارة قضية « حرمان المرأة » من التعليم والعمل والخروج من البيت .

ورغم أن وسائل الإعلام - شرقا وغربا وعربيا كذلك - قد نفخت في الرماد وضخمت الأمور إلى حد بشع إلا أن ممارسات طالبان الغريبة كانت هي الدافع والحافز المثير .

فقد كان بإمكان طالبان تدبير الأمور بشيء من الحكمة مع مراعاة معطيات المجتمع الدولي ومتطلباته وضغوطه - كما فعلت إيران - في هذه القضية الحرجة الحساسة التي تتبناها كل الحكومات ومئات من الهيئات والمؤسسات والجمعيات ..

فلم يكن لائقا ولا مشروعا حجر تعليم النساء رغم حاجة المجتمع إلى معلمات وطبيبات وقابلات وممرضات مما يدخل في حكم الضرورات أحيانا والمباحات أحيانا .

وهل هناك مجال أخصب من التعليم للبنات وفق مناهج شرعية ذكية لتربية النشء على ما تريده الحكومات الإسلامية ؟!!

وكما جانب التوفيق طالبان في مسألة التعليم والمرأة خاصمها أيضا التوفيق في مجال الإعلام والتلفاز .. فلا توجد حاليا وسيلة أكثر تأثيرا وتوجيها للأفراد من التلفاز لشيوع انتشاره وقلة تكلفته وسهولة التعامل معه .

وبدلا من توظيف هذا الجهاز « السحري » الفعال في خدمة الدين ونشر الإصلاح فوجئنا وفوجئ العالم أجمع برجالات طالبان يقتحمون المنازل ويقبضون

على أجهزة التلفاز ويحطمونها في تصرف عجيب مثير حقا .

ولن نكثر من الحديث حول هذا الأمر ولكننا فقط نقول : إن جماعات وأحزابا - بل وأندية وأفرادا (١) - أحسنت استثمار هذا الجهاز الإعلامي الخطير لخدمة أغراضها ونشر دعوتها والتواصل مع العالم أجمع بكل قوة وجرأة وإقدام .

بل ومن عجيب الأمور أن لا يعرف الأفراد « صورة » قائدهم ورئيس دولتهم !!

ورغم أن ذلك « الحجب » لصورته ربما أفاده مؤخرا في رحلة هروبه من القوات الأمريكية وتحالف الشمال إلا أن التواصل المباشر بين الشعب وقائده يولد ارتباطا روحيا ومعنويا قويا وفعالا ومؤثرا في ولاء الأفراد لنظمهم .

○ **أما دوليا :**

فمنذ اللحظة الأولى لقيام حكومة طالبان والمجتمع الدولي يرفضها بقوة ، وليس أدل على ذلك من أن ثلاثة دول فقط من الأسرة الدولية البالغ عدد أفرادها تقريبا مائة وخمسا وسبعين دولة هي التي اعترفت بحكومة طالبان « السعودية - باكستان - الإمارات » وليس أدل على ذلك أيضا من أن مقعد أفغانستان في الجمعية العامة للأمم المتحدة ظلت تشغله حكومة رباني « المخلوعة » رغم سيطرة طالبان على ٩٥ ٪ من أراضي أفغانستان .

ورغم هذا كله لم تفطن طالبان إلى خصومها الكثر ، بل ولم تحسن معاملة الدول الثلاث التي جازفت بالاعتراف بها .

وما أحداث تفجيرات الخبر والرياض في السعودية إلا أكبر دليل على ذلك .

أما الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التي وقع فيها الملا عمر والتي تدل على عدم صلاحيته للقيادة وأنه لا يصلح إلا كفقيه أو خطيب ، فهي أنه وضع باكستان بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أمام خيارين صعبين لا ثالث لهما :

---

(١) حزب الله يمتلك قناة إسلامية فعالة « المنار » وكذلك الأحزاب الإسلامية في تركيا « القناة السابعة » فضلا عن أندية كريال مدريد وأيه سي ميلانو ، بل وأفراد كنجيب ساويرس وأحمد بهجت « قناة دريم » .

أولهما : إما أن تؤيد باكستان أفغانستان في موقفها فيتم تدمير الاثنتين بواسطة التحالف الدولي الذي قادته أمريكا .

وثانيهما : وإما أن تقوم باكستان بمؤازرة أمريكا في تدميرها لطالبان وأفغانستان .

وفي الحال وعلى وجه السرعة اختارت باكستان الخيار الثاني ودمرت بنفسها طالبان التي أنشأتها ودعمتها وساندتها في حكم أفغانستان وكانت بذلك كالتي اضطرت أن تقتل وليدها وتزهق روحه وهي تبكي حزنا عليه .

وختاما نقول :

- ليس كل خطيب مفوه يصلح كقائد جماعة أو دولة أو أمة .
- وليس كل من يحسن الخطابة يحسن القيادة .
- وليس كل من يحسن نظم الكلمات يحسن سياسة الناس .
- وليس كل من تبحر في العلم الشرعي يصلح قائدا للناس .
- وليس كل فقيه يصلح كرئيس للناس .

إن هذه المعادلات رغم بساطتها تغيب عن الكثيرين ممن يعملون للإسلام ويدعون إلى الله .

ولعل درس الملا عمر وضياع أفغانستان يفيد كل أجيال الحركة الإسلامية في كل مكان حيث يظن الكثير من العاملين للإسلام أن الخطيب المفوه ، والفقيه المخضرم هو أولى الناس بالقيادة والريادة تقديما لفضيلة العلم وتعظيما لمكانة العلماء .

وقد آن الآوان لوضع الأمور في نصابها وتكليف كل إنسان بما يحسنه وما يستطيعه أيضا .

○ ○ ○

الفصل الخامس

الملا عمر ..

فقيه لا قائد

تمهيد

كم هو حرج وشائك أن يضطر المرء إلى الحديث عن غيره ، خاصة إذا كان هذا الغير من العاملين للّه الساعين لنيل رضاه .

ولكننا إزاء تحليلنا وتقييمنا لأحداث الحادي عشر من سبتمبر نجد أنفسنا بصدد تقييم من نسبت إليهم تلك الأحداث ، وتضافرت القرائن ، وتوافرت التصريحات على مسئوليتهم عنها .

ومع وافر تقديرنا للنيات الحسنة ، والمقاصد السامية ، والغايات الطيبة إلا أننا نعود ونؤكد على أن اللّه تعالى قد تعبدنا بالوسائل كما تعبدنا بالغايات . وأن ديننا الحنيف له من الضوابط والمعايير الشرعية ما يمكننا به الحكم على مشروعية أو عدم مشروعية أي أمر .

وقبل أن ننتقل إلى تقييمنا للملا عمر كأمير وقائد ورئيس دولة ذات أرض وشعب وسلطة .. نشير إلى أهمية بعدين هامين :

الأول : أن نهج الإسلام الحنيف وسنة النبي الشريف صلى اللّه عليه وسلم تعتمد مبدأ « الرجل المناسب في المكان المناسب » .. والسيرة العطرة بها الكثير من النماذج المضيئة في هذا الصدد.

الثاني : أنه لا انفصام بين أحكام الشرع الحنيف والواقع القائم أو ما يمكن تسميته « فقه الواقع » .

ومن يغفل عن واحدة من هاتين لا ينجح في سياسة أموره ولا تدبير شئونه ، ومن البديهي أن من يغفل عن الاثنين معا فقد استجمع كل أسباب الفشل وعدم التوفيق مهما كانت نيته حسنة أو غايته نبيلة .

○ ○ ○

لكل إنسان ملكات

من جميل تقدير اللّه تعالى وعظيم حكمته أنه - عز وجل - جعل لكل إنسان خلقه نصيبا من الملكات والقدرات والكفاءات والإمكانيات ، فلم يمنح أحدا كل شيء ، وكذلك لم يمنع أحدا من كل شيء .. ولولا ذلك التقدير الحكيم لما سارت عجلة الحياة ، ولكان الجميع أكفاء أندادا .

ولئن كان الأنبياء والمرسلون هم الأوفر حظا والأكثر نصيبا من هذه الملكات والكفاءات إلا أن سيرتهم العطرة تعلمنا أنهم ما كانوا يقطعون أمرا إلا بعد فحص ومشورة ذوي النهى .. فها هو رسولنا العظيم صلى اللّه عليه وسلم في غير ما موضع يقول : « أشيروا أيها الناس عليّ »(1) .. وهاهو صلى اللّه عليه وسلم في غير ما موقف ينزل على رأي أحد أصحابه .. وعلى هذا النهج القويم كان سائر الأنبياء والرسل يستشيرون حواريهم وأصفياءهم للاستزادة والاستفادة مما آتاهم اللّه من ملكات وكفاءات .

والمتأمل في سيرة الصحب الكرام يجد أنهم كانوا يتمايزون في ملكاتهم وقدراتهم .. فها هو ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه قد آتاه اللّه العلم والحكمة والتأويل ففاق في ذلك أصحابه على علو شأنهم ورفعة قدرهم .. وهاهو ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما جمع اللّه له مع العلم الزهد .. وهاهو أبو هريرة رضي اللّه تعالى عنه قد وهبه اللّه ملكة الحفظ والفقه والتثبيت والبصيرة وبينما لم يذكر لخالد ابن الوليد سبق في ميدان العلم إلا أنه بز سائر أقرانه بمهاراته العسكرية الفائقة وحنكته القتالية البارعة وهاهو حسان بن ثابت يجرى الشعر والبيان على لسانه عذبا فراتا وإن لم يكن له في القتال باع .

---

(1) جزء من حديث رواه البخاري [٤١٧٩] عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي اللّه تعالى عنهما .

ورغم تفرد بعض الافراد بالملكات المختلفة إلا أنه سبحانه وتعالى قد وهب البعض من الملكات الشاملة ما يجعلهم أفذاذا ، كالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وعمر ابن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم ممن قل أن يجود الزمان بمثلهم .

○ ○ ○

القيادة ملكة

وكالعلم و الحكمة والحلم والشعر كذلك القيادة .. قيادة الناس وريادتهم وسياسة أمورهم وتدبير شئونهم .. كل هذا ملكة أيضا يهبها اللّه للبعض ويحرم منها غيرهم لحكمته البالغة .

ورحم اللّه أبا ذر الغفاري – رضي اللّه عنه – حين نصحه الحكيم المصطفى – صلى اللّه عليه وسلم : « يا أبا ذر إنك ضعيف »[1] .. فلم يكن هذا « الضعف » في إيمانه ولا بنيانه ، وإنما للقيادة مؤهلاتها وقدراتها وكفاءاتها التي علم الرسول صلى اللّه عليه وسلم بفطنته وفراسته أن أبا ذر يفتقدها لذا نصحه أن لا يحمل نفسه ما لا تطيق أو أن يتولى أمرا ليس له بأهل .

فالقيادة تحتاج إلى طاقة نفسية خاصة ، واستعداد فطري متميز وعمق تفكير وحسن تدبير وصبر وسعة صدر ورحمة مع الحزم ورقة مع الحسم .

فالقيادة سياسة وحكمة ، وسلم وحرب ، وخصوم وأصدقاء ، ومصالح وحسابات ، وتأمل للحاضر في ظل تجارب الماضي لاستشراف المستقبل .

وليس كل من آتاه اللّه علما شرعيا يصلح قائدا ، وليس كل زاهد ورع تقي يصلح رائدا ، وليس كل خطيب بارع مفوه يصلح لأن يسوس الناس أو يتولى أمرهم .

فالأمر أكبر وأعظم من مجرد تحصيل علوم الشرع أو تهذيب النفس أو سمو الروح أو .. أو .. وإن كان كل هذا مطلوبا للقائد إلا أنه ليس هو الأساس أو حجر الزاوية وعمود الفسطاط ، بل هي – كما ذكرنا – استعداد فطري وطاقة نفسية متميزة .

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [١٨٢٥ / ١٦] ، البيهقي في الكبرى [١٩٩٩٩] ، والحاكم في المستدرك [٤ / ١٠٣] .

ومن يتأمل سيرة بني أمية يجد أبا سفيان قائدا لقريش في حربها وسلمها وتجارتها وسائر أمورها ، ويجد معاوية قائدا لدولة الإسلام قرابة عشرين عاما « ٤١ هـ - ٦٠ هـ » وبحنكته وكياسته ضبط أركانها وأسس بنيانها وتغلب على الخصوم في قلب دولته وعلى التخوم ، بل ما آلت إليه قيادة الدولة إلا بسياسته التي جمعت الناس حوله .

فلعل ذلك الاستعداد الفطري والريادة الغريزية قد ورثها من أبي سفيان وورث منه ابنه يزيد بعضها وتوارثتها بعدهما أجيال .

ومن بطون أمية أيضا مروان وولده عبد الملك وبنوه الأربعة وليد وسليمان ويزيد وهشام وابن عمهم الراشد عمر بن عبد العزيز .

○ ○ ○

الملا عمر .. ثقافته وخبرته

ليس تحقيرا من شأنه ولا انتقاصا من قدره .. نقول إنه – رحمه الله حيا وميتا – تخصص منذ وعيه وإدراكه في تلقي الفقه الإسلامي الشرعي من أمهات كتب السلف وعلى يد معلميه الشرعيين ، ولم تتح له فرصة دراسة أو معايشة الواقع لا الإقليمي ولا الدولي ، ولم يدرس ذلك لا أكاديميا ولا عمليا ولا حتى وراثيا .

وحتى تلك الفترة العصيبة التي عاشها في أفغانستان إبان الاحتلال السوفيتي لها كان آنذاك في مقتبل عمره وكان هناك في مدارس ومعاهد العلم الشرعي في باكستان بمنأى عن معترك السياسة وخضم القيادة .

وقد أهلته ملكته العلمية وفصاحته الخطابية – فضلا عن صدق نيته وإخلاصه – لأن يتبوأ موقع الصدارة بين رفقائه من طلاب العلم الشرعي فأصبح أميرا على جماعته .. وفارق كبير جدا بين إمارة جماعة ورئاسة دولة .

وقيض الله لحركة طالبان أن تسيطر على ٩٥ ٪ من أرض أفغانستان .. ويبدو أن مكانة الملا عمر الروحية بين أفراد حركته جعلت له موقع الصدارة كذلك في أجهزة الدولة الناشئة إلا أن التجربة العملية والسنوات القلائل التي تولت فيها طالبان رئاسة البلاد وعلى سدة حكمها الملا عمر برهنت أنه – رحمه الله – فقيه لا قائد .

○ ○ ○

الفصل السادس

بين إمارة الجماعة وقيادة الدول

ستظل أفغانستان – ربما لحقب طويلة – تمثل المعادل المكافئ لكلمة « المأساة » فلقد تحولت أفغانستان من حلم جميل يراود ملايين المسلمين .. ومن مشروع جهادي نضالي عظيم إلى أعظم مأساة في تاريخ المسلمين .. الحديث والمعاصر .. وربما لا نبالغ إذ نقول : إنها من كبريات النكبات التي دهمتنا بعد سقوط الخلافة وضياع فلسطين .

لقد صنعت مأساة أفغانستان وتشكلت على يد أبنائها وبسبب رواسب ثقافية وعرقية عتيدة ومصالح شخصية ونزعات حزبية لم تستطع السنوات الطوال محوها.. وطالما أبكانا المشهد الأفغاني بتداعياته المختلفة .. بكينا ونحن نشاهد جموع المجاهدين وهي تدخل كابول وظننا وقتها أن الحلم قد تحقق وقد آن للشعب الأفغاني أن يتنسم عبير الحرية ويضمد جراحه ويكفكف دموعه .. ولكننا كنا واهمين ، فما ثم قليل إلا ودوي المدافع يبدد الأحلام ويقضي على الآمال .. ووقف مجاهدو الأمس يتصارعون ويتقاتلون والشعب الأفغاني لم تندمل جراحه بعد ، فدفع الثمن من دمه وماله .. وبدا المشهد قاتما بل سوداويا .

ولاحت بوارق الأمل من ظلمة المحنة عام ١٩٩٧ م . وطلاب المدارس الشرعية المعروفون باسم « طالبان » يتدخلون بقوة لحسم الأمر وفض النزاع وإعادة الأمور إلى جادة الصواب .. وتحقق لهم ما يصبون إليه وسيطروا على ما يقرب من ٩٠ ٪ من أراضي أفغانستان .. والحق يقال فقد بدا المشهد الأفغاني أكثر صفاء ونقاء .. فقد تحقق الأمن للشعب الأفغاني بعد غياب سنوات طويلة .. واختفى قطاع الطريق ونقاط تحصيل الإتاوات ودمرت مزارع الخشخاش وحوصرت تجارة الأفيون وظل المشهد الأفغاني يبدو ظاهريا كأفضل ما يكون إلا من بعض المنغصات من جانب تحالف الشمال ورئيسه شاه مسعود .

وحاولنا – للأسف الشديد – أن نغض الطرف عن بعض ممارسات طالبان طيلة السنوات الماضية قانعين أنفسنا أن الأمر قد يكون مغالى فيه .. أو غير صحيح بالمرة

ولكن جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما استتبعها من أحداث لتنازعنا عن موقف المشاهد المتفرج وتضعنا في موقف المحلل المدقق استنهاضا لمسئوليتنا تجاه أمتنا ، فلقد كان المشهد مروعا في جاجي وتورابورا وقندهار وجلال آباد وغيرها ، وما زلنا حتى الآن نقف على أطلال هذه المشاهد نذرف عندها الدمع على أرواح أزهقت وحرمات انتهكت .. ولكننا أبينا الوقوف طويلا . فالمأساة جد خطيرة .. وما جاجي وتورابورا وغيرهما إلا انعكاسات أليمة لهذه المأساة المتشعبة الجذور في التربة الأفغانية .. والمقام لن يتسع لشرح وتحليل وتفنيد المأساة بالصورة كاملة .

ولكننا سنحاول إلقاء الضوء على أحد جوانب المأساة .

ألا وهو شخصية الملا عمر !!

فبادئ ذي بدء .. يعلم الله أننا نكن الحب والاحترام لكل مسلم صادق مع ربه والملا عمر نحسب أنه من أولئك الرجال الذين أرادوا وجه ربهم وصدقوا معه .. فالرجل رضى لنفسه أن يحيا حياة الزاهد المتقشف وهو رئيس للدولة .. وحاول جهد طاقته أن يطبق الإسلام في حياة الناس .. وكان الرجل عازفا عن الشهرة والأضواء ، ويكفي أنه استطاع بقيادته لطالبان تحقيق الأمن للمواطن الأفغاني ، وإضفاء نوع من الهدوء على أفغانستان لم تشهده البلاد منذ سنوات طويلة .. لقد اجتهد الملا عمر – بحسب طاقته وقدر جهده – ولكنه – شأن البشر – كان معرضا أن يقع في أخطاء .. ولكنها في حالته كانت من الأخطاء القاتلة التي عجلت بانهيار دولة طالبان .. ووقوع أفغانستان فريسة الأسر الأمريكي وهي التي ما انفكت تضمد جراح الأسر السوفيتي ..

لذا كانت الأسطر التالية محاولة للاستفادة وليست – يعلم الله – للتشهير أو الشماتة . وكيف ذاك والجرح جرحنا .. والمأساة جزء من تفكيرنا .. ليس عيبا أن ننقد ذاتنا طالما أنه في صالح إنارة طريقنا .. لقد أحببنا الملا عمر وتعاطفنا معه ولكن حبنا للحق أقوى وأشد .. ولقد عاتب الله صحابة نبيه رضي الله عنهم بعد أحد ..

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢]
وما نقص هذا من قدرهم شيئا .

لقد كانت أولى أخطاء الملا عمر – حفظه اللّه – أنه قاد دولة أفغانستان بنفس العقلية التي كان يقود بها جماعة طالبان .. ففرق كبير وبون شاسع بين قيادة الدول وقيادة الجماعات ، وهذا أمر لم تبد له انعكاسات على تصرفات الملا عمر . لقد كان ينبغي عليه أن يتعامل مع أفغانستان صاحبة التركيبة السكانية المعقدة بعقلية رجل الدولة الحصيف الذي يتعامل مع الواقع كما هو لا كما ينبغي فمن المعروف أن أفغانستان تضم العديد من العرقيات المتناحرة .. فالباشتون يمثلون ٤٠ ٪ والطاجيك ٢٥ ٪ والأوزبك ١٥ ٪ والشيعة ٢٠ ٪ ..

أمشاج ونطف مختلفة كان ينبغي على الملا عمر توسيع دائرة المشاركة السياسية لصهرها في بوتقة واحدة تخدم أمن أفغانستان في نهاية المطاف .. ولكن الملا عمر تعامل معهم وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية وأعلى من قيمة العرق الباشتونى .. فكانت النتيجة أن ارتمت هذه العرقيات في أحضان مسعود ودوستم وفهيم وغيرهم وبعد ذلك في أحضان الأمريكان ، وكانوا بمثابة مخلب القط الذي نهش ومزق أوصال دولة أفغانستان .

لقد كانت سياسة الملا عمر تصلح لقيادة جماعة طالبان .. أما قيادة الدول فالأمر جد مختلف ، وهذا ليس قدحا في شخصية الملا عمر ولكن قيادة المسلمين تحتاج إلى مؤهلات كثيرة وليس فقط التقوى والزهادة .. لقد كان ينبغي عليه أن يتبع سياسة الاحتواء تجاه العرقيات الأخرى ويحاول أن يبحث عن وسيلة أخرى غير الحرب والسلاح لإدماجهم في الحياة الأفغانية وأن يعاملهم بمبدأ « القبول والاعتراف » لا « الرفض والاستبعاد » .. فالرسول صلى اللّه عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة (١) اتبع سياسة الاحتواء تجاه العناصر المناوئة له وعلى رأسهم

(١) هناك فرق بين الجماعة المسلمة الأولى التي كان يقودها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في =

اليهود [1] والمنافقين ، حتى قال قولته المشهورة عندما أشار عليه بعض الصحابة بقتل رأس النفاق ابن سلول : « .. لا .. حتى لا يقال إن محمدا يقتل أصحابه »[2] . لذا كان ينبغي على الملا عمر أن يوطن نفسه أنه رئيس لدولة تضم أعراقا شتى ورعايا أخر وبعض الديانات وعليه أن يتعامل مع كل هؤلاء كما تعامل الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم مع الآخرين في مجتمع المدينة .

ثم إنه قد يكون طبيعيا أن تعيش جماعة « طالبان » في جزيرة منفصلة عن العالم ولكن هذا الوضع لا يصلح لدولة مثل أفغانستان فوجدنا الملا عمر يهمل إدماج أفغانستان في الحياة الدولية ، ولم يقم علاقات دبلوماسية سوى مع ثلاث دول فقط[3] وخسر إيران جارته القوية عندما قتل بعض الدبلوماسيين الإيرانيين وهو أمر مخالف لكافة الأعراف الدولية حتى في حالة ثبوت تجسسهم[4] .. وهكذا عاشت أفغانستان وحيدة حبيسة الجبال العتيدة .. تجرجر أذيال الفقر والتخلف التي عمت

= مكة ، وبين الدولة المسلمة التي كان يقودها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم في المدينة من نواح كثيرة أهمها : أن رعيته صلى اللّٰه عليه وسلم في الجماعة كلهم مسلمون بل من خواص المسلمين أما في الدولة المسلمة في المدينة فمن رعيته يهود بني قينقاع ويهود بني النضير ويهود بني قريظة ، ومن رعيته منافقون مثل عبد اللّٰه بن أبي بن سلول ، ومن رعيته أيضا المهاجرون والأنصار بقبائلهم المتعددة ، وكذلك الأعراب .

(1) عقد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بعد دخوله المدينة مباشرة معاهدة مع اليهود للدفاع عن المدينة ، وهي أشبه ما تكون ـ بما يسمى الآن في القانون الدولي ـ معاهدة الدفاع المشترك .. وهذا من عبقرية الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم السياسية والاستراتيجية .. ولم يخرج الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم يهود المدينة عن المدينة إلا بعد غدرهم .. ولم يخرجهم جميعا مرة واحدة ولكن كلما غدر فريق أخرجه وحده ، ولم يتبع سياسة العقاب الجماعي أو تعميم العقاب ..

(2) سبق تخريجه .

(3) هي : باكستان ، والسعودية ، والإمارات . وقد قطعت هذه الدول علاقتها معه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر .

(4) تكتفي الدول بطرد الدبلوماسيين المتورطين في أنشطة تجسس في بلادها .. والشريعة الإسلامية تحرم قتل الرسل ، وهذا عرف كان قبل الإسلام وأقره الإسلام .

البلاد وظن الملا عمر أنه بوسعه أن يقود سفينة الأفغان في وسط هذه الظروف ولو ران ببصره إلى حدوده الغربية حيث إيران الملالي وآيات الله لوجد نموذجا نختلف معه عقديا ونبهر به سياسيا .. لقد استطاع حكام إيران منذ قيام الثورة الإسلامية تأسيس نظام سياسي مبهر .. تعلو فيه صوت المؤسسات الحاكمة .. وتصان فيه الحريات الدستورية .. واستطاع حكام إيران – والحق يقال – أن ينتقلوا بإيران بمهارة سياسية فائقة من مرحلة الثورة إلى مرحلة إيران الدولة التي انفتحت على الجميع ولم تضيع شخصيتها وخصوصيتها .. وحسبت خطواتها على الصعيد الدولي فلم تبدد قوتها [(١)] في مغامرات فاشلة وسعت إلى تعزيز تواجدها في المحافل الدولية وإقامة علاقات دبلوماسية متكافئة مع كبريات الدول .. وعلى الصعيد الداخلي عملت على تحسين أوضاع المعيشة ورفع معدلات التنمية .. الخ .. كل هذا في ظل منظومة إسلامية حاكمة .. فهلا استفاد الملا عمر من هذه التجربة التي تقف على مرمى حجر منه . والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها ظفر بها .

ثم كان الخطأ الثاني الذي وقع فيه الملا عمر عندما أهمل الاهتمام بالشعب الأفغاني صحيا وتعليميا واجتماعيا واقتصاديا ..الخ ولم يهتم برفع معدلات التنمية [(٢)] – المنعدمة أصلا – لشعب يصنف في خانة أشد دول العالم فقرا .. واتخذت السلطات الأفغانية موقفا متشددا من المرأة فألغت وجودها وضيعت حقوقها التي كفلها لها الإسلام .. كل هذه عوامل أدت إلى انهيار المجتمع الأفغاني

---

(١) كانت الحرب العراقية مفروضة عليها .

(٢) قد يكون من أهم أهداف الجماعة المسلمة الالتزام الديني لأفرادها ودعوة الآخرين إلى ذلك الالتزام الديني .. أما الدولة المسلمة فبالإضافة إلى اهتمامها بالدين والالتزام به فإنها ملتزمة دينيا وقانونيا وأخلاقيا بالأمن الداخلي والخارجي وبتيسير سبل المعيشة من مياه نقية وكهرباء ومواصلات واتصالات وصرف صحي وعناية صحية ورعاية اجتماعية .. فكل ذلك من أهم مهام الدولة المسلمة ، ويلخصه قول الفقهاء في ذلك الأمر حيث يقولون : إن مهمة الولاة هي حسن سياسة الدنيا والدين .. وكل مهام الدولة التي ذكرناها تدخل في هذا الإطار وتعتبر واجبا في الدولة المسلمة الحديثة بالذات على الحكام والولاة ..

تحت وطأة الدولار والهامبورجر الأمريكي .

بل إن الملا عمر لم يهتم بتحقيق التواصل بينه وبين الشعب الأفغاني ، بل لعله اعتبر هذا أمرا تافها لا يستحق الذكر .. مع أن قادة الدول رؤوس العمل السياسي ينفقون الأموال الطائلة لتحقيق هذا التواصل الجماهيري .. ولكن الملا عمر ألغى وسائل الاتصال الإعلامي مثل التلفاز والإنترنت ولم يهتم بالاستفادة من هذه التقنيات لخدمة الإسلام في بلد كأفغانستان ترتفع فيه نسبة الأمية ويصبح للكلمة المسموعة دور إيجابي عظيم .

من الطريف أن أكثرية الشعب الأفغاني لا يعرف صورة الملا عمر ولم يره إلا القليل من أبناء الشعب الأفغاني .

قد يكون الشعب الأفغاني أحب طالبان ولكنه لم يرتبط وجدانيا بالفكرة التي حملتها طالبان . فلم يسع الملا عمر وقادة طالبان إلى تربية الشعب الأفغاني تربية ناضجة راشدة تخرجهم من مرحلة البداوة الحضارية التي يرسفون في أغلالها إلى مرحلة التحضر الفكري والتقني .

ما كان الشعب الأفغاني يستحق المعاناة من حكامه وقادته ، فله حق في الحياة مثل بقية الشعوب والأمم وما قدر عليه أن يعيش بين الأطلال والخرائب يبحث عن لقمة تسد رمقه ، وتكون أغلى أمنية تتمناها المرأة الأفغانية أن توفر لها الحكومة قابلة[1] لأن النساء يمتن أثناء عملية الوضع .

هذا الحصار الفكري الذي فرضه الملا عمر على الشعب الأفغاني قد يكون مقبولا أن يفرضه قائد جماعة [2] على أفراد جماعته ولكنه ليس مقبولا بالمرة من حاكم دولة على شعبه .. فالانفتاح على الآخرين ليس معناه الذوبان وتمييع الشخصية المسلمة وهذه مهمة القادة والمربين . فالمسلمون في حركة الفتوح الأولى اصطدموا بحضارات تمتلك رصيدا ماديا ضخما وأيضا فكريا لا يستهان به فلم يضربوا حول

(١) أي : داية .

(٢) حتى هذه فيها نظر .

ذواتهم عزلة تقيهم من هذه الشرور !! .. بل وقفوا أمام هذه الموروثات الفكرية والمادية الضخمة وقاموا بعملية تنقية ضخمة في استعلاء إيماني عظيم فقبلوا كل ما وافق الإسلام .. واستبعدوا كل مضاد ومخالف له .. ولكن الملا عمر آثر الحل السهل .. وقد يكون سهلا في قيادته لجماعته المتوحدة فكريا بل وتقريبا عرقيا ، أما في شأن قيادة الشعوب فلا مناص من الاعتراف بالفشل .

أما ثالثة الأثافي والخطأ الاستراتيجي القاتل الذي أودى بالدولة وبطالبان فهو ما قام به الملا عمر بربط مصيره ومصير الدولة بل ومصير شعب بأسره بمصير تنظيم القاعدة وقائده أسامة بن لادن . فقد يكون مقبولا أن تتحالف جماعة مع نظيرتها أو دولة مع مثيلتها .. أما أن تتحالف دولة ذات سيادة مع تنظيم فهذا هو الجديد في حالتنا .. إننا قد نتفهم أن يوفر الملا عمر مكانا آمنا لكل من شارك الشعب الأفغاني جهاده ضد السوفيت وهذا أقل ما يقدم لهم .. ولكن ما كان ينبغي أن يسمح الملا عمر لتنظيم القاعدة أن يستخدم أراضي أفغانستان كقاعدة للانطلاق لشن هجمات على المصالح الأمريكية والغربية .. فالحكم على الرعية منوط بالمصلحة كما تقول القاعدة الفقهية .. والمصلحة هنا تقتضي وقف كل هذه الأنشطة ومنع تنظيم القاعدة من جر البلاد إلى مواجهات لا طاقة لها بها . والشأن هنا لا تحكمه العواطف الجياشة بل التفكير المتزن الذي يقدر عواقب الأمور ويحسبها .

لقد كادت دولة السودان أن تضيع من قبل عندما سمحت النخبة الحاكمة فيها بوجود وضع مشابه لما حدث في أفغانستان بعد ذلك . ولكن الله سلم .. واستدركت القيادة السودانية الأمر وصححت أوضاعها .. وهي تجربة على ما يبدو لم يستفد منها الملا عمر .

وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر لتضع أفغانستان وجها لوجه أمام أمريكا بصلفها وجبروتها وقوتها العسكرية التي لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، ولقد كان القصف الصاروخي الأمريكي عام ١٩٩٩ م بمثابة الإنذار وناقوس الخطر

الذي دوى للجميع .. وكان ينبغي على الملا عمر أن يحجم تنظيم القاعدة رحمة بشعبه وبدولته ولكنه غض الطرف عن كل هذا حتى وقع ما وقع ولم يبق لنا سوى إحصاء موتانا .

وهكذا تمضي تجربة الملا عمر مليئة بالدموع والأوجاع .. وفي الوقت ذاته بالعبر والعظات التي ينبغي على كل محب لدينه أن يقف أمامها معتبرا .. كذا ينبغي على جميع أبناء الحركة الإسلامية أن يعوا هذا الدرس جيدا .

فهذا رجل أحب دينه وأخلص له – نحسبه كذلك – ولكنه لم يمتلك الحس السياسي والعقلية الاستراتيجية اللتين تمكناه من قيادة الدولة[1] .. فالصلاح وحده ليس مقوما لقيادة الدول وسياسة الشعوب ، فها هو أبو ذر رضي الله عنه يقول : يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : « يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها »[2] .. قال العلماء : هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية ولا سيما لمن كان فيه ضعف وهو من دخل فيها بغير أهلية .. والضعف هنا ليس ضعف الإيمان كما يتصور البعض فلم يكن أبو ذر ضعيف الإيمان أبدا بل كان معروفا بقوة الإيمان واليقين .. ولكنه ضعف عن القيام بأعباء مسؤولية الدولة بما تتطلبه هذه المسؤولية الضخمة من استعدادات ذهنية وسياسية وعسكرية واقتصادية وخبرات إنسانية وتاريخية وأمنية وجغرافية .. الخ .. وهذا الحديث بالذات من دلالات النبوة وعبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم في فهمه لمتطلبات الولاية العامة .. وقد

---

(١) يقول الأستاذ فهمي هويدي عن طالبان : « وحين تولت السلطة ظلت تحارب على جبهة التفلت من الدين بذات الأسلوب المفتقر إلى الذكاء الاجتماعي ، وعجزت أن تقدم شيئا خارج ذلك الإطار فلا أحسنت إقامة الدين ولا أقامت شيئا يذكر في الدنيا .. ذلك أن المشروع الثقافي الذي خرجوا من عباءته كان معنيا بأمور معينة تدور في ذلك الالتزام الديني ولم تكن إقامة الدنيا من شواغله » أ.هـ

(٢) سبق تخريجه .

يوجد من يصلح لقيادة جماعة ما ، ولكن هذا لا يعطيه مسوغا وصكا لقيادة الدول والشعوب ما لم يمتلك الأدوات المؤهلة لذلك حتى لا يعود الأمر وبالا على الإسلام والمسلمين .

وفي النهاية يبقى شعب أفغانستان شاهدا على حجم وعمق المأساة .. يبقى شعب تقاذفته محن وأعاصير . وتلاعبت به الأهواء تارة .. والأطماع تارة .. وانعدام الخبرة تارة ثالثة .. شعب صنعت مأساته على يد أبنائه .. وقدر له أن يكون معبرا لجيوش المحتل ومأوى لهم ولو لفترة .. فهل سيأتي يوم نضحك فيه مع هذا الشعب الذي أبكانا ؟!!

سؤال حائر .. قد لا نملك إجابته الآن !!

○ ○ ○



الخاتمة

خاتمة

وبعد ...

فهذه رحلتنا إلى السجون نقلتها إليك ـ أخي القارئ ـ قدر استطاعتي بالصوت والصورة .. بلا زيف ولا رتوش .. حاولت جهدي أن أجعلك تعيش معنا في حلنا وترحالنا .. وأن تكون وسط جموع المستمعين وهم ينصتون إلى كلامنا .. أن تنتبه إلينا ونحن نجيب على كم الأسئلة الهائل الذي ورد إلينا .

وبعد أن عشت مع هذه الرحلة وطفت معي من جنوب البلاد إلى شمالها .. وقبل أن أودعك وأتركك أحببت أن أهمس في أذنك بهذه الكلمات .. والأمل يحدوني أن تصل إلى قلبك .

لقد قيل قبل عام ، عندما بدأت تفعيل المبادرة على أرض الواقع : إن هذه المبادرة مقايضة بين الجماعة الإسلامية والدولة للخروج من السجن .. وهاهو الواقع يثبت كذب هذه الافتراءات فما زلت ـ بعد أكثر من عام من تفعيل المبادرة ـ ومعي الآلاف من أبناء الجماعة خلف الأسوار .. وما زال الجميع ينتظر فرج اللّٰه عز وجل .. وبالرغم من كل هذا فقناعة الجميع بالمبادرة وبما تم أخيرا من مراجعات فكرية هي هي لم تتغير ولم تتبدل . هي هي بنفس الحماسة وذات القوة التي قوبلت بها المبادرة منذ أكثر من عام .. بل لعلي لا أبالغ إذ أقول : إن هذه القناعة .. وهذا القبول .. في ازدياد لم يتغير .. فليس الأمر كما توهم البعض أنه مقايضة .. أو هكذا حاول البعض تصويره للفت الأنظار عن مضمون المبادرة الحقيقي .

لقد كانت هذه المبادرة منعطفا خطيرا في تاريخ الجماعة الإسلامية بل في تاريخ الحركات الإسلامية .. إذ وضعت النقاط على الحروف وأنهت حقبا طويلة من الصراع الدامي بين الدولة وأبنائها من الشباب المسلم .. استطاعت هذه المبادرة ـ بفضل اللّٰه ـ أن تنهي حالة العداء المستحكم بين فئتين من المجتمع .. عداء نبت في القلوب وغذته تداعيات الأحداث ، فاستحال قتلا وتدميرا وتخريبا ، وذلك نتيجة فهم خاطئ من كل طرف للآخر .

وأعظم ما في الأمر أن هذه النهاية جاءت نابعة من الذات لا بسبب ضغط من طرف على طرف .. مما جعلها تجربة رائدة ، وستظل ريادتها – إن شاء الله – معلما للأجيال القادمة .

لقد حدث تحول عظيم داخل الجماعة الإسلامية .. هذا التحول يسجل باستمرار في خانة التحول إلى الأحسن .. ومن باب الإنصاف أود هنا أن أسجل كلمة إنصاف وشكر لأبناء الجماعة .. فهذه الآلاف من هذا الشباب الذين التقينا بهم في السجون نحسبهم من المخلصين الغيورين على دينهم .. المحبين لإسلامهم .. وآية ذلك كله أنهم استجابوا للصواب عندما عرضناه عليهم . ولقد لمسنا منهم مدى حبهم لبلادهم .

وإني أحمد الله تعالى أن لوثة التكفير لم تتسلل أو تتسرب داخل الجماعة .. فلم يكفر هذا الشباب في يوم من الأيام وطنه ولا المجتمع الذي يعيش فيه .. وهذه حقيقة يعرفها الجميع عن الجماعة .

وواجب على الجميع الآن ... المحبين لدينهم ولوطنهم .. أن يطووا هذه الصفحة الكئيبة ، ولا يتوقفوا عندها .. فالوطن في حاجة إلى كل يد تبني وتدافع عنه .

وإني لأنظر إلى هذه الآلاف ، وهي تقبع حتى الآن داخل السجون .. فيعتصرني الألم لعدم استفادة الوطن من هذه الطاقات المخلصة .. وهذه السواعد الفتية .. وأحلم بيوم تفتح فيه هذه السجون أبوابها ليخرج هذا الشباب إلى مجتمعه الذي يحبه ويقدره .. يعمر فيه ويدافع عنه .. ويتفاعل معه تفاعلا إيجابيا خلاقا .

كما أنني أود أن أسجل شهادتي على ما يحدث في السجون الآن فإني أقول وبصدق : لقد انتقلت السجون من مرحلة اللا إنسانية إلى مرحلة احترام الإنسانية ومن مرحلة إهدار الكرامة إلى مرحلة صون الكرامة .. ويقف وراء هذا التحول العظيم رجال شرفاء محبون لبلدهم أدركوا أن أي تغيير يراد إحداثه ، فلا بد في مبدئه من احترام الإنسان والحفاظ على كرامته ، حتى يمكن توجيهه إلى الصواب

بعد ذلك .. أدركوا أن السوط والهراوة لا يفرزان إلا مزيدا من العنف والكراهية .

فشكرا من أعماق قلبي لكل من ساهم في توفير هذه الحياة الكريمة لكل المعتقلين .

وأخيرا

فإن كان من خير وصواب في هذا الكتاب فإنما هو محض فضل من اللّه .. وإن كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان .. ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

واللّه يعفو عنا .

وعذرا

أخي الحبيب .. إن كنت قد أتعبتك معي في هذه الرحلة الطويلة الشاقة.. ولكن جاء وقت راحتك .. ولا تنسني بعدها من دعوة صالحة لي ولإخواني ..

أما أنا فسأمضي في طريق .. تزداد قناعتي يوما بعد يوم بما قدمته .. وما فعلته ..

في سبيل اللّه أمضي

وعلى هدى كتاب اللّه قد أحكمت نبضي

أرتدي الفجر وامضي في سبيلي

فإذا الشمس دليلي

وإذا الأنجم في قلبي .. وأعراس النخيل

وعلى هدى كتابي

أزرع النخلة وأسقيها شبابي

أبصر النخلة .. تجتاز المسافات لتمتص رحيق الشمس من ثدي الروابي

أسمع الترنيمة الأولى لطير الفجر

والترجيعة الأولى لديك الفجر

بوح الغيث للأرض اليباب

وفي الختام أقول :

لـوجـه الـلّـه قـمـنـا في وفـاء	لخير الدين في الزمن العصيب
ورب الكون يشهد ما رجونا	سوى الخيرات للوطن الحبيب
ورأب الصدع في أرض الكنان	لترقى مصرنا فوق النحيب
فعهدا يا بلادي في لساني	وفي قلمي وفي القلب المنيب
بأن أفديك يا أمي لتمضي	إلى الأمجاد في ثوب قشيب
وأحمي الدين من غال ومرجئ	وأحمي الأرض من عاد مريب
لتمضي في الحضارة في ثبات	وتخلى للعلا أعلى نصيب[1]

○ ○ ○

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

○ ○ ○

(١) هذه الأبيات كتبها الشيخ حسين الغريب ـ وشهرته مجدي الغريب ، على لساني بعد حديث مستفيض معه عن المبادرة .

الفهرس

العنوان	الصفحة
بين يدي الكتاب	٧
الباب الأول	
رحلات السجون من قمة الآلام إلى صحوة الآمال	١٩
بين يدي رحلات السجون	٢١
الفصل الأول	
كلمات من المحاضرات	٢٧
بين يدي الكلمات	٢٩
كلمات من المحاضرات	٣٣
الفصل الثاني	
وصايا الوداع	٦٣
دموع الوداع	٦٥
من وصايا الوداع	٦٧
الفصل الثالث	
قالوا عن المبادرة	٧٩
نهاية حقبة سوداء مظلمة	٨١
نص تقرير الأزهر الشريف عن كتب المبادرة الأربعة	٨٦
مقتطفات من أقوال العلماء المسلمين ورجال الدعوة والفكر عن المبادرة	٨٧
الباب الثاني	
تساؤلات حول المبادرة	١٠٣
أسئلة حرجة .. وأجوبة صريحة	١٠٥
السؤال الأول : ما الفرق بين المراجعة والتراجع ؟	١٠٦
السؤال الثاني : هل تعني المبادرة تعطيل الجهاد ؟	١٠٨
السؤال الثالث : ما موقف الجماعة الشرعي من حادث الأقصر ؟	١١٢
السؤال الرابع : هل يجوز العمل في السياحة ؟	١١٦

العنوان	الصفحة
السؤال الخامس : ما موقف الجماعة من الكتب القديمة التي نشرتها ؟ وهل الكتب الجديدة نسخت الكتب القديمة ؟	١١٨
السؤال السادس : هل تكفر الجماعة الإسلامية جهاز الشرطة ؟	١٢١
السؤال السابع : الجماعة لا تؤمن بالتكفير ، فلماذا كتبتم حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين ؟	١٢٣
السؤال الثامن : ما هي الضمانات لعدم العودة مرة أخرى لما سبق ؟	١٢٥
السؤال التاسع : ما هو مصير الإخوة الذين قتلوا في الأحداث السابقة ؟	١٢٨
السؤال العاشر : ما موقفكم لو عاد بعض أبناء الجماعة للعنف مرة ثانية ؟	١٣١
السؤال الحادي عشر : ما هي مبررات وجود الجماعة بعد أن أسقطت خيار العنف واستخدام القوة ؟	١٣٣
السؤال الثاني عشر : سبق وأن أصدرتم أربع بيانات متتالية فما الذي تريدون قوله من خلال هذه البيانات ؟	١٣٤
السؤال الثالث عشر : ما المتغيرات الداخلية التي دفعتكم لإصدار المبادرة ؟	١٣٨
السؤال الرابع عشر : ما الفرق بينكم وبين الجماعات الأخرى وهل تستخدمكم الحكومة في محاربة الجماعات الأخرى ؟	١٤٢
السؤال الخامس عشر : هل في المبادرة بنود سرية أو اتفاقات تحتية بين الجماعة والحكومة ؟	١٤٥
السؤال السادس عشر : ما الفارق بين المبادرة والتوبة ؟	١٤٦
السؤال السابع عشر : هل تم بالفعل حل الجناح العسكري للجماعة الإسلامية ؟	١٤٨
السؤال الثامن عشر : ما هي مواصفات المجتهد الذي يحق له أن يجتهد في الدين ويبين أحكامه ؟	١٤٩
السؤال التاسع عشر : هل العمل الدعوي سيكون أساس دعوتكم وهل نفهم من ذلك أنكم ستفتون بجواز دخول المجالس التشريعية ؟	١٦٠
السؤال العشرون : هل تقدمون المصلحة على النص وتنقدون النص إذا تصورتم أنه يصادم المصلحة ؟	١٦٢

العنوان | الصفحة

السؤال الحادي والعشرون :
هل يجوز شرعا أن يقيم الآحاد الحدود على الأفراد ؟ ١٦٤
السؤال الثاني والعشرون :
لماذا لا تتبنى الجماعة قولا واحدا في المسائل الفقهية ؟ ١٦٦
السؤال الثالث والعشرون : يرى البعض أن الشيخ سيد قطب تأثر عندما تعرض لبعض الموضوعات مثل : الحاكمية والجاهلية بالضغوط والمعاملات القاسية التي شهدها في سجنه هل ترون هذا الكلام صحيحا ؟ ١٦٨
السؤال الرابع والعشرون : ما هي مواصفات دار الإسلام ودار الكفر ؟ وماذا عن بلاد المسلمين هذه الأيام وقد غُيبت الشريعة أو أكثرها عن حكم هذه البلاد ؟ ١٧٠
السؤال الخامس والعشرون : ما موقفكم من الاحتكام للقانون الوضعي في مسائل التعويض أو استرداد الحقوق وما شابه ذلك ؟ ١٧٣
السؤال السادس والعشرون : هل تعتقدون أن عقوبات مثل قطع يد السارق ورجم الزاني تلائم هذا العصر ؟ ١٧٦
السؤال السابع والعشرون : هل ترون أن فقه الواقع يعطي الحاكم الحق أن يقول بعدم الذهاب إلى الحج والعمرة إلا مرة واحدة ؟ ١٧٨
السؤال الثامن والعشرون : المفروض أن جهاز الشرطة هو الذي يتصدى للمنكرات في المجتمع فكيف لو كانت الشرطة هي التي تقوم على حماية هذه المنكرات ؟ ١٨٠
السؤال التاسع والعشرون : هل أهل الكتاب في مصر محاربون ؟ ١٨٢
السؤال الثلاثون : ما هي الحدود الفاصلة بين المودة وبين البر والإقساط في معاملة أهل الكتاب ؟ ١٨٣

الباب الثالث

١١ سبتمبر في الميزان ١٨٧
بين يدي الأحداث ١٨٩

العنوان الصفحة

الفصل الأول

إرهاصات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .... ١٩٣
هل تعتبر جنسية المرء مسوغا لقتله ؟! ٢٠٥
حكم قتل المدنيين ٢٠٦

الفصل الثاني

موقفنا من الأحداث ٢٠٩
الغاية لا تبرر الوسيلة
١- مقدمات .. ولكن ٢١١
٢- بيان الجماعة حول الأحداث ٢١٣
٣- طالبان.. الدور المفتقد .. والخصوم المتربصة ٢١٧
٤- التاريخ مخزن العبر .
من خوارزم شاه إلى الملا عمر ٢١٩
٥- هيروشيما ونجازاكي
دروس لم يقرأها الشيخ أسامة بن لادن والملا عمر جيدا ٢٢٢
٦- سنن الإسلام في ديار غيرهم « دروس من هجرة الحبشة » ٢٢٦
٧- نظرية المؤامرة .. تحليل ونقد ٢٣٣

الفصل الثالث

أثر أحداث سبتمبر على الإسلام والمسلمين ٢٣٧
فلسطين .. وهجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٤١
الإسلام في منظور الغرب
« رسميا - ثقافيا - إعلاميا » ٢٤٣
متفرقات من أقوال أبرز الكتاب الأمريكيين
« عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٤٤
- هجمات الحادي عشر من سبتمبر
والعلاقات الدولية في ثوبها الجديد ٢٤٥
- الأحداث والتدخل السياسي والثقافي في الدول الإسلامية ٢٤٦

العنوان — الصفحة

الفصل الرابع

طالبان وسياستها الغربية ٢٥٣

الفصل الخامس

الملا عمر .. فقيه لا قائد ٢٥٧
تمهيد ٢٥٩
لكل إنسان ملكات ٢٦٠
القيادة ملكة ٢٦٢
الملا عمر .. ثقافته وخبرته ٢٦٤

الفصل السادس

بين إمارة الجماعة وقيادة الدول ٢٦٥
خاتمة ٢٧٩
الفهرس ٢٨٣

○ ○ ○